التوكل على الله تعالى

وعلاقته بالأسباب

إعداد

د. عبد الله بن عمر الدميجي

أستاذ العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين

بجامعة أم القرى

دار الهدي النبوي

مصر

دار الفضيلة

السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثالثة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

الناشر

دار الفضيلة للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٤٣ - ص.ب ٥١١٤٢
تليفاكس ٢٣٣٣٠٦٣

توزيع
دار الهدي النبوي للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية - المنصورة
تليفون: ٢٣٢٣١٧٥ / ٠٥٠ - جوّال: ٠١٢/٧١٤٥٦٨١

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على رسوله المصطفى، وعلى آله وصحبه ومن بهديه اقتدى.

أما بعد: فيسرني أن أقدم لهذه الطبعة الثانية، بعد نفاد الطبعة الأولى، وكانت فرصة سانحة؛ لاستدراك وتصويب بعض الأخطاء الطباعية والشكلية، التي وقعت في الطبعة الأولى.

كما أن هذه الطبعة لم تخل من بعض الإضافات العلمية، والتعديلات التي يقتضيها المقام، بعد أن ظهرت لي بعد التأمل والمراجعة.

سائلاً المولى عز وجل أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المقدمـــــة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[١]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[٢]. ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾[٣].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فإن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأكرمه بهذا الدين القويم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾[٤]؛ ولذا كان الشكر سبيل عباد الله الصالحين، ودأب أولياء الله المتقين، من أتباع

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٠٢).

(٢) سورة الأحزاب، الآيتان: (٧٠-٧١).

(٣) سورة النساء، الآية: (١).

(٤) سورة إبراهيم، الآية: (٣٤).

الأنبياء والمرسلين، عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين.

وإذا ما نظرنا إلى تركيب هذا الإنسان، وجدنا خالقه العليم به، وبما يصلحه، ركَّبه من عنصري الروح والجسد، قال سبحانه: ﴿ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ﴾[1]. وشرع لهما ما يصلح شأنهما، فجعل شرائع لأعمال القلوب، وأخرى للجوارح، وقَدَّر بينهما من التلازم والترابط، ما لا يمكن معه أن ينفكّ أحدهما عن الآخر، فلا يمكن أن تستقيم أعمال القلوب الباطنة، إلا بانقياد الجوارح الظاهرة، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالجوارح، فاستقامتها رهن بسلامة القلوب واستقامتها.

وإننا حين نُمعن النظر في أعمال القلوب، التي هي أصل الإيمان، ومادته التي ينبثق منها، نَجد أنه ما من مقام أجمع لعلم القلب وعمله، من التوكل على الله تعالى؛ فهو من بين هذه الأعمال آكدها، ومن بين تلك المنازل أشرفها، وهو المقام الذي لا يمكن أن يستغني عنه الإنسان أبدًا؛ فإما أن يحقق التوكل على الله تعالى، الذي بيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، وإما أن يكون متوكلاً على مخلوق ضعيف مثله، شأنه شأن المخلوقات الضعيفة، التي لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

ويظهر لك جليًا على بقية الأعمال القلبية الأخرى، ويستتبع أعمال الجوارح الظاهرة أيضًا؛ ولأجل ذلكم قيل: (القلب مَلِكٌ، والجوارح جنوده،

(١) سورة السجدة، الآية: (٩).

فإذا صلح المَلِك صلحت جنوده، وإذا خبث الملك خبثتَ جنوده)[١].

ومن هنا كان السلف الصالح، معنيين ببيان هذا المقام الرفيع للتوكل على الله تعالى، حتى جعله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: (جماع الإيمان)[٢]، وقال في حقه سعيد بن جبير: "التوكل نصف الإيمان"[٣]، ونعته الفضيل بن عياض بقوله: "التوكل قوام العبادة"[٤].

وإن أمرًا هذا شأنه، لجدير باهتمام سلفنا الصالح، وعناية علمائنا الأفاضل، لذا فقد تناولوه في كتاباتهم وتآليفهم، وبوَّبوا له في سننهم ومصنفاتهم، ومنهم من أفرده برسائل خاصة؛ كابن أبي الدنيا رحمه الله تعالى، وتبعهم في ذلك أتباعهم بإحسان، الذين اقتفوا أثرهم وترسموا خطاهم.

وهذا يدل فيما يدل عليه، على شمول هذه العقيدة السلفية الأثرية، لجميع ما تحتاجه النفس؛ من العلم والعمل والتزكية والتهذيب، وعلى بطلان دعاوى المناوئين، القائلين باقتصارها على الاهتمام بالجوانب العلمية المعرفية الجامدة، والمجادلات العقيمة، دون نظر إلى تزكية النفوس وتربيتها، والاهتمام بأعمال القلوب، وأن هذه من خصائص أرباب السلوك، وأقطاب التصوف.

---

(١) منسوب لأبي هريرة رضي الله عنه، ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣٤).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١١١)، وفيه: أبو بلال الأشعري، قال البيهقي: "ليس بالقوي".

(٣) ينظر: الدر المنثور (٤/ ١٢).

(٤) أخرجه البيقهي في شعب الإيمان (٢/ ١١٢).

وقد تباينت أحوال الناس في أمر التوكل، حتى غدوا طرائق قددًا؛ فمنهم من استولت عليه الماديات، في غمرة طغيانها على هذه العصور المتأخرة، حتى حمل ذلك أكثرهم على التعلق بالشديد بالدنيا، والتكالب عليها، على نحو استحوذ على عقولهم وأذهانهم، وكان له أثر واضح في ضعف أعمال القلوب لديهم، والتوكل على الله من بينها، وقاد هذا الضعف إلى قلة الكتابة فيها، وندرة المذكِّرين بها، وعوّل الناس على الأسباب، وتعلقوا بها، فرحين بما عندهم من العلم، معتمدين على ما أوتوا من قوة، ومن وسائل مادية، وآل أمر أكثرهم إلى أن نسوا الله، راضين بالحياة الدنيا، مطمئنين بها اطمئنانًا يُخْشَى معه أن ينساهم كما نسوه، جزاءً وفاقًا.

ومن الناس من رضي لنفسه بالقعود، وآثر التقاعس والإخلاد إلى الأرض، وأعماه الكسل والخمول؛ فأخذ يبحث عن حجة يحتمي بها، ومسوِّغ يلوذ بحماه عند مواجهة سهام النقد، مظهرًا شعار التوكل على الله، زاعمًا أن التوكل يقتضي ترك الأسباب وينافي الأخذ بها. وقصارى أمر هؤلاء؛ أنهم قبعوا في الزوايا والخلوات، ورضوا من الرزق بالإحسان إليهم والصدقات.

وهناك أقوام يبدو عليهم الصلاح، ويظهر عليهم الحرص على طاعة الله، وبذل الجهد في طلب ما يرضيه، بيد أن جانب التوكل عندهم قد ضعف؛ فغفلوا عنه، فنظروا إلى الرزق والحطام، وأشفقوا على الأهل والأولاد؛ فأخرست تلك النظرة ألسنتهم عن كلمة الحق، وأقعدهم ذلك الإشفاق عن القيام بالإصلاح، وهم غير غافلين عن حاجة الأمة إلى ذلك، مدركين لمغبة التقصير في هذا الشأن، وما يترتب عليه من عواقب وخيمة، تهدم المجتمع

وتقوِّض أركانه.

ومن الناس أقوام غيورون على دين الله، تنبض قلوبهم بحرارة الإيمان، راغبون في تدارك ما كان فرط منهم أوان شبيبتهم وغلبة شهوتهم، فهم يسعون جاهدين للإصلاح، قد قوي توكلهم على الله تعالى، واعتمادهم عليه، وإيمانهم بوعده المحقق، كل ذلك يحدوه عواطف جياشة، وحماس ثائر مصحوبًا بعز الطاعة ولذتها التي ذاقوها، بعد تلك المعصية ومرارتها التي عايشوها، فأنستهم هذه الفورة ما كان يتعيَّن عليهم من الأخذ بالأسباب، والنظر في النواميس الكونية، والاعتبار بالسنن الإلهية، حتى جرهم ذلك إلى ما لا تحمد عقباه.

ومنهم من عرف الطريق فلزمه، وعرف الله فوثق بنصره، وعرف ما يجب عليه من الحق فصدع به؛ قيامًا بالواجب، والتماسًا لمرضاة الله، وابتغاء ما عنده، فنالهم من جراء ذلك ما جرت به سنة الله: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[1]. نسأل الله تعالى للجميع الثبات على الحق، والعزيمة على الرشد.

لنفسي أولاً، ثم لهؤلاء وأولئك، رأيت أن الحاجة ماسة إلى مثل هذه الرسالة؛ تذكرة وتصويبًا وتثبيتًا، تذكرة للناسين والغافلين من تلك الطوائف، وتصويبًا لمن جانب الصواب، وتثبيتًا لمن وفقه الله الاستقامة على

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: (٢، ٣).

الحق.

فكانت هذه المحاولة جمعًا للنصوص الشرعية، وأقوال علماء الأمة المتعلقة بهذا الموضوع، وترتيبًا لها وتنسيقًا فيما بينها، وتقديمها على هذه الهيئة، على عجالة من الأمر، وقلة من الزاد، وضيق من الوقت، وهو جهد مُقِلٍّ، يردد مع ابن القيم رحمه الله في مقدمة طريق الهجرتين[1]: "فيا أيها القارئ له، والناظر فيه، هذه بضاعة صاحبها المزجاة مسوقة إليك، وهذا فهمه وعقله معروض عليك، لك غُنْمه وعلى مؤلفه غُرْمه، ولك ثمرته وعليه عائدته، فإن عدم منك حمدًا وشكرًا، فلا يعدم منك عذرًا، وإن أبيت إلا الملام فبابه مفتوح...".

والله المسئول أن ينفع به كاتبه وقارئه، وعامة المسلمين، إنه سميع الدعاء وأهل الرجاء، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وكان الفراغ منها بعد ظهر يوم الخميس، الموافق للثاني عشر من شهر رمضان المبارك، من العام السادس عشر بعد الأربعمائة والألف من هجرة المصطفى ﷺ، في مكة المشرفة، حرسها الله بمنِّه وكرمه.

وصلى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد، وآله وصحبه أجمعين.

كتبه

عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي

---

(١) (١/ ٢١).

الفصل الأول

تعريف التوكل وبيان حقيقته

الفصل الأول

تعريف التوكل وبيان حقيقته

أولاً: تعريف التوكل:

أ- المعنى اللغوي:

التوكُّل من مادة "وَكَلَ"، يقال: "وَكَل بالله، وتوكَّل عليه، واتَّكل: استسلم له"[١]. و "وكل إليه الأمر، وَكْلاً ووكولاً: سلمه وتركه"[٢].

و"رجل وَكَلٌ ـ بالتحريك ـ وَوُكَلَةٌ أيضًا مثال هُمَزَة، وتَكِلَةٌ أي: عاجز يكلُ أمره إلى غيره ويتكل عليه"[٣]، قال الأزهري: "رجلٌ وُكلة، إذا كان يكل أمره إلى الناس"[٤].

وفرس وَاكلٌ: "يتكل على صاحبه في العَدْو، ويحتاج إلى الضرب".

والوكيل فعيل بمعنى مفعول: الذي يقوم بأمر موكله. قال الأزهري: "سُمِّيَ وكيلاً؛ لأن موكله قد وكل إليه القيام بأمره، فهو موكول إليه الأمر"[٥].

---

(١) لسان العرب لابن منظور: جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)، ط: ١٣٨٨، ن: دار صادر ودار بيروت. مادة: (وكل). (١١/ ٧٣٤).

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي: مجد الدين محمد بن يعقوب، ط: الثانية ١٣٧١هـ، ن: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مادة: (وكل)، (٤/ ٦٧).

(٣) تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري: إسماعيل حماد (ت٣٩٣هـ)، ن: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (٥/ ١٨٤٥)، وانظر: لسان العرب (١١/ ٧٣٤).

(٤) تهذيب اللغة للأزهري: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري (ت٣٧٠هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون ط. ١٣٨٤، ن: الدار المصرية للتأليف والنشر (١٠/ ٣٧١).

(٥) المصدر نفسه (١٠/ ٣٧٢).

والوكيل فسره بعضهم: بالكفيل. قال الراغب: "الوكل أعمّ؛ لأن كلَّ كفيل وكيلٌ، وليس كلّ وكيل كفيلاً"[١].

والتوكيل: "أن تعتمد على غيرك، وتجعله نائبًا عنك".

والتوكّل: تفعُّل من الوَكَالة، بفتح الواو وكسرها: إظهار العجز والاعتماد على غيرك[٢] والاسم التكلان[٣].

قال ابن الأثير: "يقال: توكل بالأمر: إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان، أي: ألجأته إليه واعتمدت فيه عليه، ووكّل عن القيام بأمر نفسه"[٤]. وقد يجتمعان.

قال الراغب: "التوكُّل يقال على وجهين؛ يقال: توكلت لفلان بمعنى توليت عليه، ويقال: وكّلته فتوكَّل لي، وتوكلت عليه بمعنى: اعتمدته"[٥].

وعليه؛ فالوكالة يراد بها أمران: "أحدهما: التوكيل: وهو الاستنابة والتفويض.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني: أبي القاسم الحسين بن محمد (ت٥٠٢هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: دار المعرفة، بيروت لبنان، ص(٥٣٢).

(٢) مجمل اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبدالمحسن خلكان، ط: الأولى، عام: (١٤٠٤هـ). مادة: (وكل)، (٣/ ٩٣٤).

(٣) الصحاح للجوهري، إسماعيل بن حماد (ت: ٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط: الثالثة، عام: ١٤٠٤، دار العلم للملايين، مادة: (وكل)، (٥/ ١٨٤٥).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير: أبي السعادات المبارك بن محمد الجزري (ت: ٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، طبع عام: ١٣٨٣، الناشر: المكتبة الإسلامية، مادة: (و ك ل)، (٥/ ٢٢١).

(٥) المفردات في غريب القرآن، ص (٥٣١).

والثاني: التوكّل: وهو التصرف بطريق النيابة عن الموكل"[١].

هذه بعض معاني هذه المادة، وهناك معانٍ أُخَر آثرت الصفح عنها؛ لعدم تعلقها بالمعنى المراد هنا.

ب- المعنى الاصطلاحي:

أما المعنى الاصطلاحي للتوكل؛ فنظرًا لكونه تعبيرًا عن حال من أحوال القلب، التي يصعب ضبطها بحد، فقد جاءت تفسيرات العلماء له على صور شتى؛ فمنهم من فسره بلازمه، ومنهم من فسره بأسبابه ودواعيه، أو بثمرته أو بجزء معناه، كما هي عادة السلف في تفسيراتهم.

ومن أسباب هذا الاختلاف؛ أن أحوال وأعمال القلوب يصعب انضباطها بحدّ، وحصرها بألفاظ؛ لذلك قال الغزالي عن التوكل: "غامض من حيث المعنى، شاق من حيث العمل"[٢].

كما أنهم لم يقصدوا بهذه التعريفات حقيقة التعريف الاصطلاحية؛ وإنما قصدوا بيان أهمية هذه الخصلة، أو مراعاة ظروف القائل أو المستمع، أو غيرها من الأسباب.

لذلك جاءت تفسيراتهم، وكأن في ظاهرها شيئًا من التغاير والاختلاف،

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم: محمد بن أبي بكر الزرعي (ت٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي، ط: الثانية، عام: ١٣٩٣هـ، (٢/ ١٢٦).

(٢) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي أبي حامد محمد بن محمد، (ت: ٥٠٥هـ)، ن: دار المعرفة، (٤/ ٢٤٣).

وهي في حقيقتها أجزاء من المعنى الكلي للتوكل، أو من لوازمه وآثاره وثماره.

ومن أهم هذه التفسيرات:

١- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هو الثقة بالله)[١].

٢- وقال الإمام أحمد: "هو قطع الاستشراف بالإياس من الخلق"[٢].

وقال: "وجملة التوكل: تفويض الأمر إلى الله جل ثناؤه، والثقة به"[٣].

٣- وقال عبدالله بن داود الخريبي[٤]: "أرى التوكل حسن الظن بالله"[٥].

٤- وقال شقيق بن إبراهيم[٦]: "التوكل: طمأنينة القلب بموعود الله عز وجل"[٧].

---

(١) ينظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي: أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد (ت٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن عبدالله، خرَّج أحاديثه: السعيد بن بسيوني زغلول، ط: الأولى، عام: ١٤٠٧هـ، ن: دار الفكر (٢/ ٢٤).

(٢) ينظر: طبقات الحنابلة للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى (ت٥٢٦هـ)، ن: دار المعرفة، (١/ ٤١٦).

(٣) ينظر: شعب الإيمان للبيهقي أبي الحسين أحمد بن الحسين (ت٤٥٨هـ)، تحقيق: محمد السيد بن بسيوني زغلول، ط: الأولى ١٤١٠هـ، ن: دار الكتب العلمية (٢/ ٥٧).

(٤) هو: عبد الله بن داود بن عامر بن ربيع، الإمام القدوة، قال ابن سعد: "كان ثقة عابدًا ناسكًا". توفي سنة ٢١٣هـ، ترجمته في: سير أعلام النبلاء للذهبي (٩/ ٣٤٦)، وتذكرة الحفاظ (١/ ٣٣٧).

(٥) أخرجه الحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا (ت: ٢٨١هـ)، في التوكل على الله عز وجل، تحقيق: جاسم الفهيد، ط: الأولى ١٤٠٧، ن: دار البشائر، ح: (٣٠)، ص (٦٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٧). وينظر: سير أعلام النبلاء (٩/ ٣٤٩).

(٦) هو: شقيق بن إبراهيم أبو علي البلخي، من كبار الزهاد. قال الذهبي ــ ميزان الاعتدال (٢/ ٢٧٩) ـ: "كان من كبار المجاهدين رحمه الله، استشهد في غزوة كولان سنة ١٩٤هـ".

(٧) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٨).

٥- وسئل الحسن عن التوكل، فقال: "الرضا عن الله عز وجل"[١].

٦- وقال علي بن أحمد البوشنجي[٢] بعدما سئل عن التوكل، فقال: "التبرئة من حولك وقوتك، وحول مثلك وقوة مثلك"[٣].

٧- وقال ابن الجوزي عن بعضهم: "هو: تفويض الأمر إلى الله؛ ثقة بحسن تدبيره"[٤].

٨- وقال ابن رجب الحنبلي: "هو: صدق اعتماد القلب على الله عز وجل، في استجلاب المصالح ودفع المضار، من أمور الدنيا والآخرة كلها"[٥].

٩- وقال الحافظ ابن حجر: "وقيل: هو قطع النظر عن الأسباب بعد تهيئة الأسباب"[٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله، ص (٥٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٨).

(٢) علي بن أحمد بن إبراهيم البوشنجي، الصوفي الزاهد الورع، توفي بنيسابور عام (٣٤٧هـ، وقيل:٣٤٨هـ). ترجمته في: حلية الأولياء لأبي نعيم (١٠/ ٣٧٩)، والمنتظم لابن الجوزي (٦/ ٣٩١)، وطبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٣٤٤).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٩٩).

(٤) زاد المسير (٢/ ٢٤).

وانظر نحو هذه التفسيرات: شعب الإيمان للبيهقي (٢/ ٩٥) فما بعدها، وإحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٥)، ومدارج السالكين (٢/ ١١٦).

(٥) جامع العلوم والحكم، في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، لابن رجب الحنبلي، أبي الفرج عبدالرحمن ابن شهاب الدين (ت: ٧٩٥هـ)، ن: دار المعرفة، ص (٤٠٩).

(٦) فتح الباري شرح صحيح البخاري، للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت: ٨٥٢هـ)، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ، ن: المكتبة السلفية بالقاهرة، (٣/ ٤٤٩).

١٠- وقال الشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب: "هو: إسناد العبد أمره إلى الله وحده لا شريك له، في جميع أموره الدينية والدنيوية"[١].

١١- ولعل أقرب التعريفات التي يمكن أن تجمع الجزئيات السابقة، أن يقال في تعريفه: "هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله، والإيمان بربوبيته؛ فيوجب له اعتمادًا عليه، وتفويضًا إليه، وطمأنينة به وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه"[٢].

أو بعبارة أخص: "هو حال للقلب ينشأ عن تمام معرفته بالله، والإيمان بربوبيته، يوجب كمال الاعتماد عليه، واليقين بكفايته".

ثانيًا: حقيقة التوكل:

مما سبق يظهر أن التوكل حال مركب من مجموعة أمور، لا تتم حقيقة التوكل إلا بها، ولذلك قال ابن القيم: "وقد تقدم أن كثيرًا من الناس يفسِّر التوكل بالثقة، ويجعله حقيقتها، ومنهم من يفسره بالتفويض، ومنهم من يفسره بالتسليم، فعلمت أن مقام التوكل يجمع ذلك كله"[٣].

ومن سبق ذكرهم من العلماء، قد فسر التوكل بواحد من هذه الأمور، أو

---

(١) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، ط: الثانية، ١٤٠٠هـ، ن: المطبعة السلفية بالقاهرة، ص(٦-٧).

(٢) انظر: مدارج السالكين (١/ ٨٢) بتصرف. وانظر قريبًا منه: تجريد التوحيد للمقريزي، ص(٢٨).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٤٤).

اثنين أو أكثر، وقد سماها الحافظ ابن القيم درجات[١]، وهي كالتالي:

الأولى: معرفة بالرب وصفاته، من قدرته وكفايته وقيوميته، وانتهاء الأمور إلى علمه، وصدورها عن مشيئته، واليقين بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك[٢].

قال ابن القيم: "وهذه المعرفة أول درجة يضع بها العبد قدمه في مقام التوكل"[٣]. ونقل عن شيخ الإسلام قوله: "ولذلك لا يصح التوكل ولا يتصور من فيلسوف، ولا من القدرية النفاة، القائلين بأنه يكون في ملكه ما لا يشاء، ولا يستقيم ـ أيضًا ـ من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات"[٤]. فهم بحق ـ أي: الفلاسفة والقدرية النفاة ـ قطاع الطريق على القلوب، بينها وبين خالقها ومحبوبها سبحانه وتعالى[٥].

وكيف يتصور منهم ذلك ـ أي: التوكل على الله تعالى ـ وهم ينكرون علم الله تعالى بالجزئيات، وينفون عنه تعالى صفات الفعل الاختيارية، والإرادة والمشيئة.

الثانية: إثبات الأسباب ورعايتها والأخذ بها.

---

(١) كما مدراج السالكين (٢/ ١١٧).

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر (ت: ٥٧١هـ)، ط: الثالثة، ١٤٠٠هـ، ن: المكتبة السلفية بالقاهرة، ص (٢٣٩).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٨).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١١٨).

(٥) المصدر نفسه (٣/ ١٧).

فلا يستقيم توكل العبد إلا بإثبات الأسباب؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب في حصول المتوكل فيه. وقد فهم بعض المتصوفة، أن إثبات الأسباب يقدح في التوكل، وأن نفيها من تمام التوكل، ولهم في ذلك أقوال معروفة، سيأتي الكلام عليها، والرد عليها في موضعه إن شاء الله[١].

لكن من تمام التوكل، عدم الركون إلى هذه الأسباب، والاعتماد عليها، وقطع علاقة القلب بها، كما سيأتي تفصيله.

ولذلك: "فالتوكل لا يتم إلا برفض الأسباب عن القلب، وتعلق الجوارح بها، فيكون منقطعًا منها، ومتصلاً بها، والله سبحانه وتعالى أعلم"[٢].

الثالثة: رسوخ القلب في مقام التوحيد.

"فإنه لا يستقيم توكل العبد حتى يصح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول، وعلى قدر تجريد التوحيد، تكون صحة التوكل"[٣].

الرابعة: اعتماد القلب على الله، واستناده إليه، وسكونه إليه، وطمأنينته به، والثقة بتدبيره، كما قال بعض العارفين: "المتوكل كالطفل؛ لا يعرف شيئًا

---

(١) انظر ص (١٧١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠). وانظر زيادة بيان للأسباب وعلاقتها بالتوكل ص (١٦٧)، من هذا البحث.

(٣) مدراج السالكين (٢/ ١٢٠). وموضوع علاقته التوكل بالتوحيد، سيأتي لها زيادة بيان وتفصيل، إن شاء الله تعالى، ص(٥٧).

يأوي إليه إلا ثدي أمه، كذلك المتوكل لا يأوي إلا إلى ربه"[١]. ولذلك قال ابن القيم: "التوكل معنى يلتئم من أصلين: الثقة، والاعتماد، وهو حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢][٣].

الخامسة: حسن الظن بالله عز وجل.

وقد فسره بذلك بعض من تقدم، وهو من دواعي التوكل، حيث لا يتصور التوكل، إلا ممن يحسن الظن به تعالى.

قال ابن القيم: "والتحقيق أن حسن الظن به يدعوه إلى التوكل عليه؛ إذ لا يتصور التوكل على من ساء ظنك به، ولا التوكل على من لا ترجوه. والله أعلم"[٤].

ولذلك قال الله عز وجل في الحديث القدسي: «**أنا عند ظن عبدي بي**»[٥]، وقال ﷺ قبل وفاته بثلاث: «**لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن**

---

(١) مدراج السالكين(٢/ ١٢١).

(٢) سورة الفاتحة، آية: (٥).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٧٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٢١).

(٥) رواه البخاري في التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾، ح: (٧٤٠٥)، (الفتح ١٣/ ٢٩٥)، ومسلم في التوبة، باب: في الحض على التوبة، ح: (٢٦٧٥)، (٤/ ٢١٠٢)، والترمذي في الزهد، باب: ما جاء في حسن الظن بالله، ح: (٢٣٨٨)، (٤/ ٥٩٦)، وابن ماجه في الأدب، باب: فضل العمل، ح: (٣٨٢٢)، (٢/ ١٢٥٥)، والدارمي في الرقاق، باب: حسن الظن بالله، ح: (٢٧٣٤)، (٢/ ٢١٤)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٥١، ٣١٥، ٣٩١).

بالله تعالى»[١].

السادسة: استسلام القلب له، وانجذاب دواعيه كلها إليه، وقطع منازعته.

وهذا من تمام التسليم لله تعالى؛ فلا يريد إلا ما أراده الله، ولا يحب إلا ما أحبه الله، ولا يبغض إلا ما أبغضه الله، ولا يفعل أو يترك إلا ما أمره الله بفعله أو تركه.

وهذا هو معنى تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى، وهو معنى حديث الولي، وفيه: «**... ومايزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه...**» الحديث[٢].

السابعة: التفويض[٣]. وهذا ما فسره به الإمام أحمد وغيره.

---

(١) رواه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الأمر بحسن الظن بالله، ح: (٢٨٧٧)، (٤/ ٢٢٠٥)، وأبو داود في الجنائز، باب: ما يستحب من حسن الظن بالله عند الموت، ح: (٢٠٩٧)، (عون ٨/ ٣٨٢)، وابن ماجه في الزهد، باب: التوكل واليقين، ح: (٤١٦٧)، (٢/ ١٣٩٥)، وأحمد (٣/ ٢٩٣، ٣١٥).

(٢) رواه البخاري في الرقاق، باب: التواضع، ح: (٦٥٠٢)، (الفتح ١١/ ٣٤٨).

(٣) ذهب صاحب منازل السائرين الإمام الهروي، إلى أن التفويض أوسع معنى من التوكل، وقد خالفه ابن القيم، وناقشه في أدلته، وخلص إلى قوله: "فالذي نذهب إليه؛ أن التوكل أوسع من التفويض وأعلى وأرفع". انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٣٧-١٣٩).

كما غلَّط شيخ الإسلام، من جعل حقيقة التوكل بمنزلة حقيقة التفويض المحض. انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٢).

قال ابن القيم: "وهو روح التوكل ولُبُّه وحقيقته، وهو إلقاؤه أموره كلها إلى الله، وإنزالها به طلبًا واختيارًا؛ لا كرهًا واضطرارًا"[١].

فالتفويض: براءة وخروج من الحول والقوة، وتسليم الأمر كله إلى مالكه[٢] عز وجل، وقد جاء في دعائه ﷺ: «**اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك**»[٣].

وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٤]. ثم عقب بجزءا هذا التفويض، فقال عز وجل: ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾[٥].

روى ابن جرير الطبري، بإسناده إلى الشعبي، قال: تجالس شتير[٦] بن شكل ومسروق، فقال شتير: إما أن تحدث ما سمعت من ابن مسعود فأصدقك، وإما أن أحدثك فتصدقني؟ فقال مسروق: لا، بل حَدِّث

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٣٨).

(٣) رواه البخاري في الوضوء، باب: فضل من بات على وضوء ح: (٢٤٧)، (الفتح ١/ ٤٢٦)، ومسلم في الذكر والدعاء، باب: ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، ح: (٢٧١٠)، (٤/ ٢٠٨١)، وأبو داود في الأدب (٩٨)، والترمذي في الدعوات (١٦١)، والدارمي في الاستئذان (٥١)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٨٥، ٢٩٠).

(٤) سورة غافر، الآية: (٤٤).

(٥) سورة غافر، الآية: (٤٥).

(٦) هو: شتير بن شكل بن حميد العبسي، أبو عيسى الكوفي. يقال: إنه أدرك الجاهلية، مات في ولاية ابن الزبير، وكان ثقة قليل الحديث. تهذيب التهذيب (٤/ ٣١١).

فأصدقك. فقال: سمعت ابن مسعود يقول: إن أكبر آية في القرآن [تفويضًا][١] ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[٢] قال مسروق: صدقت[٣].

الثامنة: الرضا.

قال ابن القيم: "وهي ثمرة التوكل، ومن فسره بها[٤] فإنما فسره بأجلِّ ثمراته وأعظم فوائده؛ فإنه إذا توكل حق التوكل رضي بما يفعله وكيله"[٥].

وذكر شيخ الإسلام أن الرضا والتوكل يكتنفان المقدور، "فالتوكل قبل وقوعه، والرضا بعد وقوعه"[٦]. فمن توكل على الله قبل الفعل، ورضي

---

(١) عند ابن جرير: "تفوضًا"، والتصويب من المصادر الأخرى.

(٢) سورة الطلاق، الآية: (٣).

(٣) رواه ابن جرير في التفسير (٢٨/ ١٤٠)، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله، ح: (٥٠)، ص(٨٧) بإسناد جيد. ورواه عبدالرزاق في المصنف ح: (٦٠٠٢)، (٣/ ٣٧٠)، والطبراني في الكبير، ح: (٨٦٥٩)، (٩/ ١٤٢) بأصول منه، إلا أن الآية: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ بدل: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾.

قال الهيثمي في المجمع (٧/ ١٢٦): "رواه كله الطبراني بأسانيد، ورجال الأول رجال الصحيح، غير عاصم بن بهدلة،وهو ثقة وفيه ضعف.

(٤) كما تقدم عن الحسن رحمه الله، وقول يحيى بن معاذ، وقد سئل: متى يكون الرجل متوكلاً؟ فقال: إذا رضي بالله وكيلاً. وقال بشر الحافي: "يقول أحدهم: توكلت على الله؛ يكذب على الله؛ لو توكل على الله لرضي بما يفعله الله به". مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).

(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧)، في رسالة: التحفة العراقية في الأعمال القلبية، وانظرها مطبوعة مستقلة مع أمراض القلوب وشفائها، تحقيق د: محمود مطرجي، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ، ن: دار القلم، ص(٨٧).

بالمقضي له بعد الفعل، فقد قام بالعبودية، أو معنى هذا[١].

وقد قرن الله تعالى بينهما في قوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴾[٢].

كما جمع بينهما النبي ﷺ في دعاء الاستخارة، الذي كان يعلمه أصحابه كما يعلمهم السورة من القرآن، فقال في أوله: «**اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم**»؛ وهذا توكل وتفويض، ثم ختمه بسؤال الرضا في قوله: «**واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضِّني به**»[٣].

وكان من دعائه ﷺ في الصلاة: «... **وأسألك الرضا بعد القضاء**»[٤].

قال شيخ الإسلام: "سأله الرضا بعد القضاء؛ لأنه حينئذ بين حقيقة الرضا

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٢).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٥٩).

(٣) الحديث: رواه البخاري في التوحيد. باب: ﴿ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ ﴾، ح: (٧٣٩)، (١٣/ ٣٨٧)، والترمذي في الوتر، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، ح: (٤٨٠)، (٢/ ٣٤٥)، وابن ماجه في إقامة الصلاة، باب: ما جاء في صلاة الاستخارة، ح: (١٣٨٣)، (١/ ٤٤٠)، وأحمد في المسند (٣/ ٣٤٤).

ولابن القيم كلام نفيس جدًا في تعليقه على هذا الحديث، في مدارج السالكين (٢/ ١٢٣)، فيراجعه من شاء.

(٤) رواه النسائي في السهو، باب: (٦٢)، ح: (١٣٠٥) و (١٣٠٦)، (٣/ ٥٤)، وأحمد في المسند (٥/ ١٩١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٥٢٤)، من حديث: عمار بن ياسر، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، والألباني في تخريجه: أحاديث الكلم الطيب لشيخ الإسلام، ص(٦٦)، وقال: "حدَّث به عطاء قبل الاختلاط".

قبله، فإنما هو عزم على أنه يرضى إذا أصابه، وإنما يتحقق الرضا بعده"[١].

فهذه الدرجات الثمانية، التي منها ما هو من أسباب التوكل ودواعيه، ومنها ما هو من ثماره وآثاره، ومنها ما هو جزء معناه؛ مَنْ استكملها فقد استكمل مقام التوكل، وثبت فيه، وإذا انثلم منها واحد، نقص من توكله بقدر تلك الثلمة. والله أعلم.

* * *

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٧). وانظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٢٣).

الفصل الثاني

منزلة التوكل من العقيدة

الفصل الثاني

منزلة التوكل من العقيدة

للحديث عن بيان منزلة التوكل من العقيدة، لابد لنا من بيان منزلته من الإيمان، ومنزلته من التوحيد.

وبيان منزلته من الإيمان يجرنا إلى بيان منزلة أعمال القلوب ـ الذي هو أحدها ـ من الإيمان، ثم بيان منزلة التوكل من أعمال القلوب.

ولهذا جاء هذا الفصل على النحو التالي:

أولاً: منزلة أعمال القلوب من الإيمان:

لما كانت حقيقة العبد قلبه وروحه، فلا غرابة أن نجد الإسلام ـ ممثلاً في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ـ قد اعتنى بهذا الجانب أشد العناية؛ فجعل عمل القلب هو صلب قضية الإيمان، في كل وقت وحين، وقطب رحاها الذي حوله تدور، وجعله حجر زاوية هذا الدين، الذي بعث الله به الأنبياء والمرسلين.

قال الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾[2]. فتضمنت هذه الآية: "أن الحياة النافعة إنما تحصل

(١) سورة يونس، الآية: (٥٧).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢٤).

بالاستجابة لله ولرسوله ﷺ؛ فمن لم تحصل له هذه الاستجابة، فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية، مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة؛ هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم [أمواتٌ][1] وإن كانوا أحياء الأبدان"[2].

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3]، وقال عز من قائل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ۝٦٩ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾[4] أي: حي القلب[5].

وقال تعالى عن حزب الله المفلحين: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[6]. فجعل كتابة الإيمان في القلوب.

وقال تعالى ممتنًا على المؤمنين: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾[7]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾[8]. وقال في الرخصة

---

(١) في الأصل: أمواتًا.

(٢) الفوائد لابن قيم الجوزية، ص (٨١).

(٣) سورة الأنعام، الآية: (١٢٢).

(٤) سورة يس، الآيتان: (٦٩، ٧٠).

(٥) الفوائد، ص (٣).

(٦) سورة المجادلة، الآية: (٢٢).

(٧) سورة الحجرات، الآية: (٧).

(٨) سورة الفتح، الآية: (٤).

التلفظ بالكفر عند الإكراه، بشرط اطمئنان القلب بالإيمان فيه: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1].

وعلى ذلك تربى سلفنا الصالح، صحابة رسول الله ﷺ، فكان يربيهم القرآن بما يحيي هذه القلوب، ويوقظها من غفلتها، ويداويها من أمراضها وأسقامها، فعاتبهم الله عز وجل لَمَّا استبطأ خشوع هذه القلوب، بقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾[2].

عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: (إن الله استبطأ قلوب المهاجرين، فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾ الآية...)[3].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: (ما بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية، إلا أربع سنوات)[4].

وامتدحهم عز وجل بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ

---

(١) سورة النحل، الآية: (١٠٦).

(٢) سورة الحديد، الآية: (١٦).

(٣) رواه أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٨/ ٤٥).

(٤) رواه مسلم في التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿ أَلَمۡ يَأۡنِ .... ﴾، ح: (٣٠٢٧)، (٤/ ٢٣١٩).

يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾[1]. والآيات في هذا المعنى كثيرة جدًا.

وفي المقابل ذم الله المعرضين بقلوبهم عن الإيمان، فقال عز وجل عن الأعراب: ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾[2].

وقال عن المنافقين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ الآيات[3].

وقال عن بني إسرائيل: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾[4].

وقال: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾[5]. وغيرها من النصوص القرآنية كثير.

أما من السنة، فمن ذلك:

١ - حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه الطويل، وفيه: «... **ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛**

---

(١) سورة الأنفال، الآيات: (٢-٤).

(٢) سورة الحجرات، الآية: (١٤).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٤١).

(٤) سورة المائدة، الآية: (١٣).

(٥) سورة البقرة، الآية: (٧٤).

ألا وهي القلب»[١].

وقد عظم العلماء هذا الحديث؛ فعدّوه رابع أربعة تدور عليه الأحكام، بل أشار ابن العربي إلى أنه يمكن أن يُنتَزَع منه وحده جميع الأحكام. قال القرطبي: "لأنه اشتمل على التفصيل بين الحلال وغيره، وعلى تعلق جميع الأعمال بالقلب، فَمِنْ هنا يمكن أن تُردّ جميع الأحكام إليه"[٢].

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم؛ لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره. التقوى ها هنا** ـ ويشير إلى صدره ثلاث مرات ـ **بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه**»[٣].

ومعناه: أن الأعمال الظاهرة فقط لا تحصل بها التقوى، وإنما تحصل بما يقع في القلب.

٣- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**الإسلام علانية،**

---

(١) رواه البخاري في الإيمان، باب: فضل من استبرأ لدينه، ح: (٥٢)، (الفتح ١/ ١٥٣)، ومسلم في المساقاة، باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، ح: (١٥٩٩)، (٣/ ١٢١٩)، وابن ماجه في الفتن، باب: الوقوف عند الشبهات ح: (٣٩٨٤)، (٢/ ١٣١٨)، والدارمي في البيوع، باب: في الحلال بين والحرام بين، ح: (٢٥٤٢)، (٢/ ١٦١)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٧٠، ٢٧٤).

(٢) ينظر: فتح الباري (١/ ١٥٧).

(٣) رواه مسلم في البر والصلة، باب: تحريم ظلم المسلم، ح: (٢٥٦٤)، (٤/ ١٩٨٦)، والترمذي في البر، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم، ح: (١٩٢٧)، (٤/ ٣٢٥) بنحوه، وأحمد في المسند (٢/ ٢٧٧، ٣٦٠)، (٣/ ١٣٥، ٤٩١).

والإيمان في القلب»[١].

٤- حديث أنس رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول: «**يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك**». قلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به، فهل تخاف علينا؟ قال: «**نعم؛ إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله، يقلبها كيف يشاء**»[٢].

وعليه؛ فقد جعل العلماء حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**»[٣]. جعلوه نصف الدين؛ لتعلقه بأعمال القلوب[٤]، وجعلوا النصف الآخر حديث: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**»[٥]. وهذا متعلق

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ١٣٥)، بإسناد حسن.

(٢) رواه الترمذي في البر، باب: ما جاء أن القلوب بين إصبعي الرحمن، ح: (٢١٤٠)، (٤/ ٤٤٨)، وقال: "حديث حسن". ورواه ابن ماجه في الدعاء، باب: دعاء رسول الله ﷺ، ح: (٣٨٣٤)، (٢/ ١٢٦٠)، قال في الزوائد: "مدار الحديث على يزيد الرقاشي، وهو ضعيف". والحديث رواه أحمد ـ أيضًا ـ في المسند (٣/ ١١٢، ٢٥٧) و (٤/ ١٨٢، ٤١٨)، و (٦/ ٩١، ٢٥١، ٢٩٤، ٣٠٢، ٣١٥).

(٣) رواه البخاري في بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، ح: (١)، (١/ ١٥) وغيره من المواضع، ورواه مسلم في الأمارة، باب: قوله ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات**»، ح: (١٩٠٧)، (٣/ ١٥١٥)، وأبو داود في الطلاق، باب: (١١)، والترمذي في الجهاد، باب: (١٦)، وابن ماجه في الزهد، باب: (٢٦)، وأحمد في المسند (١/ ٢٥، ٤٣).

(٤) انظر أقوال العلماء في منزلة هذا الحديث؛ جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي، ص(٥).

(٥) رواه مسلم في الأقضية، باب: نقض الأحكام الباطلة، ح: (١٧١٨)، (٣/ ١٣٤٤)، والبخاري

بأعمال الظاهر[١].

ومن هذين الحديثين يظهر شرطا العبادة: الإخلاص والمتابعة. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

أوصاف القلوب السليمة في القرآن الكريم:

ولا غرابة أن الله تعالى قد ذكر لنا أوصافًا عديدة للقلوب الحية السليمة، ومنها:

١- **الخشوع**: كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾[٢].

٢- **الإنابة**: كما في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ

تعليقًا في الاعتصام، باب: إذا اجتهد العالم أو الحكم فأخطأ، (الفتح ١٣/ ٣٢٩)، ومثله في البيوع، باب: النجش، (فتح ٤/ ٤١٦)، ورواه مسندًا في الصلح، باب: إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، ح: (٢٦٩٧)، (فتح ٥/ ٣٥٥) بلفظ: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**». ورواه بلفظ مسلم أبو داود في السنة، (٥٠)، وابن ماجه في المقدمة، باب: (٢)، وأحمد في المسند (٢/ ١٤٦).

(١) قال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله: "الحديثان يدخل فيهما الدين كله أصوله وفروعه، ظاهره وباطنه؛ فحديث عمر ميزان للأعمال الباطنة، وحديث عائشة ميزان للأعمال الظاهرة". بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخبار، في شرح جوامع الأخبار، ص(٨)، من الجزء الثاني الخاص بالحديث، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ رحمه الله.

(٢) سورة الحديد، الآية: (٦).

بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴾[١].

٣- الوجل: كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ ﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾[٤].

٤- الإخبات: كما في قوله تعالى: ﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ﴾[٥]. أي: تلين وتخشع. والإخبات هنا قريب من الهبوط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾[٦][٧].

٥- اللين: قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾[٨].

٦- الربط: ومنه يقال: فلان رابط الجأش، أي: قوي القلب. قال الله تعالى:

---

(١) سورة ق، الآيتان: (٣٢، ٣٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٢).

(٣) سورة الحج، الآية: (٣٥).

(٤) سورة المؤمنون، الآية: (٦٠).

(٥) سورة الحج، الآية: (٥٤).

(٦) سورة البقرة، الآية: (٧٤).

(٧) المفردات، ص(١٤١).

(٨) سورة الزمر، الآية: (٢٣).

﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾[1]. وقال عز وجل عن أصحاب الكهف: ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2].

٧- **الوحدة وعدم التعدد:** قال الله تعالى: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾[3].

٨- **التقوى:** قال الله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[4].

٩- **الهداية:** قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[5].

١٠- **الاطمئنان:** قال الله عز وجل: ﴿ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ ﴾[6].

وقال تعالى عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (١١).

(٢) سورة الكهف، الآية: (١٤).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٤).

(٤) سورة الحج، الآية: (٣٢).

(٥) سورة التغابن، الآية: (١١).

(٦) سورة النحل: الآية: (١٠٦).

لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾[١]. وقال تعالى: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾[٢].

١١ - **الطهارة**: قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ﴾[٣].

وقوله تعالى عن اليهود: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾[٤].

١٢ - **السلامة**: وهو الجامع لجميع الصفات السابقة، والذي لا ينجو يوم القيامة إلا مَنْ أتى به. قال الله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٥].

ولذلك وصف الله به قلب نبيه وخليله إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[٦]. والسليم: هو القلب الذي صارت السلام لازمة له؛ كالعليم والقدير، وأيضًا فهو ضد المريض والسقيم والعليل[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٢٦٠).

(٢) سورة الرعد، الآية: (٢٨).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٥٣).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٤١).

(٥) سورة الشعراء، الآية: (٨٩).

(٦) سورة الصافات، الآيتان: (٨٣، ٨٤).

(٧) إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان، (١/ ٢)، لابن قيم الجوزية: أبي عبدالله محمد بن أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد حامد الفقي.

قال ابن القيم رحمه الله: "وقد اختلفت عبارات الناس في معنى القلب السليم، والأمر الجامع لذلك: أنه الذي قد سلم من كل شهوة تخالف أمر الله ونهيه، ومن كل شبهة تعارض خبره، فسلم من عبودية ما سواه، وسلم من تحكيم غير رسوله؛ فسلم في محبة الله مع تحكيمه لرسوله، في خوفه ورجائه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والذل له، وإيثار مرضاته في كل حال، والتباعد من سخطه بكل طريق، وهذا هو حقيقة العبودية التي لا تصلح إلا لله وحده.

فالقلب السليم: هو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما؛ بل قد خلصت عبوديته لله تعالى، إرادة ومحبة وتوكلاً، وإنابة وإخباتًا وخشيةً، ورجاءً، وخلص عمله لله..."[1].

أوصاف القلوب السقيمة والميتة في القرآن الكريم:

وفي مقابل هذه القلوب السليمة، نجد أن الله تعالى قد ذكر لنا القلوب الأخرى ـ السقيمة والميتة ـ محذرًا منها، ومن الأسباب المؤدية إليها، ومن أهم هذه الأوصاف التي وصف الله بها تلك القلوب، ما يلي:

١ - **القسوة**: كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾[2].

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧-٨).

(٢) سورة المائدة، الآية: (١٣). وقد جاء هذا الوصف للقلوب في آية: (٧٤) من سورة البقرة، و(٤٣) من سورة الأنعام، و (٥٣) من سورة الحج، و (١٦) من سورة الحديد.

٢- المرض: كما في قوله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

٣- الختم: كما في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾[2].

٤- الغفلة: كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[3].

٥- عدم الفقه: كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾[4].

٦- الطبع: كما في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٦٠). وقد ورد هذا الوصف في آية: (٣٢) من سورة الأحزاب أيضًا، وآية: (١٠) من سورة البقرة، وآية: (٥٢) من سورة المائدة، وآية: (٤٩) من سورة الأنفال، وآية: (١٢٥) من سورة التوبة، وآية: (٥٣) من سورة الحج، وآية: (٥٠) من سورة النور، وآية: (١٢) من سورة الأحزاب، وآية: (٢٩) من سورة محمد.

(٢) سورة البقرة، الآية: (٧). وذكر الله هذا الوصف في آية: (٢٣) من سورة الجاثية، وآية: (٢٤) من سورة الشورى.

(٣) سورة الكهف، الآية: (٢٨).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (١٧٩).

(٥) سورة الأعراف، الآية: (١٠١). وقد ورد هذا الوصف ـ أيضًا ـ في آية: (٧٤) من سورة يونس، وآية: (٥٩) من سورة الروم، وآية: (١٠٠) من سورة الأعراف، وآية: (٨٧) وآية: (٩٣) من سورة التوبة، وآية: (١٠٨) من سورة النحل، وآية: (١٦) من سورة محمد.

٧- الزيغ: كما في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[١].

٨- العمى: كما في قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾[٢].

٩- الاشمئزاز عند ذكر الله: كما قال عز وجل: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾[٣].

١٠- القفل: قال الله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾[٤].

١١- عليها أكنة: قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾[٥].

١٢- الغِلُّ: قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾[٦].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (٧). وقد ورد هذا الوصف في آية: (١١٧) من سورة التوبة، وآية: (٥) من سورة الصف.

(٢) سورة الحج، الآية: (٤٦).

(٣) سورة الزمر، الآية: (٤٥).

(٤) سورة محمد، الآية: (٢٤).

(٥) سورة الأنعام، الآية: (٢٥). وورد هذا الوصف في آية: (٤٦) من سورة الإسراء، وآية: (٦٧) من سورة الكهف، وآية: (٥) من سورة فصلت.

(٦) سورة الحشر، الآية: (١٠).

١٣ - **الرَيْب**: قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾[١].

١٤ - **الريبة**: وهي اسم من الرَّيْب، قال تعالى: ﴿ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ﴾[٢].

١٥ - **الوجف**: وهو الاضطراب، قال تعالى: ﴿ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾[٣].

١٦ - **الإثم**: كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ﴾[٤].

١٧ - **الرعب**: كما في قوله تعالى: ﴿ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾[٥].

١٨ - **الصغو**: وهو الميل، قال تعالى: ﴿ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾[٦]. أي: لتميل إليه. قاله ابن عباس رضي الله عنهما[٧]. والمراد: ما يوحيه شياطين الإنس والجن، بعضهم إلى بعض من زخرف القول.

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٤٥).

(٢) سورة التوبة، الآية: (١١٠).

(٣) سورة النازعات، الآية: (٨).

(٤) سورة البقرة، الآية: (٢٨٣).

(٥) سورة الأحزاب، الآية: (٢٦). وورد هذا الوصف في الآية: (١٥١) من سورة آل عمران، وآية: (١٢) من سورة الأنفال، وآية: (٢) من سورة الحشر.

(٦) سورة الأنعام، الآية: (١١٣).

(٧) ينظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣١٤).

١٩- **الإشراب لمعبوداتهم الباطلة**: كما في قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ﴾[١]. أي: فكأنما شُدّ في قلوبهم العجل لشغفهم. وقال بعضهم: معناه: أشرب في قلوبهم حب العجل[٢].

٢٠- **الصرف**: كما في قوله تعالى: ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾[٣].

٢١- **الشدّ**: كما في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[٤].

٢٢- **الإنكار**: كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾[٥].

٢٣- **عليها الران**: كما قال تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾[٦].

٢٤- **اللهو**: كما قال تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝٢ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٩٣).

(٢) المفردات، ص (٢٥٧).

(٣) سورة التوبة، الآية: (١٢٧).

(٤) سورة يونس، الآية: (٨٨).

(٥) سورة النحل، الآية: (٢٢).

(٦) سورة المطففين، الآية: (١٤).

(٧) سورة الأنبياء، الآيتان: (٢، ٣).

فهذه الأوصافُ وما قبلها، هي أوصاف القلوب الثلاثة: الحي، والميت، والمريض، وقد جمع الله بينها في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[1].

فجعل الله سبحانه وتعالى القلوب في هذه الآيات ثلاثة؛ قلبين مفتونين، وقلبًا ناجيًا؛ فالمفتونان: القلب الذي فيه مرض، والقلب القاسي، والناجي: القلب المؤمن المخبت إلى ربه، وهو المطمئن إليه الخاضع له المستسلم المنقاد[2].

فهذه النصوص ـ وغيرها ـ تعطي دلالة واضحة على مدى اهتمام الإسلام بالقلب وإصلاحه، وتجنيبه أسباب المرض والسقم؛ لأنه مَلِك الجسد، وسائر الأعضاء جنوده، فإذا صلح صلحت الأعضاء، وإذا فسد فسدت.

أما أعمال القلوب؛ من المحبة والخوف، والخشية والرغبة والرهبة، والإنابة والتوكل، والاستعانة والاستغاثة وغيرها، فالنصوص الواردة فيها

---

(١) سورة الحج، الآيات: (٥٢-٥٤).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ١٠).

أكثر من أن تحصر، وهي من صميم التوحيد والإيمان، ومن ركائزه العظام. ولذلك قيل: كل آية فيها (ذات الصدور) فهي تدل على أهمية العمل القلبي، وعلى ارتباط أعمال القلب بأعمال الجوارح[1].

وكان الاهتمام بهذا الجانب المهم من ديننا الحنيف، وهو ديدن سلفنا الصالح رضوان الله تعالى عليهم، علمًا وعملاً. ولم يكن يخطر لهم ببال ـ فيما يظن ـ أن يأتي أحد يشك في أعمال القلوب، ودخولها في الإيمان؛ فضلاً عن أن يخرجها منه بالكلية، ويجادل في ذلك.

ولكن بعد أن ابتعد الناس عن عصر النبوة، كثر الكلام، وقلّ العمل، واستبدلوا الكلام النظري والمعرفة التجريدية الباردة، بالإيمان العملي التطبيقي، وساعد على ذلك دخول العلوم ذات الأصول اليونانية والإغريقية الوثنية، وذات الجذور اليهودية والنصرانية المنحرفة، فكثر الانحراف واتسعت ميادينه، وحكمت العقول وقُدِّمت على النصوص الشرعية، ولبس على المسلمين ما نزل إليهم من ربهم، وأثيرت الشبهات التي لم يكن لها وجود في الأصل.

وكان مفهوم الإيمان وعلاقته بالأعمال، أحد هذه المفاهيم التي أصابها الغبش والتحريف. فانبرى علماء السنة يدافعون عن حقائق هذا الدين وأصوله العظام، ومن أهمها الإيمان وعلاقته بالعمل، فقلّ أن تجد كتابًا لأهل السنة في العقيدة، إلا وينص على أن الإيمان قول وعمل؛ يزيد وينقص.

---

(١) ظاهرة الإرجاء ص (٣٨٨).

وهذه من المسائل البدهية عندهم في صدر الإسلام، المجمع عليها، ولكنهم أُلجِئوا إلى الكلام فيها والتنصيص عليها، بعد أن ظهر الإرجاء وعم البلاء[١].

قال الإمام البخاري رحمه الله: "أدركت ألفًا من علماء الأمصار، كلهم يقولون: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"[٢].

وقال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار، وما يعتقدان في ذلك؟ فقالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار؛ حجازًا وعراقًا وشامًا ويمنًا، فكان من مذهبهم: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"[٣].

وقد حكى الشافعي إجماع الصحابة والتابعين على ذلك، وإنكارهم على من خالفه. وقال ابن كثير: "حكى الإجماع على ذلك غير واحد من الأئمة؛ كالشافعي وأحمد بن حنبل وأبي عبيد..."[٤] وغيرهم.

---

(١) ظاهرة الإرجاء، ص (٣٨٨).

(٢) فتح الباري (١/ ٦١). وانظر: عقيدة البخاري، وفيها هذا النص بمعناه. وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي (١/ ١٧٤).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١/ ١٧٦).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٥٥٢).

وممن حكى الإجماع أيضًا: اللالكائي في شرح الأصول (٤/ ٨٣٢)، وابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٣٨)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٣٨)، وغيرهم.

ونقل شيخ الإسلام ـ في كتاب الإيمان ص(٢٩٣-٢٩٥) ـ عن الإمام أبي عبيد القاسم بن

وممن ذكر الإجماع ـ أيضًا ـ شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث قال: "أجمع السلف على أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص؛ ومعنى ذلك أنه قول وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح"[1].

فالإيمان مُركَّب من:

١ – **قول القلب**: وهو العقائد من المعرفة والعلم والتصديق[2]، وتشمل: اعتقاد ما أخبر الله سبحانه عن نفسه، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله، وملائكته ولقائه على لسان رسله[3].

٢ – **قول اللسان**: وهو الإخبار عنه بذلك، ومنه النطق بالشهادتين، والدعوة إليه والذب عنه، وتبيين بطلان البدع المخالفة له، والقيام بذكره وتبليغ أمره.

٣ – **وعمل القلب**: كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره وعن نواهيه وعلى أقداره، والرضا به وعنه، والموالاة فيه، والمعاداة فيه، والذل له، والخضوع والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب.

= سلام، أسماء الأئمة من السلف من أهل الأمصار المختلفة، الذين قالوا: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، فبلغت حوالي صفحتين من كتابه.

(١) مجموع الفتاوى (٧/ ٥٤٣).

(٢) انظر: الإيمان، ص (١٧٦)، وإغاثة اللهفان (١/ ٨).

(٣) مدارج السالكين (١/ ١٠٠).

٤- وأعمال الجوارح: كالصلاة والجهاد، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك[١].

ومع أن أعمال الجوارح جزء من الإيمان، خلافًا للمرجئة - كما تقدم - إلا أنها تأتي في المرتبة الثانية بعد أعمال القلوب؛ فالقلب هو موضع الإيمان الأصلي، وإيمانه أهم أجزاء الإيمان؛ ومن هنا كان قوله وعمله هو أصل الإيمان، الذي لا يوجد بدونه مهما عملت الجوارح "ففرض - أعمال القلوب - أفرض من أعمال الجوارح، ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها، إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة"[٢]. ولا خلاف بين عقلاء بني آدم، في أن كل حركة بالجارحة لا تكون إلا بإرادة قلبية، وإلا فهي من تصرفات المجانين، أو حركات المضطربين فاقدي الإرادة"[٣].

قال شيخ الإسلام: "دخول أعمال القلب في الإيمان أولى من دخول أعمال الجوارح، باتفاق الطوائف كلها"[٤]. ويوضح ذلك بأن "أصل الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة، من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها"[٥].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ١٠٠-١٠١)، والفوائد ص (١٠٧)، وزاد المعاد (٣/ ٤٢)، ومعارج القبول (٢/ ١٥-١٨).

(٢) مدارج السالكين (١/ ١٠١).

(٣) ظاهرة الإرجاء، ص (٣٨٨).

(٤) الإيمان الأوسط، ص(٤٨)، وانظر: مجموع الفتاوى (٧/ ٥٠٦).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥).

ويقول: "الدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالاً هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع، وهي كمال الإيمان، فالدين أول ما يبتدئ بأصوله، ويكمل بفروعه"[١].

ويعلل ـ رحمه الله ـ ذلك بأن: "اعتقاد القلب أصل لقول اللسان، وعمل القلب أصل لعمل الجوارح، والقلب هو ملك البدن، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: "القلب مَلِكٌ، والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده"[٢].

وإيمان القلب ليس هو مجرد التصديق القلبي[٣] ـ كما تدعي جهمية المرجئة[٤] ـ وإنما يشمل:

١ - **قول القلب**: من المعرفة والعلم والتصديق... كما تقدم.

٢ - **وعمل القلب**: من الإذعان والانقياد والاستسلام[٥]، كما تقدم أيضًا.

العلاقة بين الظاهر والباطن:

ومع أننا ذكرنا أن أعمال القلوب (الباطنة)، مقدمة على أعمال الجوارح (الظاهرة)، إلا أن هناك ارتباطًا وثيقًا جدًا بينهما.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥٥).

(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٢٣٤).

(٣) الإيمان، ص (١٧٨).

(٤) يذكر شيخ الإسلام أن غالب فرق المرجئة، تدخل الأعمال القلبية في مسمى الإيمان. انظر: الإيمان الأوسط ص(٨٥)، والإيمان ص (١٨٤).

(٥) حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة، ص (١١٠)، لمحمد عبدالهادي المصري.

يقول شيخ الإسلام: "وهذه الأمور الظاهرة والباطنة، بينهما ارتباط ومناسبة؛ فإن ما يقوم بالقلب من الشعور والحال يوجب أمورًا ظاهرة، وما يقوم بالظاهر من سائر الأعمال، يوجب للقلب شعورًا وأحوالاً"(١).

ويقول: "إن الظاهر لابد له من باطن يحققه ويصدقه ويوافقه، فمن قام بظاهر الدين من غير تصديق بالباطن فهو منافق، ومن ادعى باطنًا يخالف ظاهره فهو كافر منافق، بل باطن الدين يحقق ظاهره ويصدقه ويوافقه، وظاهره يوافق باطنه ويصدقه ويحققه، فكما أن الإنسان لابد له من روح وبدن، وهما متفقان، فلابد لدين الإنسان من ظاهر وباطن يتفقان، فالباطن للباطن من الإنسان، والظاهر للظاهر منه، والقرآن مملوء من ذكر أحكام الباطن والظاهر، والباطن أصل الظاهر.."(٢).

ومن التلازم بين أعمال القلب وأعمال الجوارح أيضًا، أنه لا يتصور إطلاقًا إيمان القلب من غير ظهور لذلك الإيمان على الجوارح؛ "وذلك لأن أصل الإيمان هو ما في القلب، والأعمال الظاهرة لازمة لذلك، لا يتصور وجود إيمان القلب الواجب مع عدم جميع أعمال الجوارح؛ بل متى نقصت الأعمال الظاهرة، كان لنقص الإيمان الذي في القلب، فصار الإيمان متناولاً للملزوم واللازم، وإن كان أصله في القلب، وحيث عطفت عليه الأعمال،

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٧٩)، تحقيق: د/ ناصر العقل، ط: الأولى، عام: ١٤٠٤هـ.
(٢) مجموع الفتاوى (١٣/ ٢٦٩).

فإنه أريد أنه لا يُكْتَفَى بإيمان القلب، بل لابد معه من الأعمال الصالحة"[١].

ويقول شيخ الإسلام أيضًا: "وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن، بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال، هو موجب ما في القلب ولازمه ودليله ومعلوله.

كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال، له ـ أيضًا ـ تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر؛ لكن القلب هو الأصل، والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوى بفرعه، كما في الشجرة التي يضرب بها المثل لكلمة الإيمان..."[٢].

ولذلك قال رحمه الله: "والتحقيق: أن إيمان القلب التام يستلزم العمل الظاهر، بحسبه لا محالة، ويمنع أن يقوم بالقلب إيمان تام، بدون عمل ظاهر"[٣].

وهذا التلازم هو بالنسبة لحال المؤمن وحقيقته، وحكمه في الدار الآخرة، أما حكمه في الدنيا، فلا ينظر إلا إلى الظاهر، وتجرى الأحكام الدنيوية على ما ظهر منه، وتوكل السرائر والبواطن إلى عالم السر وأخفى، سبحانه وتعالى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "إن الإيمان الظاهر الذي تجري عليه

---

(١) الإيمان، ص (١٨٦-١٨٧)، وانظر: حقيقة الإيمان، ص (١٠٩).

(٢) الإيمان الأوسط، ص (٨٣).

(٣) الإيمان، ص (١٩٢).

الأحكام في الدنيا، لا يستلزم الإيمان الباطن، الذي يكون صاحبه من أهل السعادة في الآخرة، فإن المنافقين الذين قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1]. هم في الظاهر مؤمنون، يصلون مع الناس، ويصومون على عهد رسول الله ﷺ، ولم يحكم النبي ﷺ في المنافقين بحكم الكفار المظهرين للكفر، في مناكحتهم ولا موارثتهم، ولا نحو ذلك"[2].

ولذلك قال ﷺ: ((**إني لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس، ولا أشق بطونهم**))[3]. في قصة الخارجي، وكلام خالد للرسول ﷺ بشأنه.

وهذا التفريق هو ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم؛ فكان سفيان الثوري وابن المبارك يقولان: "الناس عندنا مؤمنون في المواريث والأحكام، ولا ندري كيف حالهم عند الله عز وجل"[4].

وقال ابن جرير: "فإن حكم الله في كل من أظهر الإسلام بلسانه، أن يحقن بذلك دمه وماله، وإن كان معتقدًا غير ذلك، وتَوَكَّلَ هو ـ جَلَّ ثناؤه ـ بسرائرهم، ولم يجعل للخلق البحث عن السرائر؛ فلذلك كان النبي ﷺ مع

---

(١) سورة البقرة، الآية: (٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/ ٢١٠)، وانظر الإيمان، ص (٣٣٥).

(٣) رواه البخاري في المغازي، باب: بعث علي وخالد إلى اليمن، ح: (٤٣٥١)، (الفتح ٧/ ٦٦٥)، ومسلم في الزكاة، باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، ح: (١٠٦٤)، (٢/ ٤٧٢).

(٤) السنة للخلال (٣/ ٥٦٧)، وابن بطة في الإبانة ح: (١١٧٦)، ص (٧٥٧)، والآجري في الشريعة، ح: (٢٧٩، ٢٨٠)، وعبدالله بن أحمد في السنة، ح: (٦٠٩)، (١/ ٣١١)، وأبو داود في مسائل الإمام أحمد، ص (٢٧٤).

علمه بهم ـ أي: المنافقين ـ واطلاع الله إياه على ما في ضمائرهم، واعتقاد صدورهم، كان يقرهم بين أظهر أصحابه، ولا يسلك بجهادهم مسلك جهاد [من] قد ناصبه الحرب على الشرك بالله..."[١].

ثانيًا: منزلة التوكُّل من أعمال القلوب:

بعد أن تبين لنا مما سبق منزلة أعمال القلوب من الإيمان، وظهر أنها هي الأصل وأعمال الجوارح تابعة لها؛ نبين في هذا المبحث منزلة التوكل من أعمال القلوب، التي هي أصل الإيمان وأشرف عناصره.

ومن تتبع مأثور السلف ـ رضي الله عنهم ـ في هذه المسألة، نجد أن بعضهم أشار إلى منزلة التوكل من الإيمان نفسه، ومنهم من أشار إلى منزلته من أعمال القلوب، التي هي أصل الإيمان، ومنهم من أشار إلى منزلته من العبادة بمفهومها الواسع، ومن هذه النصوص:

١- ما رواه البيهقي بإسناده، عن ابن عباس قال: (التوكل جماع الإيمان)[٢].

٢- وروى ابن أبي شيبة بإسناده إلى سعيد بن جبير: مثله[٣].

---

(١) جامع البيان (١٤/ ٣٦٠).

(٢) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١١١)، وفيه: أبو بلال الأشعري، قال البيهقي: "ليس بالقوي".

(٣) المصنف لابن أبي شيبة (١٠/ ٣٥٣) و (١٣/ ٥٣٨)، وعبدالله بن الإمام أحمد في السنة، ح: (٧٧٦)، (١/ ٣٦١)، والخلال في الحث على التجارة، ص(٣٤)، والبيهقي في الشعب (٢/ ١١١)، وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢٧٤)، وابن أبي الدنيا في التوكل، ح: (٥)، ص(٣٩)، وعبد بن حميد، وابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ١٢).

٣- وأخرج ابن أبي حاتم من وجه آخر، عن سعيد بن جبير، قال: "التوكل على الله نصف الإيمان"[١].

٤- وروى البيهقي بإسناده، إلى سهل بن عبدالله، قال: "من طعن في الاكتساب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان"[٢].

٥- وقال الإمام أحمد: "التوكل عمل القلب"[٣].

٦- وقال الجنيد بن محمد: "التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب"[٤].

٧- وروى البيهقي بإسناده، إلى فضيل بن عياض، قال: "التوكل قوام العبادة"[٥].

فهذه النصوص وما في معناها؛ تشير إلى منزلة التوكل من هذه الأمور، وهي وإن كان ظاهرها التغاير، إلا أن مؤداها واحد.

ولزيادة إيضاح منزلة التوكل من أعمال القلوب، نشير إلى هذه التقسيمات باعتباراتها الثلاثة، التي يظهر لنا من خلالها علو تلك المنزلة:

١- باعتبار العبودية على أعضاء الإنسان:

فالعبودية مقسمة على ثلاثة أعضاء من الإنسان، لكل منها عبودية خاصة

---

(١) ينظر: الدر المنثور (٤/ ١٢).

(٢) شعب الإيمان (٢/ ١٠٣).

(٣) ينظر: طريق الهجرتين، ص (٢٣٩)، وتيسير العزيز الحميد، ص (٤٩٦).

(٤) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص (١٧٦)، وانظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٦٨).

(٥) شعب الإيمان (٢/ ١١٢).

قائمة به، وهذه الأعضاء هي: القلب، واللسان، والجوارح.

والأحكام التي للعبودية هي أحكام التكاليف الخمسة: الواجب، والمستحب، والمباح، والمكروه، والمحرم.

فواجب القلب ـ الذي هو أشرف الأعضاء ومديرها كما تقدم ـ منه متفق على وجوبه، ومنه مختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة.

وأما المختلف فيه فكالرضا...[1].

ومن هذا نخلص إلى أن التوكل من أوجب الواجبات، على أشرف الأعضاء الذي هو القلب.

٢- باعتبار عناصر الإيمان:

أما عناصر الإيمان فيه تنقسم كما أسلفنا[2] إلى أربعة عناصر؛ قول القلب، وقول اللسان، وعمل القلب، وعمل الجوارح.

وعلى هذا التقسيم، نجد أن التوكل داخل في أهم هذه العناصر وأشرفها؛ الذي هو قول القلب وعمله. قال ابن القيم: "إن التوكل يجمع أصلين: علم القلب، وعمله.

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١/ ١١٠). وسيأتي بيان ذلك في ص (١٥٠).

(٢) انظر: ص (٤٧)، من هذا البحث.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله، وكمال قيامه بما وكله إليه، وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك.

وأما عمله: فسكونه إلى وكيله، وطمأنينته إليه، وتفويضه وتسليم أمره إليه، ورضاه بتصرفه له، فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه.

فبهذين الأصلين يتحقق التوكل، وهما جماعه، وإن كان التوكل أدخل في عمل القلب من علمه، كما قال الإمام أحمد: التوكل عمل القلب. ولكن لابد فيه من العلم، وهو إما شرط فيه، وإما جزء من ماهيته..." [١].

١- ما هو حسنة وسيئة بنفسه.

٢- ما ليس سيئة بنفسه حتى يُفعل؛ وهي السيئة المقدورة.

٣- ما هو مع العجز؛ كالحسنة والسيئة المفعولة، وليس هو مع القدرة؛ كالحسنة والسيئة المفعولة.

فالقسم الأول: هو ما يتعلق بأصول الإيمان، مع التصديق والتكذيب والحب والبغض...، ومنه التوكل، فهذه يحصل بها الثواب والعقاب بما يكون في القلوب، وإن لم يظهر على الجوارح.

وأما القسم الثاني والثالث: فمظنة الأفعال التي لا تنافي أصول الإيمان؛ مثل المعاصي الطبعية[٢]. وعليه؛ فالتوكل ـ كما أسلفنا ـ من القسم الأول؛ الذي هو أشرف وأعلى هذه الأقسام.

---

(١) طريق الهجرتين ص(٢٣٩).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٦٠).

ونخلص من هذا كله: إلى أن التوكل من أشرف الرتب، وأعلى المقامات من أعمال القلوب، التي هي أصل الإيمان، الذي هو أجلُّ وأعظم ماتُعبِّد الله تعالى به.

وسيأتي زيادة بيان ـ إن شاء الله تعالى ـ لمنزلة التوكل من الإيمان، عند الحديث عن كونه شرطًا من شروطه، ولازمًا من لوازمه ومقتضياته[١].

ثالثًا: التوكّل والتوحيد:

التوحيد هو أساس التوكل، وقاعدته الصلبة التي يقوم عليها؛ لذلك فإنه "لايستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب، فما دامت فيه علائق الشرك، فتوكله معلول مدخول"[٢].

ولذلك قال الجنيد: "التوحيد قول القلب، والتوكل عمل القلب"[٣].

قال شيخ الإسلام: "أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصله، وإذا أفرد لفظ التوحيد، فهو يتضمن قول القلب وعمله"[٤].

لهذا فهو يشاركه ـ أيضًا ـ في المحل، فكما تقدم[٥] أن التوكل يقوم بقول

---

(١) ص (٦٦).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠).

(٣) ينظر: الإيمان، ص(١٧٦).

(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٨).

(٥) ص (٥٣).

القلب وعمله؛ فكذلك التوحيد وما يضاده، "يكون في أقوال القلب، ويكون في أعمال القلب"[١].

وهذا التلازم والعلاقة بين التوحيد والتوكل، ظاهرة في أنواع التوحيد الثلاثة:

١-**أما توحيد الربوبية**: فعلم العبد بتفرد الحق تعالى وحده، بخلق الأشياء كلها، وملكها وتدبيرها، وأنه ليس له مشارك في ذرة من ذرات الكون، من أقوى أسباب التوكل وأعظم دواعيه، "فإذا تحقق ذلك علمًا ومعرفة، وباشر قلبه حالاً، لم يجد بدًا من اعتماد قلبه على وحده، وثقته به، وسكونه إليه وحده، وطمأنينته به وحده؛ لعلمه أن حاجاته وفاقاته وضروراته، وجميع مصالحه كلها بيده وحده، لا بيد غيره، فأين يجد قلبه مناصًا من التوكل بعد هذا؟!"[٢].

لذا فإنه يستحيل أن يحصل تحقيق التوكل، حتى يؤمن العبد بكامل ربوبيته عز وجل، وما تتضمنه من كامل تصرفه ومشيئته، وقدرته وقيومته وإحاطته بكل شيء، وأنه وحده مالك النفع والضر، بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

ولهذا نجد في كثير من الآيات، ربط التوكل بالربوبية، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٣٦).

ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٢]. وقوله عن هود عليه السلام: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣]. وقال في سورة الفرقان: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٤]. فجعل من لوازم الربوبية التي لا جدال فيها، تحقيق التوكل على الله عز وجل.

٢- توحيد الأسماء والصفات:

فمعرفة الله ـ عز وجل ـ بأسمائه وصفاته وأفعاله، شرط أساس في حصول التوكل، وكل من كان بالله تعالى وصفاته أعلم، كان توكله أكمل، فهو من أعظم المقامات تعلقًا بالأسماء؛ فله تعلق باسم "الغفار والتواب والعفو والرءوف والرحيم"، من جهة توكل العبد على ربه في مغفرته الذنوب، وتجاوزه عن السيئات. وله تعلق باسم "الفتاح والوهاب والرزاق والمعطي والمحسن"، من جهة توكله عليه في رزقه وقوته. وله تعلق باسم "المعز المذل، والخافض الرافع"، من جهة توكله عليه في إذلال أعداء دينه ونصره عليهم. إلى غير ذلك من التعلقات.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: (١٠).

(٢) سورة هود، الآية: (١٢٣).

(٣) سورة هود، الآية: (٥٦).

(٤) الآية: (٥٨).

ولهذا فسره من فسره من الأئمة، بأنه المعرفة بالله وصفاته[١]، وتقدم قول شيخ الإسلام أنه لا يتصور التوكل من الفلاسفة ولا القدرية النفاة..، قال: "ولا يستقيم ـ أيضًا ـ من الجهمية النفاة لصفات الرب جل جلاله، ولا يستقيم التوكل إلا من أهل الإثبات"[٢].

والآيات التي ربطت بين التوكل وبين الأسماء والصفات كثيرة، منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴾[٣]. وقوله: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٤]. ونحوها من الصفات الجامعة لصفات الجلال والجمال.

٣- توحيد الألوهية:

يستحيل أن يتم توكل العبد حتى يتم أمران، لهما صلة تامة بتوحيد الألوهية؛ هما:

أ- حسن الظن بالله عز وجل، إذ على قدر حسن ظن العبد بربه ورجائه له، يكون توكله عليه، ولا يعقل أن يكون توكلٌ ممن ساء ظنه بربه، وقد تقدم تفسير التوكل بحسن الظن بالله[٥].

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/ ١٢٥).

(٢) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١١٨). وانظر ص (١٩) من هذا البحث.

(٣) سورة الشعراء، الآيات: (٢١٧-٢١٨).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٦١).

(٥) ص (١٦).

ب- إلقاء الأمور كلها إلى الله تعالى، وهذا هو التفويض، وهو روح التوكل وحقيقته[١]، وتقدم تفسيره بذلك أيضًا[٢].

فالتوكل: هو اعتماد القلب على الوكيل، بحيث يطمئن قلب العبد إلى وكيله، ويسكن إليه[٣]، ويفوض أمره إليه. قال تعالى عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ﴾[٤]. وقال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِيٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٦]. وهذه الآية تجمع بين توحيدي الربوبية والإلهية، وبين التوكل.

ويصور العلاقة بين الإلهية والتوكل أيضًا: الآيات التي ربطت العبادة والإنابة بالتوكل، وهي كثيرة جدًا، سيأتي الكلام عليها في حينه، إن شاء الله تعالى[٧].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٣).

(٢) ص (١٧).

(٣) معالم التوحيد، د: مروان القيسي، ط: الأولى، عام: ١٤١٠، ن: المكتب الإسلامي، ص (٧٩).

(٤) سورة غافر، الآية: (٤٤).

(٥) سورة الرعد، الآية: (٣٠).

(٦) سورة التوبة، الآية: (١٢٩).

(٧) انظر: مبحث التوكل والعبادة، ص (٧٥) فما بعدها.

الفصل الثالث

أهـــمـــيـــــة التـــوكـــــــــل

الفصل الثالث

أهميـة التوكـــل

ذكرنا فيما تقدم منزلة التوكل من أعمال القلوب، التي هي أشرف عناصر الإيمان، وعلى هذا: فالتوكل جزء من ماهية الإيمان وعناصره العظام؛ بل إن التوكل جماع الإيمان كما تقدم عن بعض السلف، وقد عده الحليمي[1]، ومن بعده البيهقي[2] من شعب الإيمان، كما أشرنا إلى صلته بالتوحيد بأنواعه الثلاثة، ولا شك أن أمرًا هذه منزلته، لابد أن يكون ذا أهمية في دين الإسلام، كيف وقد ذكره الله تعالى في خمس وعشرين آية من القرآن الكريم، موزعة على ثنتين وعشرين سورة، بين أمر بالتوكل أو ثناء على المتوكلين!.

ولعلنا في هذه العجالة، نلقي الضوء على بعض الصور، المبينة لأهمية التوكل في دين الإسلام، ومنها:

أولاً: اقترانه بمراتب الدِّين الثلاث: (الإيمان والإسلام والإحسان)، وشعائره العظام:

عند استعراضنا للآيات القرآنية الواردة في التوكل، نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل وبين مراتب الدين الثلاث: الإيمان والإسلام والإحسان، وبينه وبين الهداية والتقوى، والدعاء والصبر والعبادة.

---

(١) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ٣)، الشعبة الثالثة عشرة.

(٢) شعب الإيمان (٢/ ٥٧)، الشعبة الثالثة عشرة أيضًا.

ومن ذلك:

١- كونه شرطًا للإيمان، ولازمًا من لوازمه ومقتضياته:

تقدم أن التوكل هو جماع الإيمان، وجزء من ماهيته بمعناه الشامل، لكننا عند استعراضنا لآيات القرآن العظيم؛ نجد أن الله تعالى قد جعله شرطًا من شروط تحقيق أصل الإيمان، فمن ذلك:

قول الله عز وجل: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[1]. وفي هذه الآية جعله شرطًا لتحقيق الإيمان والإسلام.

وقال عز وجل: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]. قال ابن القيم: "فجعل التوكل شرطًا في الإيمان؛ فدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل"[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾[4]. فربط بين الإيمان والتوكل.

---

(١) سورة يونس، الآيتان: (٨٤، ٨٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: (٢٣).

(٣) طريق الهجرتين، ص (٢٣٧).

(٤) سورة الملك، الآية: (٢٩).

وقال عز وجل: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾[1].

"فَذِكْرُ اسم الإيمان هنا دون سائر أسمائهم، دليل على استدعاء الإيمان التوكل، وأن قوة التوكل وضعفه بحسب قوة الإيمان وضعفه وكلما قوي إيمان العبد، كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفًا، فهو دليل على ضعف الإيمان ولا بد"[2].

لكن بقي أن يقال: كيف تَعُدُّون التوكل ـ فيما تقدم ـ جزءًا من الإيمان، وعنصرًا من عناصره العظام، وتعدُّونه هنا شرطًا من شروطه، ولازمًا من لوازمه ومقتضياته؟

والجواب: أن الإيمان إذا أُطلق دخل فيه التوكل، وسائر أعمال القلوب والجوارح، أما إذا قرن به التوكل، فإنه يكون قسيمًا له. وذلك نحو الأعمال وصلتها بالإيمان؛ فإنا نجدها في القرآن الكريم معطوفةً على العمل، والعطف ـ غالبًا ـ يقتضي المغايرة، مع أن مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة، دخول العمل في مسمى الإيمان وقد تقدم، وهذا بناء على القاعدة التي تقول: "إن من الأسماء ما يكون شاملاً لمسميات متعددة، عند إفراده وإطلاقه، فإذا قرن بغيره صار دالاً على بعض تلك المسميات، والاسم المقرون دال على باقيها"[3].

---

(١) سورة التغابن، الآية: (١٣).

(٢) طريق الهجرتين لابن القيم ص (٢٣٨)، وانظر: بدائع الفوائد له (٢/ ٢٦٨)، وفيه: ذكر كتابًا له سماه: الفتح القدسي، أشار إلى أنه ذكر فيه حقيقة التوكل وفوائده، وعظم منفعته وشدة حاجة العبد إليه... إلخ. انظر: ابن قيم الجوزية، حياته وآثاره، للشيخ بكر بن عبدالله أبو زيد، ص (١٧٥).

(٣) جامع العلوم والحكم ص (٢٦)، قال: "وصرح بهذا المعنى جماعة من الأئمة، وذكر منهم أبا بكر الإسماعيلي في رسالته إلى أهل الجبل، والخطابي في كتابه معالم السنن".

والمعطوف هنا: إما أن يكون داخلاً في المعطوف عليه، وإنما ذكر باسمه الخاص تخصيصًا؛ لئلا يظن ظان أنه لم يدخل في الأول، فيكون من باب عطف الخاص على العام، وإما أن لا يكون داخلاً فيه هنا، وإن كان يدخل فيه إذا انفرد؛ مثل: الفقير والمسكين، والإسلام والإيمان وغيرها، فتتنوع دلالته بالإفراد والاقتران[١]. وبهذا يكون شرطًا ولازمًا من لوازمه.

٢-كونه شرطًا للإسلام:

أما علاقته بالإسلام، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢]. فجعل دليل صحة الإسلام التوكل[٣]، ومفهوم ذلك انتفاء الإيمان والإسلام عند انتفائه[٤]، وكرر الشرط تأكيدًا[٥].

٣- علاقته بالإحسان:

أما علاقته بالإحسان؛ فيمكن استنباط ذلك من قول الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٦]. قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: "في

---

(١) انظر: الإيمان، ص (١٥٣-١٩٠). وذكر على ذلك أمثلة كثيرة.

(٢) سورة يونس، الآيتان: (٨٤، ٨٥).

(٣) طريق الهجرتين، ص (٢٣٨).

(٤) تيسير العزيز الحميد، ص (٤٩٦).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٧٠).

(٦) سورة الأنفال، الآية: (٢).

الآية وصف المؤمنين حقًا، بثلاث مقامات من مقامات الإحسان؛ وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده..."[١].

٤ - التوكل والهداية:

جمع الله بينهما في الآيات التالية:

١ - ما حكاه الله تعالى من مقولة الرسل لقومهم: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾[٢]. فعجبوا من تركهم التوكل على الله وقد هداهم، وأخبروا أن ذلك لا يكون أبدًا[٣].

ومعنى الآية: "أي: شيء يمنعنا من التوكل على الله، والحال أننا على الحق والهدى، ومن كان على الحق والهدى، فإن هداه يوجب له تمام التوكل، وكذلك ما يعلم من أن الله متكفل بمعونة المهتدي وكفايته، يدعو إلى ذلك، بخلاف من لم يكن على الحق والهدى، فإنه ليس ضامنًا على الله، فإن حاله مناقض لحال المتوكل"[٤].

قال ابن القيم: "فالعبد آفته؛ إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فإذا جمع التوكل إلى الهداية، فقد جمع الإيمان كله"[٥].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص (٤٤٩).

(٢) سورة إبراهيم، الآية: (١٢).

(٣) طريق الهجرتين، ص (٢٣٩).

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٢٧).

٢- وقوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾[١]. قال ابن القيم رحمه الله: "فأمر سبحانه بالتوكل عليه، وعقب هذا الأمر بما هو موجب للتوكل، مصحح له، مستدعٍ لثبوته وتحققه؛ وهو قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾؛ فإن كون العبد على الحق، يقتضي تحقيق مقام التوكل على الله، والاكتفاء به، والإيواء إلى ركنه الشديد، فإن الله هو الحق، وهو ولي الحق، وناصره ومؤيده، وكافي من قام به"[٢].

قال: "وهذا دليل على أن الهداية والتوكل متلازمان، فصاحب الحق لعلمه بالحق، ولثقته بأن الله ولي الحق وناصره؛ مضطر إلى توكله على الله، لا يجد بدًا من توكله"[٣].

قال: "والمقصود أن القلب متى كان على الحق، كان أعظم لطمأنينته ووثوقه بأن الله وليه وناصره، وسكونه إليه، فما له أن لا يتوكل على ربه! وإذا كان على الباطل، علمًا وعملاً أو أحدهما، لم يكن مطمئنًا واثقًا بربه، فإنه لا ضمان له عليه، ولا عهد له عنده؛ فإن الله لا يتولى الباطل ولا ينصره، ولا ينسب إليه بوجه؛ فهو منقطع النسب إليه بالكلية، فإنه سبحانه هو الموفق، وقوله الحق، ودينه الحق، ووعده حق، ولقاؤه حق، وفعله كله حق، ليس في أفعاله شيء باطل؛ بل أفعاله سبحانه بريئة من الباطل، كما أن أقواله كذلك،

---

(١) سورة النمل، الآية: (٧٩).

(٢) طريق الهجرتين، ص (٢٣٩).

(٣) المصدر نفسه، ص (٢٣٩).

فلما كان الباطل لا يتعلق بالله العظيم، وكان منقطعًا عن ربه، لم يكن الله وليه ولا ناصره ولا وكيله..."[١].

قال: "فتدبر هذا السر العظيم، في اقتران التوكل والكفاية بالحق والهدى، وارتباط أحدهما بالآخر، ولو لم يكن في هذه الرسالة إلا هذه الفائدة السرية، لكانت حقيقة أن تودع في خزانة القلب؛ لشدة الحاجة إليها. والله المستعان، وعليه التكلان"[٢].

٥- التوكل والتقوى:

لا شك أن التقوى هي روح هذا الدين، وأساسه المتين، وهي وصية الله تعالى للأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾[٣]. ولذلك فلا غرابة أن نجد الله تعالى، قد قرن بينها وبين التوكل في العديد من الآيات؛ وما ذاك إلا لأهميته وعظيم منزلته، ومن ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[٤].

ب- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ

(١) طريق الهجرتين، ص (٢٣٣-٢٤٠).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٤٠).

(٣) سورة النساء، الآية: (١٣١).

(٤) سورة الأحزاب، الآيات من: (١-٣).

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[١]؛ أي: كافيه. فجعل التوكل سببًا للكفاية.

٦- التوكل والدعاء:

يشرع في الدعاء الطلبي، تقديم الثناء على الله تعالى، بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، والتوسل إليه بأعظم الأعمال وأقربها منه تعالى منزلة، وأحبها إليه؛ كالتوحيد ونحوه، وبالافتقار إليه والخضوع والتذلل، والاستضعاف والانكسار بين يديه عز وجل، وهذا "أنجح للحاجة وأنجع للإجابة"[٢].

ولذلك نجد أن الله تعالى، قد ذكر عن بعض الداعين من أنبيائه وأوليائه، تقديمهم تحقيق التوكل عليه بين يدي دعائهم الطلبي؛ لأنه من أجَلِّ ما يتقرب به إلى الله تعالى، ومن الأمثلة على ذلك:

١- دعاء إبراهيم الخليل عليه ـ وعلى نبينا ـ أفضل الصلاة وأزكى التسليم، الذي حكاه الله تعالى عنه في قوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ۝٤ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٣].

٢- دعاء شعيب عليه السلام، الذي حكاه الله عنه بقوله: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٤].

٣- دعاء قوم موسى عليه السلام، الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله:

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: (٢، ٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/ ٤١).

(٣) سورة الممتحنة، الآيتان: (٤، ٥).

(٤) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[١].

كما نجد ذلك في دعاء النبي ﷺ، ومنه الدعاء المشهور وفيه: ((... **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**))[٢].

وهذا يدل على أهمية التوكل على الله، وأنه من أجل القربات التي يتوسل بها إلى الله تعالى، في تحقيق المطالب الدينية والدنيوية، ومن مظاهر العبودية والافتقار والانكسار بين يديه عز وجل.

٧- التوكل والصبر:

الصبر من أوجب الواجبات وأعلى المقامات، وقد ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، في أكثر من تسعين موضعًا، وقرنه بالصلاة في أكثر من موضع، كقوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ﴾[٣]. وبيَّن أن اقتران الصبر مع اليقين يورث الإمامة في الدين، فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ

---

(١) سورة يونس، الآية: (٨٥).

(٢) رواه البخاري في التهجد، باب: التهجد من الليل، ح: (١١٢٠)، (فتح ٣/ ٥)، ومسلم في الصلاة، باب: الدعاء في صلاة الليل وقيامه، ح: (٧٦٩)، (١/ ٥٣٢-٥٣٣)، وأبو داود في الصلاة، باب: ما يستفتح بالدعاء في الصلاة، ح: (٧٥٦)، (عون ٢/ ٤٧٤)، والترمذي في الدعاء (٢٩)، والنسائي في التطبيق (١٤)، وابن ماجه في الإقامة (١٨٠)، والدارمي في الصلاة (١٦٩)، وأحمد في المسند (١/ ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٨).

(٣) سورة البقرة، الآية: (٤٥).

بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[١].

والكلام في منزلة الصبر يطول، ولكن الذي يهمنا في هذه العجالة، هو أنه من خلال استقراء النصوص القرآنية، نجد أن الله تعالى قد قرن بين التوكل والصبر، في عدة آيات؛ منها:

١- قول الله تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٢].

٢- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٣].

٣- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٤].

وفي اقتران التوكل بالصبر ـ الذي تقدم بيان منزلته ـ دليل على أن التوكل لا يقل عن منزلة الصبر في الأهمية، وعلى أنه ليس أمرًا سلبيًا كما يظنه بعض

---

(١) سورة السجدة، الآية: (٢٤).

(٢) سورة إبراهيم، الآيتان: (١١، ١٢).

(٣) سورة النحل، الآيتان: (٤١، ٤٢).

(٤) سورة العنكبوت، الآيتان: (٥٨، ٥٩).

الجهلة، وإنما هو عمل إيجابيٌّ، يدعو إلى اتخاذ الأسباب كما سيأتي بيانه[١].

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "لأن صبرهم على عبادة الله يقتضي بذل الجهد والطاقة في ذلك، والمحاربة العظيمة للشيطان الذي يدعوهم إلى الإخلال بشيء من ذلك، وتوكلهم يقتضي شدة اعتمادهم على الله، وحسن ظنهم به، أن يحقق ما عزموا عليه من الأعمال ويكملها، ونص على التوكل وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل وترك مأمور به، ولا يتم إلا به"[٢].

٨- التوكل والعبادة:

أما التوكل والعبادة؛ فقد جمع الله بينهما في عدة مواضع في كتابه؛ منها:

١- قوله تعالى في أم الكتاب: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٣]. وهي الآية التي قال الله تعالى فيها، في الحديث القدسي: «**هذه بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل**»[٤]. بعد أن قال: «**قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبدي ما سأل**». وهاتان الكلمتان: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مقتسم السورة: "فـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ مع ما قبله لله تعالى، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ مع ما بعده

---

(١) انظر: ص (١٨٣) فما بعدها.

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/ ٧٠-٧١).

(٣) آية: (٤).

(٤) الحديث رواه مسلم في الصلاة، باب: وجوب قراءة الفاتحة، ح: (٣٩٥)، (١/ ٢٩٦)، وأبو داود في الصلاة، باب: من ترك القراءة في الصلاة بفاتحة الكتاب، ح: (٨٠٦)، (عون ٣/ ٣٨)، وابن ماجه في الأدب، باب: ثواب القرآن، ح: (٣٧٨٤)، (٢/ ١٢٤٣).

للعبد، وله ما سأل، ولهذا قال من قال من السلف: "نصفها ثناء ونصفها دعاء"[١].

وعن الحسن البصري قال: "إن الله جمع الكتب المنزلة في القرآن، وجمع علم القرآن في المفصَّل، وجمع علم المفصل في فاتحة الكتاب، وجمع علم فاتحة الكتاب في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾"[٢].

٢- قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

٣- وقوله لنبيه ﷺ: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾[٤]. فقرن التبتل ـ وهو العبادة ـ باتخاذه وكيلاً سبحانه وتعالى.

٤- قوله تعالى حكاية عن شعيب، عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٥].

٥- قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ـ عليه السلام ـ والذين معه: ﴿رَبَّنَا

---

(١) كتاب التوحيد لابن تيمية، ص (٩٧)، وانظر: دقائق التفسير (١/ ١٧٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨). قال شيخ الإسلام في التوحيد، ص (٩٥): "روي مأثورًا عن الحسن البصري".

(٣) سورة هود، الآية: (١٢٣).

(٤) سورة المزمل، الآيتان: (٨، ٩).

(٥) سورة هود، الآية: (٨٨).

عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[١].

٦- قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[٢].

٧- قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[٣].

والإنابة إلى الله والمتاب: هو الرجوع إليه بعبادته وطاعته، وطاعة رسوله ﷺ[٤].

ومن السنة قوله ﷺ، عند ذبحه الأضحية: «**اللهم هذا منك ولك**»[٥]. قال شيخ الإسلام: "فإن قوله: «**منك**»، هو معنى التوكل والاستعانة، وقوله: «**لك**»، هو معنى العبادة"[٦].

فهذه المواضع جمعت الأصلين: العبادة والاستعانة. والعبادة: غاية العباد التي خلقوا لها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾[٧]. ونحوها: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

---

(١) سورة الممتحنة، الآية: (٤).

(٢) من سورة الرعد، الآية: (٣٠).

(٣) من سورة الشورى، الآية: (١٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧).

(٥) رواه أبو داود عن جابر، باب: ما يستحب من الضحايا، ح: (٢٧٧٨)، (عون ٧/ ٤٩٤)، وابن ماجه في الأضاحي، باب: أضاحي رسول الله ﷺ، ح: (٣١٢١)، (٢/ ١٠٤٣). وفي إسناده محمد بن إسحاق، وهو مدلس وقد عنعن.

(٦) التوحيد، ص (٩٩).

(٧) سورة البينة، الآية: (٥).

سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[٢].

والاستعانة وسيلتهم إليها، "فإن العبد لابد له من غاية مطلوبة، ووسيلة موصلة إلى تلك الغاية، فأشرف غاياته التي لا غاية له أجلّ منها: عبادة ربه والإنابة إليه، وأعظم وسائله التي لا وسيلة له غيرها ألبته: التوكل على الله والاستعانة به. ولا سبيل إلى هذه الغاية إلا بهذه الوسيلة، فهذه أشرف الغايات، وتلك أشرف الوسائل"[٣].

وعليه؛ فإن أنفع الدعاء طلب عون الله تعالى على مرضاته، قال شيخ الإسلام: "تأملت أنفع الدعاء، فإذا هو سؤال العون على مرضاته، ثم رأيته في الفاتحة في: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٤]. وهو الدعاء الذي علَّمه النبي ﷺ، لحبِّه معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال: **«يا معاذ، والله إني لأحبك، فلا تنس دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»**[٥].

وعطف التوكل على العبادة ـ مع أنه جزء منها، بل هو قوامها، كما قال

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٣١).

(٢) سورة الذاريات، الآية: (٥٦).

(٣) طريق الهجرتين، ص (٢٣٨)، وانظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٤١).

(٤) ينظر: مدارج السالكين (١/ ٧٨)، وانظر: تجريد التوحيد، ص (٢٦).

(٥) رواه أبو داود في الوتر. باب: في الاستغفار، ح: ١٥٠٨ (عون ٤/ ٣٨٤)، والنسائي في السهو، باب: ٦٠، ح: ١٣٠٣ (٣/ ٥٣)، وأحمد في المسند (٢/ ٢٩٩) و (٥/ ٢٤٥، ٢٤٨). قال الألباني: إسناده صحيح، رجاله كلهم ثقات. انظر تخريجه لأحاديث الكلم الطيب، ص (٧٠).

الفضيل رحمه الله[١] ـ مثل عطف التوكل على الإيمان، وقد تقدم توجيهه[٢].

قال شيخ الإسلام: "إذا أطلق لفظ: العبادة، دخل فيها التوكل، وإذا قرن أحدهما بالآخر، كان للتوكل اسم يخصه"[٣].

وفيه فائدة مهمة؛ وهي: أن الله لم يأمر بالتوكل فقط، بل أمر مع التوكل بعبادته وتقواه، التي تتضمن فعل ما أمر، وترك ما حذر، فمن ظن أنه يرضي ربه بالتوكل بدون فعل ما أمر به، كان ضالاً، كما أن من ظن أن يقوم بما يرضي الله عليه، دون توكل كان ضالاً"[٤].

وفي إتيانه بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بعد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. إشارة إلى أنه لا ينبغي أن يتوكل إلا على من يستحق العبادة؛ لأن غيره ليس بيده الأمر[٥].

والتوكل أعم من الاستعانة؛ لأن "التوكل يتناول التوكل عليه؛ ليعينه على فعل ما أمر، والتوكل عليه؛ ليعطيه ما لا يقدر العبد عليه، فالاستعانة تكون في الأعمال، وأما التوكل فأعم من ذلك"[٦].

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ١١٢).

(٢) انظر: ص(٦٧) وما بعدها.

(٣) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧)، وانظر رسالة حقيقة التوكل لشيخ الإسلام، ص (٩١)، ضمن جامع الرسائل.

(٤) مجموع الفتاوى (٨/ ٥٢٧).

(٥) أضواء البيان (١/ ٣٥).

(٦) مجموع الفتاوى (٨/ ١٧٧).

والناس في مقام التوكل والعبادة أربعة أقسام[١]:

١- إما أن يعبد غير الله ويستعين بغيره، وإن كان يدعي الإسلام، فالشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل.

٢- وإما أن يعبده ويستعين بغيره؛ مثل: "كثير من أهل الدين، يقصدون طاعة الله ورسوله، وعبادته وحده لا شريك له، وتخضع قلوبهم لمن يستشعرون نصرهم، ورزقهم وهدايتهم، من جهته من الملوك والأغنياء والمشايخ".

قال شيخ الإسلام: "وهو حال كثير من المتفقهة والمتعبدة، فهم مع حسن قصدهم وتعظيمهم لحرمات الله وشعائره، يغلب عليهم الضعف والعجز والخذلان"[٢].

٣- وإما أن يستعينه وإن عبد غيره؛ مثل كثير من أهل الأحوال وذوي القدرة، والسلطان الباطن أو الظاهر، وأهل الكشف والتأثير الذين يستعينون به، ويعتمدون عليه، ويلجئون إليه، لكن مقصودهم غير ما أمر الله به ورسوله، وشريعته التي بعث بها رسوله، وهؤلاء هم المغبونون حقًا.

٤- الذين لا يعبدون إلا إياه، ولا يستعينون إلا به، وهؤلاء هم الذين

---

(١) التوحيد لشيخ الإسلام، ص (٨٩-٩٠)، وانظر: أيضًا ص(١٠٠)، وانظر بتفصيل أكثر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢)، التحفة العراقية، وانظر: تجريد التوحيد، المنسوب للمقريزي ص(٢٥-٢٨)، ودقائق التفسير (١/ ١٨٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٢)، والتحفة العراقية، ص (٨٣).

عرفوا الطريق ولزموا الجادة، سلك الله بنا سبيلهم بمنه وكرمه.

وهناك أسرار أخرى لطيفة في تقديم العبادة على التوكل في: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وما شابهها، أشار إليها ابن القيم رحمه الله[1]؛ منها:

١- أن تقديم العبادة على الاستعانة في الفاتحة، من باب تقديم الغايات على الوسائل. وقد تقدم.

٢- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. متعلق بألوهيته، واسمه (الله)، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. متعلق بربوبيته، واسمه (الرب)، فقدم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ على ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. كما قدم اسم (الله) على اسم (الرب) في أول السورة؛ وذلك كما قال شيخ الإسلام: "لما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب، قبل علمهم وحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود، وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة؛ كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق، من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له، والاستعانة به، والتوكل عليه، فيهم أكثر من العبادة له، والإنابة إليه"[2]. يعني: فقدم العبادة على التوكل.

٣- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾: قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى؛ لكونه أولى به، و﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾: قسم العبد، فكان من الشطر الذي له وهو: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة. فقدم قسم الرب

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٥-٧٦).

(٢) التوحيد لشيخ الإسلام، ص (١٠٦).

على قسم العبد.

٤- العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة، من غير عكس؛ فكل عابد لله عبودية تامة مستعين به، ولا ينعكس؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كانت قسم الرب.

٥- الاستعانة جزء من العبادة، غير عكس.

٦-الاستعانة طلب منه، والعبادة طلب له.

٧- العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون مخلص وغير ملخص.

٨-العبادة حقه الذي أوجبه عليه، والاستعانة طلب العون على العبادة، وهو بيان صَدَقَتِهِ التي تصدق بها عليك، وأداء حقه أهم من التعرض لصدقته.

٩- ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ له، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ به، وما "له" مقدم على ما "به"؛ لأن ما "له" متعلق بمحبته ورضاه، وما "به" متعلق بمشيئته. وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته. أما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين، ففيه أدبهم مع الله؛ بتقديم اسمه على فعلهم، وفيه الاهتمام وشدة العناية به، وفيه الإيذان بالاختصاص المسمى بالحصر[1].

بعد هذا كله، ظهر لنا: أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها منزلة الرأس من الجسد، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته

(١) مدارج السالكين (١/ ٧٧).

وأعماله، إلا على ساق التوكل[١].

ولعل من أبرز النصوص التي جمعت بين هذه الأصول الإيمانية، حديث دعائه ﷺ في التهجد؛ حيث يقول: «... **اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، أعوذ بعزتك، لا إله إلا أنت أن تضلني، أنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون**»[٢].

قال ابن القيم رحمه الله: "التوكل نصف الدين، والنصف الثاني الإنابة؛ فإن الدين استعانة وعبادة، فالتوكل هو الاستعانة، والإنابة هي العبادة، ومنزلته أوسع المنازل وأجمعها، ولا تزال معمورة بالنازلين؛ لسعة متعلق التوكل، وكثرة حوائج العالمين، وعموم التوكل ووقوعه من المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، والطير والوحش والبهائم، فأهل السموات والأرض المكلفون وغيرهم، في مقام التوكل، وإن تباين متعلق توكلهم..."[٣].

وبهذا تظهر لنا مكانة التوكل وأهميته العظيمة، من خلال تعلقه بأصول الدين، وشعائره العظيمة.

ثانيًا: أمر الله به نبيه ﷺ والأنبياء قبله[٤]:

ومما يدل على أهمية التوكل، الأمر الصريح للنبي ﷺ بالتوكل عليه، في

---

(١) طريق الهجرتين، ص (٢٤٠).

(٢) تقدم تخريجه قريبًا ص (٧٣).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٣).

(٤) هذه هي الفقرة الثانية من فقرات أهمية التوكل، أما الأولى؛ فهي: اقترانه بمراتب الدين الثلاثة، وشعائره العظام. وتقدمت ص (٦٥).

تسعة مواضع من القرآن الكريم، وفي ذلك أمر لعباده المؤمنين بالتبع، ومن باب أولى. فقال سبحانه في حق محمد ﷺ:

١- ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[١].

٢- وقال: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٢].

ويعني بهم: المنافقين.

٣- وقال عز من قائل: ﴿ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٣].

٤- وقال جل جلاله: ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[٤].

٥- وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٥].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٢) سورة النساء، الآية: (٨١).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (٦١).

(٤) سورة هود، الآية: (١٢٣).

(٥) سورة الفرقان، الآية: (٥٨).

٦- وقال: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾[١].

٧- وقال سبحانه: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾[٢].

٨- وقال عز وجل: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٣].

٩- وقال: ﴿ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾[٤].

ومع الأمر بالتوكل عليه سبحانه وتعالى، فقد نهى عن ضده، فقال تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِي وَكِيلًا ﴾[٥].

أي: شريكًا، قاله مجاهد، وقيل: كفيلاً بأمورهم، حكاه الفراء، وقيل: ربًا يتوكلون عليه في أمورهم، قاله الكلبي، وقال الفراء: كافيًا، والتقدير: عهدنا إليه في الكتاب ألا تتخذوا من دوني وكيلاً، وقيل: التقدير؛ لئلا تتخذوا، والوكيل: من يوكَّل إليه الأمر[٦].

وقد أمر الأنبياء السابقون أتباعهم وأقوامهم بذلك، ومن ذلك:

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: (٢١٦-٢١٩).

(٢) سورة النمل، الآية: (٧٩).

(٣) سورة الأحزاب، الآية: (٣).

(٤) سورة الأحزاب، الآية: (٤٨).

(٥) سورة الإسراء، الآية: (٢).

(٦) ينظر: تفسير القرطبي (١٠/ ٢١٣)، وفتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٠٧).

١- ما قاله عز وجل عن موسى عليه السلام مخاطبًا قومه، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُواْ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[١].

٢- وقال في حق الرجلين اللذين أنعم الله عليهما من بني إسرائيل[٢]: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وقد صرح الأنبياء السابقون بتحقيقهم التوكل:

١- فقال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ﴾[٤].

٢- وقال عن هود عليه السلام: ﴿ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٥].

٣- وقال عن شعيب عليه السلام: ﴿ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ

---

(١) سورة يونس، الآيتان: (٨٤، ٨٥).

(٢) سماهما الطبري في تفسيره (٦/ ١٧٥): (يوشع بن نون - وهو نبي من الأنبياء - وكالب بن يوفنا).

(٣) سورة المائدة، الآية: (٢٣).

(٤) سورة يونس، الآية: (٧١).

(٥) سورة هود، الآية: (٥٦).

أُنِيبُ ﴾[١]. وقال: ﴿ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴾[٢].

٤- وقال عن يعقوب عليه السلام: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٣].

٥- وقال عن الخليل إبراهيم عليه السلام، من دعائه وقومه: ﴿ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[٤].

٦- وقال لنبينا الخاتم ﷺ: ﴿ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾[٥]. وقال: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾[٦].

ولا شك أن هذه الأوامر الإلهية، لأفضل خلقه وأكمل أنبيائه، دليل على أهمية التوكل على الله وضرورته للعبد، وعدم استغنائه عنه طرفة عين.

---

(١) سورة هود، الآية: (٨٨).

(٢) سورة الأعراف، الآية: (٨٩).

(٣) سورة يوسف، الآية: (٦٧).

(٤) سورة الممتحنة، الآية: (٤).

(٥) سورة الرعد، الآية: (٣٠).

(٦) سورة الملك، الآية: (٢٩).

ثالثًا: جعله شعارًا لعباده المؤمنين، وأثنى عليهم به:

قد ورد: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾. في سياق المدح والثناء، في سبعة مواضع من القرآن: من سورة آل عمران في موضعين[١]، وفي المائدة[٢]، والتوبة[٣]، وإبراهيم[٤]، والمجادلة[٥]، والتغابن[٦].

وورد: ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾. في ثلاثة مواضع؛ من سورة يوسف[٧]، وإبراهيم[٨]، والزمر[٩].

ومن الآيات التي أثنى الله فيها على المتوكلين، ما يلي:

١ - ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[١٠].

قال قتادة: "هذا نعت أهل الإيمان فأثبت نعتهم، ووصفهم فأثبت

---

(١) الآية: (١٢١)، والآية: (١٦١).

(٢) الآية: (١١).

(٣) الآية: (٥١).

(٤) الآية: (١١).

(٥) الآية: (١٠).

(٦) الآية: (١٣).

(٧) الآية: (٦٧).

(٨) الآية: (١٢).

(٩) الآية: (٣٨).

(١٠) سورة الأنفال، الآيات: (٢-٤).

صفتهم"[١].

٢- وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢].

٣- وقوله عز من قائل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾[٣]. قال سفيان الثوري رحمه الله في تفسيرها: "أن يحملهم على ذنب لا يغفر"[٤].

٤- وقوله جل جلاله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٥].

٥- وقال عز وجل: ﴿ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٦].

---

(١) ينظر: تفسير الطبري (٩/ ١٧٩).

(٢) سورة النحل، الآيتان: (٤١، ٤٢).

(٣) سورة النحل، الآيات: (٩٨-١٠٠).

(٤) ينظر: التوكل لابن أبي الدنيا، ص(٦٠).

(٥) سورة العنكبوت، الآيتان: (٥٨، ٥٩).

(٦) سورة الشورى، الآية: (٣٦).

رابعًا: ضرورته للعبد، وعدم استغنائه عنه طرفة عين:

ومما يدل على أهمية التوكل، هو افتقار العبد إلى من يتوكل عليه، ويلوذ به ويفوض ويسلم قياده إليه؛ وذلك أن كل عبد، بل كل حي سوى الله، بل كل مخلوق، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، فلابد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب، الذي ينتفع ويلتذ به.

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود، والمانع من دفع المكروه، والله سبحانه هو الذي يجب أن يكون المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب، وما عداه هو المكروه [1]، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. وتقدم[2] أن القيام بعبودية الله هو الغاية، وأن الاستعانة والتوكل، هي الوسيلة لتحقيق هذه الغاية.

وكلٌّ من الغاية والوسيلة المؤدية إليها، فالعبد مفتقر إليها غاية الافتقار:

أما من ناحية حاجة العبد إلى عبادة الله: "فاعلم أن حاجة العبد إلى أن يعبد الله لا يشرك به شيئًا، ليس لها نظير فتقاس به، لكن يشبه من بعض الوجوه، حاجة الجسد إلى الطعام والشراب. وبينهما فروق كبيرة، فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته، ولابد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه، ولو حصل للعبد لذَّاتٌ وسرور بغير الله، فلا

---

(١) انظر: التوحيد لابن تيمية، ص (٧٢، ٧٣)، وإغاثة اللهفان (١/ ٢٦-٣٠).

(٢) ص (٧٨).

يدوم ذلك...

وأما إلهه فلابد منه في كل حال، وفي كل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[1]. وكان أعظم آية في القرآن: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾[2][3].

وهذا مبني على أصلين:

أحدهما: أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله، هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما دلَّ عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن.

الثاني: أن النعيم في الدار الآخرة ـ أيضًا ـ به؛ مثل النظر إليه سبحانه[4].

وهذان الأصلان ثابتان بالكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان[5].

فهذا بالنسبة إلى غاية التوكل ومقصده، أما التوكل ذاته، فتظهر حاجة العبد وافتقاره إليه، من الوجوه التالية:

١ - من جهة فقر العبد، وعدم ملكه شيئًا لنفسه، فضلاً عن غيره من

---

(١) سورة الأنعام، الآية: (٧٦).

(٢) سورة البقرة، الآية: (٢٥٥).

(٣) التوحيد، ص (٧٧).

(٤) كما في صحيح مسلم، عن صهيب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا، يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويثقل موازيننا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟! قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه...».

(٥) التوحيد، ص (٧٧-٧٩).

المخلوقين: وذلكم لأن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل؛ بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصَّره، وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسه الله بضر، فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة، لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله[1].

قال شيخ الإسلام: "فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله، والاستعانة به، ودعاءه ومسألته دون ما سواه، ويقتضي ـ أيضًا ـ محبة الله وعبادته؛ لإحسانه إلى عبده وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم..."[2].

ولذلك نجد أكمل الخلق ﷺ، يقول له الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾[3]. ويقول: ﴿قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا﴾[4].

وهذا خليل الرحمن عليه ـ وعلى نبينا ـ أفضل الصلاة والسلام، يقول لأبيه فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمۡلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾[5].

---

(١) مجموع الفتاوى (١/ ٢٧). وانظر: إغاثة اللهفان (١/ ٣٣-٣٥).

(٢) نفس المصدر (١/ ٢٧-٢٨).

(٣) سورة الأعراف، الآية: (١٨٨).

(٤) سورة الجن، الآية: (٢١).

(٥) سورة الممتحنة، الآية: (٤).

فإذا كان هذا في حق الخليلين، أفضل الرسل عليهما الصلاة والسلام، فما بالك بمن هم دونهم؟!

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[1]. أي: أن كل ما سوى الله عبد مسخر، حاجته مثل حاجتكم، فكيف يتوكل عليه[2].

وقال عز وجل: ﴿ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ﴾[4]. فنفى عنهم الملك والمشاركة والإعانة والشفاعة.

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾[5].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: (١٩٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٤).

(٣) سورة العنكبوت، الآية: (١٧).

(٤) سورة سبأ، الآيتان: (٢٢، ٢٣).

(٥) سورة فاطر، الآية: (١٥).

وقال عز وجل: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾[١].

فإذا كان المخلوق ـ مهما عظم ـ بهذه المثابة من العجز والفقر، وعدم ملكه شيئًا، فهو مفتقر إلى ركن شديد، يأوي إليه، ويتوكل عليه، ويفوض أمره إليه، ولا يمكن أن يتوكل على مخلوق مثله؛ لأن حالتهم في العجز واحدة، فوجب ألا يتوكل إلا على الغني الحميد، الذي له ملك السموات والأرض.

وقد روي عن عقبة بن أبي زينب، قال: "مكتوب في التوراة: لا تتوكل على ابن آدم؛ ليس له قوام، وتوكل على الحي الذي لا يموت". قال الله تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾[٢][٣].

قال أبو قدامة الرملي: "قرأ رجل هذه الآية: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴾. فأقبل على سليمان الخواص، فقال: يا أبا قدامة، ما ينبغي لعبد بعد هذه الآية، أن يلجأ إلى أحد بعد الله في أمره، ثم قال: انظر كيف قال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾. فأعلمك أنه لا يموت، وأن جميع خلقه يموتون، ثم أمرك

---

(١) سورة محمد، الآية: (٣٨).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٥٨).

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التوكل على الله، ح: (٦٠)، ص(٩٤)، والبيهقي في الشعب، ح: (١٣٠٦)، (٢/ ١٠٨)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٩٢). وانظر: الدر المنثور (٦/ ٢٦٨).

بعبادته، فقال: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾. ثم أخبرك بأنه خبير بصير. ثم قال: والله، يا أبا قدامة، لو عامل عبدٌ الله بحسن التوكل، وصدق النية له بطاعته؛ لاحتاجت إليه الأمراء فمن دونهم، فكيف يكون هذا محتاجًا، وموئله وملجؤه إلى الغني الحميد!"[1].

٢- من جهة كون الأمر كله بيد الله تعالى:

قال الله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾[3]. وقال عز وجل: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4]. فما دام أن النصر والخذلان بيده؛ فهو الجدير بالتوكل عليه وحده، في تحقيق النصر والسلامة من ضده خاصة، وفي جميع أموره عامة.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[5]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ

---

(١) التوكل على الله، ح: ٣٦، ص(٧٠). وذكره مختصرًا الغزالي في الإحياء (٤/ ٢٤٥).

(٢) سورة فاطر، الآية: (٢).

(٣) سورة يونس، الآية: (١٠٧).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٦٠).

(٥) سورة فاطر، الآية: (٣).

جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾[1].

فجمع سبحانه بين النصر والرزق، كما جمع في غير ما آية، بين الخوف والجوع؛ فإن العبد مضطر إلى من يدفع عنه عدوه بنصره، ويجلب له منافعه برِزْقه، فلابد له من ناصر ورازق، والله وحده هو الذي ينصر ويرزق، فهو الرزاق ذو القوة المتين[2]، وهو الذي يطعم من جوع ويؤمن من خوف. فكان الإنسان أشد ما يكون إلى التوكل عليه، والالتجاء بجنابه سبحانه وتعالى؛ لأنه بيده كل شيء، ومن سواه ليس بيده شيء، فلا ينبغي للعبد أن يتوكل إلا على مالك الملك، سبحانه وتعالى.

وهنا قد يرد اعتراض؛ وهو أنه مادام الأمر كلّه لله، وليس للعبد من الأمر شيء، فكيف يوكل المالك على ملكه؟ وكيف يستنيبه فيما هو ملك له دون هذا الموكل؟.

والجواب على ذلك: هو كما قال ابن القيم: "لما كان الأمر كله لله عز وجل، وليس للعبد فيه شيء ألبتة؛ كان توكله على الله تسليم الأمر إلى من هو له، وعزل نفسه عن منازعات مالكه، واعتماده عليه فيه، وخروجه عن

(١) سورة الملك، الآيتان: (٢٠، ٢١).

(٢) انظر: إغاثة اللهفان (١/ ٣٤). وهناك بعض الروايات الإسرائيلية في هذا المعنى، من طريق وهب بن منبه وغيره، رواها الإمام أحمد في الزهد، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله، وأشار إلى بعضها ابن القيم هنا.

تصرفه بنفسه، وحوله وقوته وكونه به، إلى تصرفه بربه وكونه به سبحانه دون نفسه. وهذا مقصود التوكل"[١].

٣- من جهة أن تعلق العبد بما سوى الله، مضرة عليه:

وذلك إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته، غير مستعين بـه عـلى طاعـة الله عز وجل.

قال شيخ الإسلام: "فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته، ضره أو أهلكه، وكذلك من النكاح واللباس، وإن أحب شـيئًا حبًـا تامًـا، بحيـث تخالَلَـه، فلابد أن يسأمه ويفارقه، فالضرر حاصل له ن وُجِد أو فُقد، فإن فُقِدَ فَقَدْ تعذب بالفوات وتألم، وإن وُجِدَ فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة، وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء[٢]؛ كل من أحب شـيئًا دون الله لغير الله، فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالاً عليه، إلا ما كان لله، وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد"[٣].

وذلـك نحـو قولـه تعـالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٩).

(٢) كما قال الشاعر - كما في إغاثة اللهفان (١/ ٤٠) -:

فما في الأرض أشقى من محبٍ ... وإن وجد الهوى حلوَ المذاقِ

تـراه باكـيًا في كـل حـالٍ ... مخـافة فـرقـة أو لاشتياقِ

فيبكي إن نـأوا شـوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا حَـذَر الفـراقَ

فتسخـن عينه عنـد التـلاقي ... وتسخـن عينه عند الفـراقِ

(٣) كتاب التوحيد، ص (٨١)، وانظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٩)، وقارن بإغاثة اللهفان (١/ ٣٥).

لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴾[١].

قال ابن القيم: "والصواب ـ والله أعلم ـ أن يقال: تعذيبهم بها هو الأمر المشاهد من تعذيب طلاب الدنيا ومحبيها، ومؤثريها على الآخرة؛ بالحرص على تحصيلها، والتعب العظيم في جمعها، ومقاساة أنواع المشاق في ذلك، فلا تجد أتعب ممن الدنيا أكبر همه، وهو حريص بجهده على تحصيلها"[٢].

وعليه؛ فمن تعلق قلبه بما سوى الله، فالضرر حاصل عليه لا محالة، إن وجد ذلك المطلوب، وإن لم يوجد.

قال ابن القيم: "فليس عليه أضر من ذلك، ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه، بأنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به، وخذله من جهة ما تعلق به، وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل، بتعلقه بغيره والتفاته إلى سوه، فلا على نصيبه من الله حصل، ولا إلى ما أمَّله ممن تعلق به حصل"[٣].

وقال: "مثل المتعلق بغير الله، كمثل المستظل من الحر والبرد، ببيت العنكبوت أوهى البيوت".

قال: "وبالجملة: فأساس الشرك وقاعدته التي بنى عليها؛ التعلق بغير الله"[٤]. ولذلك فأضرُّ شيء على العبد، هو تعلق قلبه بغير الله تعالى.

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٥٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٣٦).

(٣) مدارج السالكين (١/ ٤٥٧).

(٤) مدارج السالكين (١/ ٤٥٨).

فإذا كانت هذه هي الثمرة المرتقبة لمن علق قلبه بما سوى الله، فكان من الضروري للمسلم والواجب عليه، ألا يعلق قلبه بما سوى الله تعالى، لا محبة ولا توكلاً ولا اعتمادًا، ولا غير ذلك من أنواع التعلق، فدلّ على ضرورة تعلقه وتوكله على الله وحده.

٤- من جهة أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه، يوجب له الضرر من جهته، عكس ما أمَّله منه:

وهذا ثابت في القرآن والسنة، كما هو معلوم بالاعتبار والاستقراء أيضًا:

قال الله تعالى: ﴿ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾[1]. أي: بخلاف ما ظنوا فيهم[2].

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾[4]. أي: غير تخسير. قاله ابن عمر ومجاهد وقتادة[5].

---

(١) سورة مريم، الآيتان: (٨١، ٨٠).

(٢) ينظر: تفسير ابن كثير (٥/ ٢٥٦).

(٣) سورة الأحقاف، الآيتان: (٥، ٦).

(٤) سورة هود، الآية: (١٠١).

(٥) انظر: تفسير الطبري (١٢/ ١١٣).

وقال جل ثناؤه: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾[١]. قال ابن القيم: "فإن المشرك يرجو بشركه النصر تارة، والحمد تارة، والثناء تارة، فأخبر سبحانه أن مقصوده ينعكس عليه، ويحصل له الخذلان والذم"[٢].

لذا فإن كل من اعتمد على مخلوق، وتوكل عليه من دون الله؛ فإنه سيعقبه خذلان وندامة.

قال أبو العالية: "اجتمع إليّ أصحاب محمد، فقالوا: يا أبا العالية، لاتعمل عملاً تريد به غير الله، فيجعل الله ثوابك على ما أردت، قال: واجتمع إليّ أصحاب محمد، فقالوا: يا أبا العالية، لا تتكلنَّ على غير الله عز وجل، فيكلك الله إلى من اتكلت عليه"[٣].

قال شيخ الإسلام: "ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله، إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل، وهذان الوجهان في المخلوقات، نظير العبادة والاستعانة في الخالق. فلما قال: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾. كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته به، وكان في عبادة ما سواه، والاستعانة بما سواه مضرته وهلكته وفساده"[٤]. فتعين ضرورة توكل العبد على ربه ـ عز وجل ـ دون ما سواه.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: (٢٢).

(٢) إغاثة اللهفان (١/ ٤٠).

(٣) التوكل على الله لابن أبي الدنيا، ح: (٣٨)، ص (٧٢).

(٤) كتاب التوحيد لابن تيمية، ص (٨٢)، وانظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٩).

ولهذا كان من وصية النبي ﷺ، لابن عباس رضي الله عنهما: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرَّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن الله...**» الحديث[1].

وعلى هذا تربى صحابة رسول الله ﷺ، فكانوا يتعففون عن سؤال الناس، والاستعانة بهم، ولو في الأمور الهيِّنَة؛ لأن فيه نوع اعتماد، وسؤال لغير الله تعالى.

فعن عوف بن مالك الأشجعي، رضي الله تعالى عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: «**ألا تبايعون رسول الله؟**»، فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ فقال: «**أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وتطيعوا** ـ وأسر كلمة خفيَّة ـ **ولا تسألوا الناس شيئًا**». قال: فلقد رأيت بعض أولئك النفر، يسقط

---

(١) رواه أحمد في المسند (١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧)، والترمذي، ح: (٢٥١٦)، (٤/ ٦٦٧)، وقال: "حسن صحيح". وابن أبي عاصم، ح: (٣١٦)، (١/ ١٣٨)، والآجري في الشريعة، ح: (٤١٢)، (٢/ ٦٧٥)، واللالكائي، ح: (١٠٩٥)، (٤/ ٦١٤)، والبيهقي في الاعتقاد ص(٥٨)، وفي الشعب ح: (١٩٥)، (١/ ٢١٥-٢١٦)، وابن بطة في الإبانة، ح: (٢٣٢)، (٢/ ٢٠٠) من طريق: حنش عن ابن عباس. وروي من طرق أخرى: عند الحاكم في المستدرك (٣/ ٥٤١، ٥٤٢)، وغيره.

قال الحافظ ابن رجب ـ في نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس ـ: "وأجود أسانيده من رواية حنش عن ابن عباس ـ التي ذكرناها ـ وهو إسناد حسن، لا بأس به". وقد أفاض في تخريجه وتتبع طرقه، أخونا الشيخ: محمد بن ناصر العجمي، في تحقيقه للكتاب المذكور، فليراجعه من شاء.

سوط أحدهم، فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه[١].

وفي المسند لأحمد: أن أبا بكر الصديق، كان يسقط السوط من يده، فلا يقول لأحدنا: ولني إياه، ويقول: (إن خليلي، أمرني ألا أسأل الناس شيئًا)[٢].

وقد نهى ﷺ في غير ما حديث عن المسألة؛ لأن فيها نوع استعانة وتوكل على غير الله، ومن ذلك:

حديث ابن عمر رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**لا تزال المسألة بأحدكم، حتى يلقى الله، وليس في وجه مُزْعة لحم**»[٣].

وعنه ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال وهو على المنبر، وذكر الصدقة والتعفف في المسألة: «**واليد العليا خير من اليد السفلى**»[٤]. واليد العليا: المنفقة، واليد السفلى: هي السائلة[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**من سأل الناس تكثرًا؛**

---

(١) رواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس، ح: (١٠٢٣)، (٢/ ٧٢١).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام، (١/ ١٨٢).

(٣) رواه البخاري في الزكاة، باب: من يسأل الناس تكثرًا، ح: (١٤٧٤)، (٣/ ٣٩٦)، ومسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس، ح: (١٠٤٠)، (٢/ ٧٢٠)، وأحمد في المسند (٢/ ١٥، ٨٨).

(٤) رواه البخاري في الرقاق، باب: قول النبي ﷺ: «هذا المال خضرة حلوة...» ح: (٦٤٤١)، (الفتح ١١/ ٢٦٣)، ومسلم في الزكاة، باب: بيان أن أفضل الصدقة، صدقة الصحيح الشحيح، ح: (١٠٣٣، ١٠٣٤)، (٢/ ٧١٧)، وأبو داود في الزكاة (٢٨)، والترمذي في الزكاة (٣٨)، وأحمد في المسند (٢/ ٤، ٢٧، ٩٨).

(٥) رواه النسائي في الزكاة، باب: اليد السفلى، ح: (٢٥٣٣)، (٥/ ٦١)، وأحمد (٢/ ٦٧).

فإنما يسأل جمرًا، فليستقل أو ليستكثر»[١].

وعن ثوبان رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تكفل لي لا يسأل الناس شيئًا؛ أتكفل له بالجنة»**. فقلت: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا[٢]. قال: فكان ثوبان يسقط سوطه، فلا يقول لأحدنا: ناولنيه، حتى ينزل فيأخذه. والنصوص في هذا المعنى كثيرة.

وأصل الطلب من المخلوق لا يجوز إلا لضرورة[٣]، وقد جاء تفصيل أصحاب الضرورات، في حديث قبيصة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: **«إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة؛ رجل تحمل حمالة، فحلَّت له المسألة حتى**

---

(١) رواه مسلم في الزكاة، باب: كراهية المسألة للناس، ح: (١٠٤١)، (٢/ ٧٢٠)، وابن ماجه في الزكاة، باب: من سأل عن ظهر غني، ح: (١٨٣٨)، (١/ ٥٨٩)، وأحمد (٢/ ٢٣١).

(٢) رواه أبو داود في الزكاة، باب: (٢٧)، والترمذي في الزهد، باب: (٦١)، وأحمد في المسند (٥/ ٢٧٥، ٢٧٦)، ونحوه عن ابن ماجه في الزكاة، باب: كراهة المسألة ح: (١٨٣٧)، (١/ ٥٨٨).

(٣) وتفصيل أحكام المسألة في كتب الفروع.

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (١/ ١٨١): "وسؤال الخلق في الأصل محرم، لكنه أبيح للضرورة، وتركه توكلاً على الله أفضل. قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾. أي: إليه لا إلى غيره".

ويتأكد فيما فيه استجداء وتذلل، لا مجرد طلب؛ كطلب الوالد من ولده، والأخ من أخيه، والسيد من خادمه، وهكذا.

بل ورد الأمر بالسؤال، كما قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. فسؤال الإنسان الحاضر ما يقدر عليه عادة، لا شيء فيه، وإنما المحذور ما كان فيه تذلل وخضوع، فهذا نوع عبودية، وهو المنهي عنه.

يصيبها، ثم يمسك. ورجل أصابته جائحة اجتاحت ما له، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش. أو قال: سدادًا من عيش. ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجى من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلَّت له المسألة حتى يصيب قوامًا من عيش. أو قال: سدادًا من عيش. فما سواهن من المسألة ـ يا قبيصة ـ فسحت، يأكلها صاحبها سحتًا»[1].

وذكر المعلمي رحمه الله، مبحثًا بعنوان: أحكام الطلب، ومتى يكون دعاء؟[2].

وذكر فيه أنه نظر في وجوه السؤال، فوجده على أقسام:

"القسم الأول: ما هو من باب سؤال الإنسان حقًا له عند المسؤول؛ كأن يكون لك دين عند إنسان، فتطلبه منه.

القسم الثاني: ما جرت العادة بالتسامح به على نية المكافأه؛ كقول التلميذ لزميله: ناولني الكتاب.

القسم الثالث: سؤال الإنسان ما ليس بحقٍ له؛ وذلك كقول من يجد الكفاف من العيش لغني، لاحق له عليه: أعطني دينارًا مثلاً... ومن هذا القسم سؤال الإنسان من ربه؛ لأنه لا حق له على ربه تعالى".

---

(١) رواه مسلم في الزكاة، باب: من تحل له المسألة، ح: (١٠٤٤)، (٢/ ٧٢٢)، وأبو داود في الزكاة، باب: ما يجوز فيه المسألة، ح: (١٦٤٠)، والترمذي في الزكاة (٢٣)، والنسائي في الزكاة (٨٠)، والدارمي في الزكاة (٣٧).

(٢) في كتاب العبادة، المخطوط، ورقة (٥٠٦)، وما بعدها.

ثم قال: " فأما الأول: فلا يسمى استعانة، ولا يلزمه التذلل والخضوع. وأما الثاني: فإنه وإن سُمي استعانة، لكنه لا يلزمه التذلل والخضوع، إلا أن فيه رائحة ما من ذلك. وأما الثالث: فهو الذي يلزمه التذلل والخضوع". ثم ذكر ـ رحمه الله ـ تفصيلاً جيدًا في ذلك.

وقد بيَّن شيخ الإسلام خطورة مسألة المخلوقين، وذكر أنه ظلم في حق الربوبية، وظلم في حق الخلق، وظلم في حق النفس، فقال: "أما في حق الربوبية: فلِمَا فيه من الذل لغير الله، وإراقة ماء الوجه لغير خالقه، والتعرض عن سؤاله بسؤال المخلوقين، والتعرض لمقته إذا سأل وعنده قوت يومه.

وأما في حق الناس: فبمنازعتهم ما في أيديهم بالسؤال، واستخراجه منهم، وأبغض ما إليهم من يسألهم ما في أيديهم، وأحب ما إليهم من لا يسألهم، فإن أموالهم محبوباتهم، ومن سألك محبوبك، فقد تعرض لمقتك وبغضك.

وأما ظلم السائل نفسه: فحيث امتهنها، وأقامها في مقام ذلِّ السؤال، ورضي لها بذل الطلب ممن هو مثله، أو لعل السائل خير منه وأعلى قدرًا، وترك سؤال من ليس كمثله شيء وهو السميع البصير؛ فقد أقام السائل نفسه مقام الذل، وأهانها بذلك. ورضي أن يكون شحاذًا من شحاذ مثله، فإن من تشحذه، فهو ـ أيضًا ـ شحاذ مثلك. والله وحده هو الغني"[1].

فسؤال المخلوق للمخلوق، سؤال الفقير للفقير، والرب تعالى كلما سألته كرمْتَ عليه، ورضي عنك وأحبك، والمخلوق كلما سألته، هِنْتَ عليه

(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ١٣١).

وأبغضك ومقتك وقلاك، كما قيل:

اللهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤالَه وَبُنَيّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

وقبيح بالعبد المريد، أن يتعرض لسؤال العبيد، وهو يجد عند مولاه كل ما يريد[١].

وقد بين الحافظ ابن رجب، أن سؤال الله تعالى دون خلقه، هو المتعين عقلاً وشرعًا؛ وذلك من وجوه متعددة؛ منها:

١- أن السؤال فيه بذل ماء الوجه وذلة للسائل، وذلك لا يصلح إلا لله وحده.

٢- أن في سؤال الله عبودية عظيمة؛ لأنها إظهار للافتقار إليه، واعتراف بقدرته على قضاء الحوائج.

٣- ومنها: أن الله يُحب أن يُسْأل، ويغضب على من لا يسأله.

٤- ومنها: أن الله تعالى يستدعي من عباده سؤال!؟، وينادي كل ليلة[٢].

وبهذا تتبين لنا أهمية التوكل وضرورته، وعدم استغناء العبد عنه طرفة عين، في شؤون دينه ودنياه.

فمقامٌ هذه منزلته، جدير بالعبد أن يبذل قصارى جهده في تحقيقه، ويسعى جاهدًا فيما يبعده عما يناقضه، ويقدح فيه، ويقلل من تحقيقه، والله أعلم.

---

(١) المصدر نفسه (٢/ ١٣١-١٣٢).

(٢) نور الاقتباس، ص (٦٨-٧١)، مختصرًا.

الفصل الرابع

ثمـــرات التوكـــل

الفصل الرابع

ثمرات التوكـــل

بعد أن بينا منزلة التوكـل وأهميتـه، نحـب أن نـشير إلى بعـض الثمـرات العظيمة، التي يجنيها المتوكل بعـد تحقيقـه هـذا المقـام الرفيـع، وهـذه المنزلـة الشريفة، ومن أهمها:

١ - تحقيق الإيمان:

تقدم ـ معنا ـ بيان: أن التوكل مـن أعظـم أعـمال القلـوب[١]، التـي هـي أعظـم عنـاصر الإيـمان، كـما ـ تقـدم ـ أن التوكـل شرط ولازم مـن لـوازم الإيمان[٢]، لا يتم الإيمان، إلا بتحقيقه، وذكرنا الجمع بـين هـاتين الخـصلتين، اللتين قد يُفهم منهما عند أول وهلة التعارض[٣].

وبناء على التلازم بين الإيمان والتوكل، فلا شك أن من أعظم ثمار التوكل الحاصلة؛ هو تحقيق إيمان العبد؛ حيث لا إيـمان إلا بتوكـل، كـما لا توكـل إلا بإيمان، : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٤]. أي: فلا تحقيـق للإيـمان إلا بتحقيق التوكل. وتقدم بسط ذلك بما يغني عن الإعادة[٥].

---

(١) ص (٥٣).

(٢)ص (٦٦).

(٣) ص (٦٧).

(٤) سورة المائدة، الآية: (٢٣).

(٥) انظر: ص (٦٦) وما بعدها.

٢- طمأنينة النفس، وارتياح القلب:

كما أن من أعظم ثمار التوكل: أن العبد حينما يسلم قياده لخالقه ورازقه ومولاه عز وجل، ويرضى بما قسم الله له، ويفوض أمره إليه، ويثق في موعود الله، لا شك أنه نتيجة لهذا، سيجد راحة في قلبه، وطمأنينة في نفسه، وأُنسًا وسعادة تعجز الأحرف عن وصفها، لكن يتذوقها من وجدها؛ لأنه "لا أشرح للصدر، ولا أوسع له - بعد الإيمان - من ثقته بالله، ورجائه له، وحسن ظنه به"(١).

فإذا توكل العبد على الله حق توكله، كفاه الله هَمَّه، وأراحه مما أهمَّه، وأنزل عليه سكينته، فاطمأن إلى حكمه الديني الشرعي، واطمأن إلى حكمه الكوني القدري.

"فإنه إذا اطمأن إلى حكمه الديني، علم أنه دينه الحق، وهو صراطه المستقيم، وهو ناصره وناصر أهله، وكافيهم ووليهم"(٢). قال تعالى: ﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴾(٣). وقال: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾(٤).

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٤٧١).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٥١٦).

(٣) سورة النمل، الآية: (٧٩).

(٤) سورة إبراهيم، الآيتان: (١١، ١٢).

"وإذا اطمأن إلى حكمه الكوني؛ علم أنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وأنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا وجه للجزع والقلق، إلا ضعف اليقين والإيمان؛ فإن المحذور المخوف إن لم يُقدَّر، فلا سبيل إلى وقوعه، وإن قُدِّر، فلا سبيل إلى صرفه، بعد أن أُبرم تقديره، فلا جزع حينئذ لا مما قدر الله، ولا مما لم يقدر الله"[١]. قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[٢].

٣- كفاية الله للمتوكل جميع شئونه:

أخذًا من قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾[٣]. أي: كافيه. قال الربيع بن خُثَيم: "مِنْ كل ما ضاق على الناس"[٤].

وقال ابن القيم: "وهو حسب من توكل عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يؤمن من خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه؛ تولاه وحفظه، وحرسه وصانه، ومن خافه واتقاه؛ أمَّنه مما يُخاف ويُحْذر، وجلب

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥١٦).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٥١).

(٣) سورة الطلاق، الآية: (٣).

(٤) رواه البخاري - تعليقًا - في الرقاق، باب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾. (الفتح ١١/ ٣١١).

إليه كل مايحتاج إليه من المنافع"[١].

وهذا أعظم جزاء؛ أن جعل الله تعالى نفسه، جزاء المتوكل عليه وكفايته، وقد ذكر الله ـ تعالى ـ كثيرًا من أعمال البر ومقامات الإحسان، وجعل لها جزاء معلومًا؛ فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا﴾[٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾[٤]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٥]. وغيرها.

أما عن التوكل، فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[٦].

قال ابن القيم: "فانظر إلى هذا الجزاء الذي حصل للمتوكل، ولم يجعله

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص (٥٠٣).

(٢) سورة الطلاق، الآية: (٢).

وعن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف كلمة ـ وقال عثمان: «آية» ـ لو أخذ الناس كلهم بها كفتهم»، قالوا: يا رسول الله، أيّة آية؟ قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾. رواه ابن ماجه في الزهد، باب: الورع والتقوى، ح: (٤٢٢٠)، (٢/ ١٤١١). قال في الزوائد: "هذا حديث رجاله ثقات، غير أنه منقطع، وأبو السليل، لم يدرك أبا ذر، قاله في التهذيب".

(٣) سورة الطلاق، الآية: (٥).

(٤) سورة الطلاق، الآية: (٤).

(٥) سورة النساء، الآية: (٦٩).

(٦) سورة الطلاق، الآية: (٣).

لغيره، وهذا يدل على أن التوكل، أقوى السبل عنده، وأحبها إليه"[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قال إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي ووقي وكفى!**»[٢].

وروى ابن ماجه في الزهد، بإسناده إلى عمرو بن العاص، يرفعه إلى النبي ﷺ، قال: «**إن من قلب ابن آدم بكل واد شعبة، فمن أتبع قلبه الشُعب كلها، لم يبال الله بأي واد هلك، ومن يتوكل على الله كفاه الله الشُعب**»[٣].

كما روي عن النبي ﷺ، أنه قال: «**من انقطع إلى الله عز وجل، كفاه الله كل مئونةٍ، ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا، وكله الله**

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٨)، ونسب هذا المعنى في بدائع الفوائد لبعض السلف.

(٢) رواه الترمذي في الدعوات، باب: ما يقول إذا خرج من بيته، ح: (٣٤٢٦)، (٥/ ٤٩٠)، وقال: "حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه". ورواه ابن ماجه في الدعاء، باب: ما يدعو به الرجل إذاخرج من بيته، ح: (٣٨٨٦)، (٢/ ١٢٧٨)، وقال في الزوائد: "في إسناده هارون بن عبدالله؛ وهو ضعيف". وروى نحوه أبو داود من حديث أنس، في الأدب، باب: ما يقول إذا خرج من بيته، ح: (٥٠٧٣)، (عون ١٣/ ٤٣٧). كما روى نحوه الإمام أحمد في مسنده (١/ ٦٦) بأتم ما هنا. والحديث صححه الألباني، كما في صحيح الجامع الصغير، ح: (٥١٣، ٢٢٧)، (١/ ١٩٥).

(٣) رواه ابن ماجه في الزهد، باب: التوكل واليقين، ح: (٤١٦٦)، (٢/ ١٣٩٥). قال في الزوائد: "إسناده ضعيف، وصالح بن زريق ليس له إلا هذا الحديث، قال في الميزان: حديثه منكر".

إليها»[١].

والكافي هو الله وحده، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٢]. أي: "يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين"[٣]. فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا قول أبي صالح عن ابن عباس، وبه قال ابن زيد ومقاتل[٤] والشعبي[٥] وآخرون، ولم يذكر ابن كثير غيره[٦].

وقيل: المعنى: حسبك الله، وحسبك المؤمنون، وهو مروي عن الحسن واختاره النحاس[٧].

قال ابن الجوزي: "والقول الأول هو الأصح"[٨]؛ وذلك لدلالة

---

(١) أخرجه الطبراني في الصغير (١/ ١١٥، ١١٦)، وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة، ومن طريقه البيهقي في الشعب، ح: (١٠٧٦، ١٣٥١، ١٣٥٢)، (٢/ ٢٨، ١٢٠). ورواه ابن أبي حاتم كما في ابن كثير (٨/ ١٧٤)، وأبو الشيخ كما في الترغيب (٢/ ٥٣٨)، والخطيب في التاريخ (٧/ ١٩٦).

قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ٣٠٣): "رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: إبراهيم بن الأشعث صاحب الفضيل، وهو ضعيف، وقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال: يغرب ويخطي ويخالف، وبقية رجاله ثقات". وانظر: العلل المتناهية لابن الجوزي (٢/ ٣٢٦).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٦٤).

(٣) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧).

(٤) زاد المسير (٣/ ٥٥٦).

(٥) تفسير الطبري (١٠/ ٣٧).

(٦) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٠).

(٧) تفسير القرطبي (٨/ ٤٣).

(٨) زاد المسير (٣/ ٢٥٦).

الاستقراء، على أن الحسب والكفاية لله وحده[١].

قال ابن القيم: "وهذا ـ وإن قال به بعض الناس ـ فهو خطأ محض، لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، وقال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[٢]. ففرَّق بين الحسب والتأييد؛ فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى الله سبحانه على أهل التوحيد والتوكل من عباده؛ حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾[٣]. ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله.

فإذا كان هذا قولهم، ومدح الرب تعالى لهم بذلك؛ فكيف يقول لرسوله: الله وأتباعك حسبك، وأتباعه قد أفردوا الرب بالحسب، ولم يشركوا بينه وبين رسوله فيه، فكيف يشرك بينهم وبينه في حسب رسوله؟! هذا من أمحل المحال وأبطل الباطل.

ونظير هذه قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[٤]. فتأمل

---

(١) أضواء البيان (٢/ ١٩٨).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٦٢).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٧٣).

(٤) سورة التوبة، الآية: (٥٩).

كيف جعل الإيتاء لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[١]. وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا: حسبنا الله ورسوله؛ بل جعله خالص حقه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾[٢]. ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾[٣].

فالرغبة والتوكل والإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى.

ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾[٤]. فالحسب هو الكافي، فأخبر سبحانه أنه وحده كاف عبده، فكيف يجعل أتباعه مع الله في هذه الكفاية؟! والأدلة الدالة على بطلان هذا التأويل الفاسد، أكثر من أن تذكر"[٥].

٤- من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار:

التوكل سبب من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، خلافًا لمن قال: إنه مجرد عبادة يثاب عليها العبد؛ كرمي الجمار. وخلافًا لمن قال:

---

(١) سورة الحشر، الآية: (٧).

(٢) سورة التوبة، الآية: (٥٩).

(٣) سورة الشرح، الآيتان: (٧، ٨).

(٤) سورة الزمر، الآية: (٣٦).

(٥) زادالمعاد (١/ ٣٦-٣٧).

بنفي الأسباب في الخلق والأمر، كما هو قول طائفة من متكلمي أهل الإثبات للقدر؛ كالأشعري وغيره، وهو قول طائفة من الفقهاء والصوفية[١].

وسيأتي تفصيل ذلك، عند الحديث عن الأسباب، إن شاء الله تعالى.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "والتوكل من أقوى الأسباب، التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق، وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الاسباب في ذلك، فإن الله حسبه، أي: كافيه، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه؛ كالحر والبرد والجوع والعطش. وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده، فلا يكون أبدًا"[٢].

والواقع خير شاهد على ذلك، فقد روى البخاري بإسناده عن ابن عباس: (حسبنا الله ونعم الوكيل)، قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا: "إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم"[٣].

وقال ابن عباس: (كان آخر قول إبراهيم ـ عليه السلام ـ حين ألقي في النار: حسبنا الله ونعم الوكيل)[٤].

---

(١) رسالة في تحقيق التوكل لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص (٨٧) ضمن جامع الرسائل.

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٧).

(٣) رواه البخاري في التفسير، باب: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية. ح: (٤٥٦٣)، (فتح الباري ٨/ ٧٧).

(٤) رواه البخاري في التفسير، باب: قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ الآية. ح: (٤٥٦٤)، (الفتح ٨/ ٧٧).

وروى البيهقي بإسناده إلى بشر بن الحارث، قال: "لما رُفع إبراهيم عليه السلام ليلقى في النار، عرض له جبريل عليه السلام، فقال: يا إبراهيم، هل لك من حاجة؟ قال: أما إليك؛ فلا"[١]. وهذا من كمال تحقيقه التوكل على ربه تعالى وحده دون سواه.

ولكن ماذا كانت النتيجة؟! قال الله تعالى في حق إبراهيم ﷺ: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾[٢].

وقال في حق محمد ﷺ وأصحابه: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾[٣]. قال الحافظ ابن كثير: "لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم؛ فرجعوا إلى بلدهم ﴿بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ﴾. مما أضمر لهم عدوهم، ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾"[٤].

وقال تعالى ممتنًا على المؤمنين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا

---

(١) رواه ابن جرير في تفسيره (١٧/ ٤٥)، والبغوي في تفسيره (٤/ ٢٤٣)، والبيهقي في الشعب، ح: (١٠٧٧)، (٢/ ٢٩).

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٣٩): "وأول هذا الحديث معروف، وهو قوله: أما إليك فلا..". ونسبه ابن كثير في التفسير (٥/ ٣٤٥) إلى بعض السلف.

(٢) سورة الأنبياء، الآيتان: (٦٩، ٧٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٧٤).

(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٤٨).

ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[١].

فتذييل الآية بالتوكل على الله، مُشعِر أنه من أسباب كفه عنكم أيدي القوم، الذين هموا بالبطش بكم، فصرفهم عنكم، وحال بينهم وبين ما أرادوا بكم.

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية، ثلاثة أخبار، كلها تدل على كفاية الله تعالى لنبيه ﷺ، وحفظه من شر الناس، وهي:

١ - ما رواه البخاري وغيره، عن جابر أن النبي ﷺ، نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاه[٢]؛ يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي[٣] إلى سيف رسول الله ﷺ، فأخذه فسلّه، ثم أقبل على النبي ﷺ، فقال: من يمنعك مني؟ قال: ((الله)). قال الأعرابي ـ مرتين أو ثلاثًا ـ: من يمنعك مني؟ والنبي ﷺ يقول: ((الله)). قال: فشام[٤] الأعرابي السيف، فدعا النبي أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه ولم يعاقبه[٥].

(١) سورة المائدة، الآية: (١١).

(٢) العضاه: شجر أم غيلان، وكل شجر له شوك، الواحدة: عَضَةٌ بالتاء، وأصلها عِضَهة، وقيل: واحدته: عضاهة. النهاية (٣/ ٢٥٥).

(٣) وردت في بعض الروايات تسميته؛ وهو: غورث بن الحارث. انظر: صحيح البخاري في المغازي، ح: (٤١٣٦)، (فتح ٧/ ٤٩١). وانظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩).

(٤) شام السيف: أغمده. والشيم من الأضداد. يكون سلاً وإغمادًا. النهاية (٢/ ٥٢١).

(٥) رواه الإمام أحمد في المسند (٣/ ٣١١)، والبخاري في الجهاد، باب: من علق سيفه بالشجر، ح: -

٢- ومنها: ما رواه ابن جرير الطبري وغيره، عن ابن عباس في هذه الآية ـ فذكرها ـ وقال: وذلك أن قومًا من اليهود، صنعوا لرسول الله ﷺ ولأصحابه طعامًا؛ ليقتلوهم، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فأبوه[١].

٣- وقيل: نزلت في اليهود، حينما تمالئوا على قتل النبي ﷺ؛ وذلك حينما خرج ﷺ إليهم، ليستعينهم على دية العامريَّين، اللَّذَيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري، فلما جاءهم خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنكم لن تجدوا محمدًا أقرب منه الآن، فمُرُوا رجلاً يظهر على هذا البيت، فيطرح عليه صخرة فيريحنا منه، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب، وأمروه إن جلس رسول الله ﷺ تحت الجدار، واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه، فأطلع الله رسوله على ماتمالئوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه[٢]، فأنزل الله في ذلك: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾[٣].

وعلى اعتبار جميع هذه الأسباب، أو ترجيح أحدها، أو غيرها، فهذه كلها من حيث الواقع، تدل على حماية الله تعالى وكلاءته وحفظه لنبيه، وما ذاك إلا

(٢٩١٠)، (فتح ٦/ ١١٣) بنحوه. ورواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٦)، وعبد ابن حميد، وابن المنذر، كما في الدر المنثور (٣/ ٣٥). والبيهقي في الدلائل (٣/ ١٦٨)، وغيرهم.

(١) رواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣/ ٥٩).

(٢) رواه الطبري في التفسير (٦/ ١٤٤) ورجحه، ورواه ابن إسحاق وابن المنذر؛ كما في الدر المنثور (٣/ ٣٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: (١١).

لتحقيقه تمام التوكل على ربه عز وجل. والصور والوقائع في هذا المعنى كثيرة، نكتفي بما ذكرناه منها.

٥- يورث محبة الله تعالى للعبد:

ولا شك أن هذه أعلى المطالب وأغلى المُنى، أن يحظى العبد بمحبة الله تبارك وتعالى له.

وقد وعد الله تعالى المتوكلين عليه بالمحبة، وَوَعْدُ الله واقع لا محالة لمن حقق التوكل. قال الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[1].

وهم الراضون بقضائه، والمستسلمون لحكمه فيهم، وافق ذلك منهم هوى أو خالفه[2].

فجعل ـ تبارك وتعالى ـ ثمرة التوكل عليه، الحصول على محبته تعالى لذلك المتوكل، وهي غاية الشرف والفضيلة، كما قال العلامة ابن القيم رحمه الله: "وهي المنزلة التي فيها تنافس المتنافسون، وإليها شخص العاملون، وإلى عَلَمها شمر السابقون، وعليها تنافس المحبون، وبروح نسميها تروح العابدون، فهي قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون، وهي الحياة التي من حرمها فهو من جملة الأموات، والنور الذي من فقده فهو في بحار الظلمات، والشفاء الذي من عدمه حلت بقلبه جميع الأسقام، واللذة التي من

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ١٥٣).

لم يظفر بها، فعيشه كله هموم وآلام.."[١].

وهذا في محبة العبد لله تعالى، فكيف بمحبة الله تعالى لهذا العبد الضعيف!، ولذلك قال بعض الحكماء العلماء: "ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَب"[٢].

ومن نال محبة الله، فقد حاز على شرف الدنيا والآخرة، وأحبه الرسل والأنبياء والملائكة، ووضع له القبول في الأرض.

روى الإمام البخاري في صحيحه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إذا أحب الله عبدًا نادى جبريل: إن الله يحب فلانًا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**»[٣].

قال الحافظ ابن حجر: "المراد بالقبول في حديث الباب: قبول القلوب له بالمحبة والميل إليه، والرضا عنه، ويؤخذ منه: أن محبة قلوب الناس علامة محبة الله"[٤].

وإذ أحب الله العبد وفقه لعمل الطاعات، كما في الحديث القدسي: «... **ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي**

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٦).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٢/ ٢٥).

(٣) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب: المِقَة من الله، ح: (٦٦٤٠)، (الفتح ١٠/ ٤٧٦)، ومسلم في البر والصلة، باب: إذا أحب عبدًا حببه إلى عباده، ح: (٢٦٣٧)، (٤/ ٢٠٣٠)، والترمذي في التفسير، (سورة مريم)، ح: (٣١٦١)، (٥/ ٣١٨)، بنحوه، وأحمد في المسند (٢/ ٢٦٧، ٣٤١).

(٤) فتح الباري (١٠/ ٤٧٧).

يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

وقد عرف الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ أهمية المحبة وعِظَم شأنها، وكانوا أحرص ما يكونون على تحقيقها، فلما قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: **«لأعطين الراية غدًا رجلاً يحبه الله ورسوله ـ أو قال: يحب الله ورسوله ـ يفتح الله عليه»**. فبات الناس يدوكون ليلتهم؛ أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ، كلهم يرجو أن يعطاها، فأعطاها عليًا رضي الله تعالى عنه[٢].

فالصحابة الكرام رضي الله عنهم، لمعرفتهم بأهمية المحبة وعظم شأنها، "باتوا يدوكون ليلتهم أيهم يعطاها"، و "كلهم يرجو أن يعطاها"، وهم الذين لايرغبون في الإمارة ولا يحبونها، حتى قال الفاروق عمر رضي الله عنه: (فما أحببت الإمارة قط إلا يومئذ)[٣].

٦- يورث قوة القلب وشجاعته وثباته، وتحديه الأعداء:

من أعظم ثمار التوكل: أنه يورث قوة القلب وثباته وشجاعته، وتحديه

---

(١) رواه البخاري في الرقاق، باب: في التواضع، ح: (٦٥٠٢)، (الفتح ١١/ ٣٤٨).

(٢) رواه البخاري في فضائل الصحابة، باب: مناقب علي، ح: (٣٧٠١)، (فتح ٧/ ٨٧)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي، ح: (٢٤٠٦)، (٤/ ١٨٧٢)، والترمذي في المناقب (٢٠)، وابن ماجه في المقدمة (١١)، وأحمد في المسند (١/ ٣٣١) و (٢/ ٣٨٤) و(٤/ ٥٢).

(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة، ح: (١٣٧٧)، (٢/ ٦٠٨)، والبيهقي في الشعب ح: (٧٧)، (١/ ١٧١).

الأعداء مهما عظموا، فالقوة كل القوة في التوكل.

وقد روي عن ابن عباس، عن النبي ﷺ أنه قال: «**من أحب أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله، ومن أحب أن يكن أغنى الناس، فليكن بما في يد الله، أوثق منه بما في يديه، ومن أحب أن يكون أكرم الناس، فليتق الله**»(١).

ولذلك جاء الأمر بالتوكل مقرونًا بالإعراض عن الأعداء، وعدم الاهتمام بهم، أو الخوف منهم، فقال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِى تَقُولُ ۖ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٢). ويعني: بهم المنافقين.

وقال عز وجل آمرًا نبيه ﷺ: ﴿ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾(٣).

وقرنه بالبراءة منهم في قوله: ﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴾(٤).

---

(١) رواه ابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٩١)، وعبدالله بن الإمام أحمد في الزهد، ص (٢٩٥)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠)، وأبو نعيم في الحلية (٣/ ٢١٨)، وفي أخبار أصبهان (٢/ ٣٦٣)، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله، ح: (٩)، ص(٤٤)، وضعفه العراقي في تخريج الإحياء (٤/ ٢٤٤)، وحسنه المناوي في التيسير (٢/ ٤٢٢) تبعًا للسيوطي.

(٢) سورة النساء، الآية: (٨١).

(٣) سورة الأحزاب،الآية: (٤٨).

(٤) سورة الشعراء، الآيات: (٢١٦-٢١٩).

ولذلك وقف الأنبياء موقف القوة والتحدي، أمام أعدائهم مع قلة الأتباع والأنصار، ولكنهم اتكلوا على ركن شديد، لا يُخذل من لاذ به، ولا يُهزم من كان ناصره.

١ - فهذا نوح عليه السلام، يقول الله تعالى عنه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1].

فهذه الأمور الخمسة؛ وهي: قوله: (١ - فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ ٢ - وَشُرَكَآءَكُمْ ٣ - ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ٤ - ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ ٥ - وَلَا تُنظِرُونِ). كلها تدل على أنه كان متوكلاً على الله غاية التوكل، مؤمنًا بأن وعد الله بالنصر والعون متحقق، ولن يتخلف. وفي هذاه من قوة العزيمة، وثبات الجأش، ما فيه.

ثم ذيَّل الآيات بنتيجة هذا التحدي، فقال: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾[2].

فكانت النتيجة كما يلي:

---

(١) سورة يونس، الآيتان: (٧١، ٧٢). وانظر: معاني الآيات في تفسير الطبري (١١/ ١٤٣)، وابن كثير (٤/ ٢١٨).

(٢) سورة يونس، الآية: (٧٣).

١- نجاة نوح ومن معه.

٢- جعلهم الله خلائف: (أي: خلفًا لمن هلك)[١].

٣- إغراق المكذبين.

٤- الحكمة من ذكر القصة والعبرة من ذلك.

قال شيخ الإسلام: "فلولا أن تحقيقه هذه الكلمة؛ وهو توكله على الله، يدفع ما تحداهم به، ودعاهم إليه تعجيزًا لهم من مناجزته؛ لكان قد طلب منهم أن يهلكوه، وهذا لا يجوز، هذا طلب تعجيز لهم، فَدَلّ على أنه بتوكله على الله، سيعجزهم بما تحداهم به"[٢].

٢- وهذا هود عليه السلام؛ حيث قال الله تعالى عنه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾. إلى قوله: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾. إلى قوله: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[٣].

قال القرطبي: "وهذا القول مع كثرة الأعداء، يدل على كمال الثقة بنصرة

---

(١) زاد المسير (٤/ ٤٣).

(٢) تحقيق التوكل، ص (٩٦)، ضمن جامع الرسائل.

(٣) سورة هود، الآيات: (٥٢-٥٦).

الله، وهو من أعلام النبوة؛ أن يكون الرسول وحده يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾"[١].

ويقول شيخ الإسلام: "وهم كانوا أكثر وأقوى منه، فكانوا يهلكونه لولا قوته بتوكله عليه، فإن التوكل إن لم يعط قوة، فهم أقوى منه"[٢].

ويقول ابن أبي العز الحنفي: "فهذا من أعظم الآيات؛ أن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب، غير جزع ولا فزع ولا خوّار؛ بل هو واثق بما قاله، جازم به.

فأشهد الله ـ أولاً ـ على براءته من دينهم وما هم عليه، إشهاد واثق به معتمد عليه، معلم لقومه أنه وليه وناصره، وغير مسلط لهم عليه.

ثم أشهدهم إشهاد مجاهر لهم بالمخالفة؛ أنه بريء من دينهم وآلهتهم التي يوالون عليهم ويعادون عليها، ويبذلون دماءهم وأموالهم في نصرتهم لها.

ثم أكد ذلك عليهم بالاستهانة لهم، واحتقارهم وازدرائهم، ولو يجتمعون كلهم على كيده، وشفاء غيظهم منه، ثم يعاجلونه ولا يمهلونه؛ لم يقدروا على ذلك إلا ما كتبه الله عليه.

ثم قرر دعوتهم أحسن تقرير، وبين أن ربه تعالى وربهم؛ الذي نواصيهم بيده، هو وليه ووكيله، القائم بنصره وتأييده، وأنه على صراط مستقيم، فلا

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٩/ ٥٢).

(٢) تحقيق التوكل، ص (٩٧).

يخذل من توكل عليه وأقر به، ولا يشمت به أعداءه.."[١].

٣- وهذا خطيب الأنبياء[٢] شعيب عليه السلام، قال الله تعالى عنه: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[٣].

إلى غير ذلك من مواقف الأنبياء، في تحديهم أقوامهم وتعجيزهم لهم، مع قلة الناصر البشري؛ وما ذاك إلا لقوة اعتمادهم وتوكلهم على الله تعالى، الذي أورثهم تلك القوة، وعدم المبالاة بكيد الأعداء، أو الاكتراث بهم.

وتقدمت الإشارة إلى الخليلين عليهما الصلاة والسلام، وقوة توكلهما بما يغني عن الإعادة، حتى كان ذلك علمًا على رسول الله ﷺ، فسماه الله عز وجل: "المتوكل"، كما ثبت ذلك في حديث عطاء بن يسار، قال: لقيت عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن:

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص(٩٤)، وقارن في مدارج السالكين (٣/ ٤٦٤).

(٢) روي عن النبي ﷺ أنه كان إذا ذكر شعيبًا، قال: ((ذاك خطيب الأنبياء))؛ لحسن مراجعته قومه فيما دعاهم إليه، وفيما ردوا عليه وكذبوه، وتوعدوه بالرجم والنفي من بلادهم. ذكره السيوطي في الدر المنثور (٣/ ٥٠١)، وعزاه إلى إسحاق بن بشر، وابن عساكر، عن ابن عباس.

(٣) سورة الأعراف، الآيتان: (٨٨، ٨٩).

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ... ﴾. فذكره إلى أن قال: (أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل)[١].

ولذلك جاء في بعض الآثار: أن الرسل وجدت على لوط عليه السلام، حينما قال: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾[٢]. وقالوا: "إن ركنك لشديد".

وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ، قال: «**رحمة الله على لوط؛ لقد كان يأوي إلى ركن شديد** ـ يعني: الله عز وجل ـ **فما بعث الله بعده من نبي، إلا في ثروة[٣] من قومه**»[٤].

وورد في معنى: ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾. أي: جماعة أقوى بهم عليكم، وقيل:

---

(١) رواه البخاري في البيوع، باب: كراهة السخب في الأسواق، ح: (٢١٢٥)، (الفتح ٤/ ٤٠٢)، وفي التفسير باب: (٤٨)، ح: (٤٨٣٨)، (الفتح ٨/ ٤٤٩)، ورواه أحمد في مسند (٢/ ١٧٤).

(٢) سورة هود، الآية: (٨٠).

(٣) أي: في كثرة من قومه.

انظر: الفائق مادة: (ثرو)، (١/ ١٦٤)، والنهاية (١/ ٢١٠). وفي رواية أخرى: ((في ذروة من قومه)). انظر: الترمذي (٥/ ٢٩٣). بمعنى: في أعلى نسب منهم.

(٤) رواه الترمذي في تفسير، سورة يوسف، ح: (٧١١٦)، (٥/ ٢٩٣). وقال: "هذا حديث حسن". ورواه أحمد في المسند (٢/ ٣٣٢، ٣٨٤)، وابن جرير في تفسير (١٢/ ٨٧، ٨٨). والشطر الاول من الحديث، رواه البخاري في الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾. (٣٣٨٧)، (٦/ ٤٨١-٤٨٢)، ومسلم في الفضائل، باب: من فضائل إبراهيم الخليل عليه السلام، ح: (١٥١)، (٤/ ١٨٣٩).

المراد بالقوة البطش[١].

وقوله: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. أي: انضم على عشيرة، وشيعة تمنعني[٢].

ولذلك قال ابن الجوزي: "وفي الجملة: ما أراد بالركن نصر الله وعونه؛ لأنه لم يخل من ذلك، وإنما ذهب إلى العشيرة والأسرة"[٣].

وقال ابن الأثير ـ مشيرًا إلى حديث: «**رحم الله لوطًا...**». قال ـ: "إنما تحرم عليه لسهوه حين ضاق صدره من قومه، حتى قال: ﴿أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. أراد عز العشيرة الذين يستند إليهم، كما يستند إلى الركن من الحائط"[٤].

٧- يورث الصبر والتحمل:

ولهذا قرن الله تعالى بين الصبر والتوكل في غير ما آية[٥]؛ وما ذاك إلا لأن الصبر والتوكل ملاك الأمور كلها، "فما فات أحدًا شيء من الخير إلا لعدم صبره، وبذل جهده فيما أريد منه، أو لعدم توكله واعتماده على الله"[٦].

---

(١) زاد المسير (٤/ ١٠٩).

(٢) المصدر نفسه (٤/ ١٠٩).

(٣) المصدر نفسه (٤/ ١١٠).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٢٦٠)، وانظر: تحفة الأحوذي (٨/ ٥٤١).

(٥) تقدم ص (٧٤).

(٦) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٦١).

قال الله عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾[٢].

قال الشيخ ابن سعدي رحمه الله: "ونص على التوكل، وإن كان داخلاً في الصبر؛ لأنه يحتاج إليه في كل فعل، وترك مأمور به، ولا يتم إلا به"[٣].

وقال تعالى: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[٤].

فإذا كان التوكل يورث الصبر؛ فإن الصبر من أكبر أسباب الحصول على كل كمال، فأكمل الخلق أصبرهم، وهو من أجلِّ مقامات الإيمان، فكيف إذا اقترن باليقين؟! فإنه يورث الإمامة في الدِّين، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بالصبر واليقين، تُنال الإمامة في الدين"[٥]. ثم تلا قوله تعالى:

---

(١) سورة النحل، الآيتان: (٤١، ٤٢).

(٢) سورة العنكبوت، الآيتان: (٥٨، ٥٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٧/ ٧١).

(٤) سورة إبراهيم، الآيتان: (١١، ١٢).

(٥) مدارج السالكين (٢/ ١٥٤). وانظر: تفسير ابن كثير (٦/ ٣٧٢).

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾[١].

٨- يورث النصر والتمكين:

ولهذا قرن الله تعالى بينه وبين التوكل في عدة آيات؛ قال تعالى:

﴿ إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٢].

قرر الله تعالى هذه القاعدة، بين أمره لنبيه ﷺ، إذا عزم أن يتوكل على الله؛ لأن الله يحب المتوكلين، فقال: ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[٣]. وبين قوله: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾. وما ذاك إلا لأن النصر لا يكون إلا من عند الله[٤]، فمن لاذ بكنفه كفاه، ومن استنصر بغيره، وكله الله إلى من استنصر به، ومن وكله الله إلى غيره هلك.

وقال عز وجل: ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٥]. وذلك في معرض الحديث عن غزوة بدر، حيث قال عز وجل قبل ذلك: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ

---

(١) سورة السجدة، الآية: (٢٤).

(٢) سورة آل عمران، الآية: (١٦٠).

(٣) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٤) سورة آل عمران، الآية: (١٢٦).

(٥) سورة الأنفال، الآية: (٤٩).

مُحِيطٌ ﴾[١]. ثم قال: ﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَٰٓءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّىٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ۗ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢].

وذلك أن المنافقين والذين في قلوبهم مرض، لما رأوا قلة المؤمنين أمام جحافل المشركين ذلك اليوم، قالوا: ﴿ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمْ ﴾. وهي مقولة يرددها المنافقون وأصحاب القلوب المريضة، كلما رأوا إقدام المسلمين في الاستبسال في سبيل الله، مع قلة عددهم وعُددهم، متوكلين على الله تعالى، واثقين بنصره وتحقيق وعده، في قوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾[٣]. وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾[٤]. وقوله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾[٥]. وقوله: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ

(١) سورة الأنفال، الآية: (٤٧).
(٢) سورة الأنفال، الآيتان: (٤٨، ٤٩).
(٣) سورة غافر، الآية: (٥١).
(٤) سورة محمد، الآية: (٧).
(٥) سورة الحج، الآية: (٤٠).

﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[1].

فمتى حققوا العبادة الخالصة لله تعالى ـ ومن مقتضياتها التوكل عليه سبحانه وتعالى، وحده دون سواه ـ تَحَقَّق لهم ما وعدهم الله تعالى؛ من النصر والتمكين.

وأما قوله المنافقين عن المؤمنين: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡ﴾، فـ "يقولونه احتقارًا لهم واستخفافًا بعقولهم، وهم ـ والله ـ الأخفاء عقولاً، الضعفاء أحلامًا؛ فإن الإيمان يوجب لصاحبه الإقدام على الأمور الهائلة، التي لا تقدم عليها الجيوش العظام.

فإن المؤمن المتوكل على الله، الذي يعلم أنه ما من حول ولا قوة ولا استطاعة، لأحد إلا بالله تعالى، وأن الخلق لو اجتمعوا كلهم، على نفع شخص بمثقال ذرة، لم ينفعوه، ولو اجتمعوا على أن يضروه، لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وعلم أنه على الحق، وأن الله تعالى حكيم رحيم في كل ما قدره وقضاه؛ فإنه لا يبالي بما أقدم عليه، من قوة وكثرة، وكان واثقًا بربه، مطمئن القلب، لا فزعًا ولا جبانًا.

ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾. لا تغالب قوته قوة ﴿حَكِيمٞ﴾[2]، فيما قضاه وأجراه"[3].

---

(١) سورة النور، الآية: (٥٥).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٤٩).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٠٨-٢٠٩).

والمنافقون والذين في قلوبهم مرض، لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة، فهم يرون ظواهر الأمور، دون أن تهديهم بصيرة على بواطنها، ودون أن يشعروا بالقوة الكامنة في العقيدة، والثقة في الله والتوكل عليه، واستصغار شأن الجموع والقوى، التي لا ترتكن إلى عقيدة في الله، تمنحها القوة الحقيقية، فلا جرم يظنون المسلمين يومئذ مخدوعين في موقفهم، مغرورين بدينهم، واردين موارد التهلكة؛ بتعرضهم لجاحفل المشركين التي يرونها!.

"إن الواقع المادي الظاهر، لا يختلف من ناحية مظهره، عند القلوب المؤمنة، وعند القلوب الخاوية من الإيمان، ولكن الذي يختلف هو التقدير والتقويم لهذا الواقع المادي الظاهر...

فالقلوب الخاوية تراه ولا ترى شيئًا وراءه، والقلوب المؤمنة ترى ما وراءه من الواقع الحقيقي! الواقع الذي يشمل جميع القوى، ويوازن بينها موازنة صحيحة، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

هذا ما تدركه القلوب المؤمنة وتطمئن إليه، وما هو محجوب عن القلوب الخاوية؛ فلا تحسب حسابه! وهذا ما يرجح الكفة، ويقرر النتيجة، ويفصل في القضية في نهاية المطاف، في كل زمان وفي كل مكان"[2].

ولذلك لما اختل هذا الميزان، وأعجب بعض المؤمنين بكثرتهم؛ فخف في

---

(١) سورة الأنفال، الآية: (٤٩).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٥٣٢-١٥٣٣).

مقابل ذلك الإعجاب، ميزان التوكل على الله تعالى في قلوبهم؛ لَقَّنَ الله المؤمنين ـ ومنهم رسوله ـ ذلك الدرس العظيم في غزوة حنين؛ حيث قال الله عز وجل، مصورًا تلك القضية، ومشيرًا إلى ما في خبايا نفوس بعض القوم من مشاعر، فقال عز وجل: ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾[1].

"فمن انفعال الإعجاب بالكثرة، إلى زلزلة الهزيمة الروحية، إلى انفعال الضيق والحرج، وحتى لكأن الأرض كلها تضيق بهم، وتشد عليهم، إلى حركة الهزيمة الحسية، وتولية الأدبار، والنكوص على الأعقاب..."[2].

لكن الله تعالى أنقذهم في ذلك الموقف أيضًا، ونصرهم بثبات تلك الفئة المؤمنة، الثابتة مع رسول الله ﷺ، فقال: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[3].

والسكينة: ما جعله الله في القلوب، وقت القلاقل والزلازل والمفظعات، ما يثبتها ويسكنها، ويجعلها مطمئنة، وهي من نعم الله العظيمة على

(١) سورة التوبة، الآية: (٢٥).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٦١٧).

(٣) سورة التوبة، الآية: (٢٦).

العباد"[١].

وذلك أن النبي ﷺ لما فتح مكة، سمع أن هوازن اجتمعوا لحربه، فسار إليهم ﷺ، في أصحابه الذين فتحوا مكة، وممن أسلم من الطلقاء من أهل مكة، فكانوا اثني عشر ألفًا، والمشركون أربعة آلاف، فأعجب بعض المسلمين بكثرتهم، وقال بعضهم: (لن نُغلب اليوم من قلة!).

فلما التقوا هم وهوازن، حملوا على المسلمين حملة واحدة؛ فانهزموا لا يلوي أحد على أحد، ولم يبق مع الرسول ﷺ، إلا نحو مائة رجل ثبتوا معه، وجعلوا يقاتلون المشركين، وجعل النبي ﷺ، يركض بغلته نحو المشركين، ويقول: ((**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب**)).

ولما رأى من المسلمين ما أرى، أمر العباس بن عبدالمطلب، أن ينادي في الأنصار، وبقية المسلمين، وكان رفيع الصوت، فناداهم: يا أصحاب السمرة، يا أهل سورة البقرة، فلما سمعوا صوته عطفوا عطفة رجل واحد، فاجتلدوا مع المشركين، فهزم الله المشركين هزيمة شنيعة، واستولوا على معسكرهم ونسائهم وأموالهم[٢].

٩- يقوي العزيمة، والثبات على الأمر:

ولذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ، إذا عزم أن يتوكل على الله، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢٣٥).

(٢) انظر تفاصيل هذه الغزوة، في السيرة النبوية لابن هشام، (٤/ ٤٣٧) فما بعدها.

﴿ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[١].

وكمال العبد بالعزيمة والثبات، "فمن لم يكن له عزيمة فهو ناقص، ومن كانت له عزيمة، ولكن لا ثبات له عليها، فهو ناقص، فإذا انضم الثبات إلى العزيمة، أثمر كل مقام شريف وحال كامل"[٢].

ولهذا كان من دعائه ﷺ: ((**اللهم إني أسألك الثبات على الأمر، والعزيمة على الرشد**)) [٣].

ولا شك أن من أعظم ما يعين الإنسان على الثبات، على الأمر الرشيد، والرأي السديد، والعزيمة على تحقيقه؛ هو تحقيق التوكل على الله تعالى.

وقد أخرج ابن أبي حاتم، عن مسلم بن يسار رضي الله تعالى عنه، قال: "الكلام في القدر واديان عريضان؛ يهلك الناس فيهما، لا يُدرك عرضهما، فاعمل عمل رجل، يعلم أنه لا ينجيه إلا عمله، وتوكل توكُّلَ رجل، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له"[٤].

ولذلك قال تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا

---

(١) سورة آل عمران، الآية: (١٥٩).

(٢) طريق الهجرتين، ص (٢٤٨).

(٣) رواه النسائي في السهو، باب: الدعاء بعد الذكر، ح: (١٣٠٤)، (٣/ ٥٤)، والترمذي في الدعوات، باب: (٢٣)، ح: (٣٤٠٧) (٥/ ٤٧٦). وقال: "هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه". ورواه الإمام أحمد في المسند (٤/ ١٢٣، ١٢٥). وضعف الألباني إسناده، في ضعيف الجامع الصغير، ح: (١٢٨٨)، (١/ ٣٦١)، وتخريج الكلم الطيب، ح: (١٠٤)، ص(٦٥).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم، كما في الدر المنثور (٤/ ٢١٦).

﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا ۖ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[١].

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: ((**إذا وقعتم في الأمر العظيم، فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل**))[٢]. وما ذاك إلا لما للتوكل من أثر عظيم، في تقوية العزيمة، والثبات على الحق، ولهذا لما ثقل على الصحابة رضوان الله عليهم، ما أخبرهم به ﷺ، من قرب قيام الساعة، فقال: ((**كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن، واستمع الإذن، متى يؤمر بالنفخ فينفخ**)). فكأن ذلك ثقل على أصحاب النبي ﷺ، فقال لهم: ((**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، على الله توكلنا**))[٣].

١٠- يقي من تسلط الشيطان:

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾[٤]. فبين الله تعالى، أن الشيطان ليس له سلطان على من حقق الإيمان والتوكل، وإنما سلطانه على المتولِّين له، المطيعين لأوامره، وفي المراد بالسلطان هنا قولان:

---

(١) سورة التوبة، الآية: (٥١).

(٢) عزاه الحافظ ابن كثير ـ في التفسير (٢/ ١٤٨) ـ إلى ابن مردويه، وقال: "هذا حديث غريب من هذا الوجه".

(٣) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٢٦)، والترمذي في القيامة، باب: ما جاء في الصور، ح: (٢٤٣١)، (٤/ ٦٢٠)، وقال: "حديث حسن". وقال الحافظ ابن كثير ـ في التفسير (٢/ ١٤٨) ـ: "وهو حديث جيد".

(٤) سورة النحل، الآيات: (٩٨-١٠٠).

أحدهما: أنه التسلط، ثم فيه ثلاثة أقوال:

أ- ليس له عليهم سلطان بحال؛ لأن الله صرف سلطانه عنهم بقوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[١].

ب- ليس له عليهم سلطان؛ لاستعاذتهم منه.

ج- ليس له قدرة على أن يحملهم على ذنب لا يغفر[٢]، روي ذلك عن سفيان الثوري رحمه الله[٣].

ثانيهما: أنه الحجة، فالمعنى: ليس له حجة على ما يدعوهم إليه من المعاصي[٤].

وقال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّجْوَىٰ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[٥]. فتذييل الآية بالتوكل، مشعر بحماية الله لعبده المؤمن، من كيد أعدائه، وعلى رأسهم الشيطان الرجيم؛ لأن من توكل على الله كفاه كيد الأعداء، وكفاه أمور دينه ودنياه.

وفي السنن: عن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «**من قال إذا خرج من بيته: بسم الله توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له:**

---

(١) سورة الحجر، الآية: (٤٢).

(٢) زاد المسير (٤/ ٣٥٨).

(٣) رواه ابن جرير في التفسير (١٤/ ١١٧)، وابن أبي الدنيا في التوكل على الله، ح: (٢٤)، ص(٦)، وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٧٦).

(٤) زاد المسير (٤/ ٣٥٨).

(٥) سورة المجادلة، الآية: (١٠).

هُديت ووُقيت وكُفيت، فيقول الشيطان لشيطان آخر: كيف لك برجل قد هدي ووقي وكفى!»[١].

١١- من أسباب دفع السحر والحسد والعين:

حيث عَدَّد الحافظ ابن القيم، الأسباب التي يندفع بها شر الحاسد، والعائن والساحر والباغي، فقال: "السبب الرابع: التوكل على الله؛ فمن توكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الاسباب التي يدفع بها العبد، ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، وهو من أقوى الأسباب في ذلك، ومن كان الله كافيه وواقيه، فلا مطمع لعدوه ولا يضره إلا أذى لابد منه؛ كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده، فلا يكون أبدًا"[٢].

ومما يدل على ذلك: أن يعقوب عليه السلام، لما نهى أبناءه أن يدخلوا من باب واحد، وأمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة؛ ذكر بعض المفسرين، أن ذلك مخافة عليهم من العين[٣]. ثم ذيل ذلك بتوكله على الله تعالى؛ لأنه الكافي من كل حاسد وعائن، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ

(١) تقدم تخريجه قريبًا، ص (١١٥).

(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٢٦٧).

(٣) وقيل غير ذلك. انظر: زاد المسير (٤/ ١٩٢).

وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾[١].

قال الإمام الطبري: "ذكر أنه أمرهم بالدخول من أبواب متفرقة؛ لأنهم كانوا رجالاً لهم جمال وهيبة، فخاف عليهم العين"[٢]. ذكره عن ابن عباس والضحاك وقتادة، وغيرهم[٣].

وقال القاضي أبو بكر ابن العربي: "المسألة الأولى: في أمره لهم بالتفرق، وفي ذلك أقوال؛ أظهرها: أنه تُقَاةُ العين..."[٤].

فيعقوب عليه السلام، اتخذ الأسباب الحسية والمعنوية، الواقية من شر ذلك البلاء؛ فأمرهم بالتفرق، والدخول مع الأبواب، وهذا سبب من أسباب الدفع، ثم بين أن الأمر كله بيد الله، وأنه لا يملك من الله من شيء، في جلب نفع أو دفع ضر، ثم اتخذ السبب الأهم؛ وهو التوكل على الله سبحانه وتعالى، في حفظهم وكفايتهم، والله تعالى أعلم.

وهذه الفقرة، وإن كانت داخلة في الفقرة الرابعة، كما يمكن أن تدخل في العاشرة، إلا أني أحببت إفرادها بالذكر؛ لأهميتها، وهي من ذكر الخاص بعد العام.

---

(١) سورة يوسف، الآية: (٦٧).

(٢) تفسير ابن جرير (١٣/ ١٣).

(٣) انظر: الدر المنثور للسيوطي (٤/ ٥٥٧).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٩٢).

١٢- يورث الرزق:

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾[١]. وقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾[٢].

قال شيخ الإسلام: "فعقَّب هذا الجزاء والحكم، لذلك الوصف والعمل؛ بحرف الفاء، وهي تفيد السبب، فدل ذلك: على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب، بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء، جزاء على ذلك العمل"[٣].

والمعنى: "أي: لما توكلوا على الله كفاهم ما أهمهم، ورد عنهم بأس من أراد كيدهم، فرجعوا إلى بلدهم ﴿ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ ﴾. مما أضمر لهم عدوهم، ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾. "[٤].

والمراد بـ: (النعمة)، فيما روي عن ابن عباس: أنهم سلموا. و(الفضل): أن عيرًا مرت وكان في أيام الموسم، فاشتراها رسول الله ﷺ، فربح فيها مالاً،

---

(١) سورة الطلاق، الآيتان: (٢، ٣).

(٢) سورة آل عمران، الآيتان: (١٧٣، ١٧٤).

(٣) تحقيق التوكل، ص(١٠٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

فقسمه بين أصحابه[١]. وقيل غير ذلك[٢]. والآيات في ذكر يوم حمراء الأسد بعد أحد[٣].

ومما يدل على أن التوكل على الله تعالى، من أعظم أسباب المكاسب وتحصيل الأرزاق، ما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتروح بطانًا**»[٤].

قال أبو حاتم الرازي: "هذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق"[٥].

١٣ - يطرد داء العجب والكبر[٦]:

إن من أعظم الأمراض الفتاكة التي تصيب القلوب، فتحبط أعمالها، وتفسد نياتها، وتورثها القسوة والوحشة؛ هما: الرياء والعجب.

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٨).

(٢) انظر: زاد المسير (٢/ ٥٨).

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ١٤٣).

(٤) رواه الإمام أحمد (١/ ٣٠، ٥٢)، وابن المبارك في الزهد (٥٥٩)، والترمذي في الزهد، باب: في التوكل على الله، ح: (٢٣٤٤)، (٤/ ٥٧٣). وقال: "حسن صحيح، لانعرفه إلا من هذا الوجه". وابن ماجه في الزهد، باب: التوكل واليقين، ح: (٤١٦٤)، (٢/ ١٣٩٤)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب، ح: (١١٨٢، ١١٨٣)، (٢/ ٦٦)، وأبو نعيم في الحلية (١٠/ ٦٩)، وغيرهم.

(٥) ينظر: جامع العلوم والحكم، ص (٤٠٩).

(٦) ذكر العلامة السفاريني، فرقًا دقيقًا بين العجب والكبر. انظره في: غذاء الألباب (٢/ ٢٢٢).

والرياء: من باب الإشراك بالخلق. والعجب: من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المتكبر[١].

وقد ورد ذمهما في نصوص كثيرة؛ منها: قوله ﷺ، في حديث حارثة بن وهب: «**ألا أخبركم بأهل النار: كل عُتُل[٢] جواظ[٣] مستكبر**»[٤].

وعن ابن مسعود عن النبي ﷺ، قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»[٥]. وعنه ﷺ، أنه قال: «**ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه**»[٦]. وغيرها.

قال سعيد بن جبير: "إن العبد ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ وذلك أنه يعمل الحسنة، فتكون نصب عينيه ويعجب بها، ويعمل السيئة فتكون نصب عينيه، فيستغفر الله ويتوب إليه منها"[٧].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

(٢) العتل: الشديد الجافي، والفظ الغليظ من الناس. النهاية (٣/ ١٨٠).

(٣) الجواظ: الجموع المنوع. وقيل: كثير اللحم المختال في مشيته. وقيل: القصير البطين. النهاية (١/ ٤١٦).

(٤) رواه البخاري في التفسير، تفسير سورة القلم، ح: (٤٩١٨)، (٨/ ٥٣٠)، ومسلم في الجنة، باب: النار يدخلها الجبارون، ح: (٢٨٥٣)، (٤/ ٢١٩٠)، والترمذي في: جهنم، باب (١٣)، وابن ماجه في الزهد (٤)، وأحمد في المسند (٢/ ١٦٩، ٢١٤)، (٤/ ١٧٥، ٣٠٦).

(٥) رواه مسلم في الإيمان، باب: تحريم الكبر وبيانه، ح: (٩١)، (١/ ٩٣)، والترمذي في البر والصلة، باب: ما جاء في الكبر، ح: (١٩٩٨، ١٩٩٩)، (٤/ ٣٦٠-٣٦١).

(٦) قال المنذري في الترغيب والترهيب (١/ ١٦٢): "رواه البزار والبيهقي وغيرهما". وحسنه لطرقه. وحسنه الألباني في الصحيحة، ح: (١٨٠٢).

(٧) ينظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٥، ٢٩٤).

وعلاج هذين المرضين الخبيثين؛ هو في تحقيق العبودية والتوكل.

قال شيخ الإسلام: "فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾. والمعجب لا يحقق: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج من الإعجاب"[(١)].

ولهذا قال ابن القيم رحمه الله: "إن القلب يعرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد، ترامیا به إلى التلف ولابد؛ وهما: الرياء والكبر، فدواء الرياء بـ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ودواء الكبر بـ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾"[(٢)].

١٤- يطرد التطير والأمراض القلبية:

والأصل في ذلك قول ابن مسعود رضي الله عنه: (وما من إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل). بعد أن ذكر حديث النبي ﷺ: «**الطيرة شرك**»[(٣)]. وسيأتي

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٧).

(٢) مدارج السالكين (١/ ٥٤).

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠)، وأبو داود في الطيرة، ح: (٣٨٩٢)، عون (١٠/ ٤٠٥)، والترمذي في البر، باب: ما جاء في الطيرة، ح: (١٦١٤)، (٤/ ١٦٠)، وقال: "حسن صحيح، لا نعرفه إلا من حديث سلمة بن كهيل". ورواه ابن ماجه في الطب، باب: من كان يعجبه الفأل، ويكره الطيرة، ح: (٣٥٣٨)، (٢/ ١١٧٠)، وابن حبان في صحيحه ـ الموارد ـ، ح: (١٤٢٧)، ص (٣٤٥)، والحاكم في المستدرك (١/ ١٧، ١٨)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا.

وقوله: "وما منا إلا...". مدرجة من كلام ابن مسعود، كما نص على ذلك سليمان بن حرب، شيخ البخاري، كما في الترمذي (٤/ ١٦٠)، وابن حبان كما في الموارد، ص (٣٤٥)، وابن القيم في مفتاح دار السعادة، ص (٥٨٨)، وغيرهم. انظر: النهج السديد، ح: (٣٢٧)، ص(١٦٢).

تفصيل ذلك؛ عند الحديث عن قوادح التوكل؛ ومنها: الطيرة[١].

١٥- يورث الرضا بالقضاء:

قبل الحديث عن ثمرة التوكل في الرضا بما قضاه الله تعالى وقدره، يحسن الإشارة إلى حكم الرضا بالقضاء، هل هو واجب أم لا؟

فقالت طائفة: بوجوب الرضا بما قدره الله تعالى؛ "فأوجبت قبوله من غير تفصيل، وظنوا أن كل ما كان مخلوقًا للرب تعالى، فهو مقضي مرضي له، ينبغي له الرضا به، ثم انقسموا على فرقتين:

فقالت فرقة: إذا كان القضاء والرضا متلازمين، فمعلوم أنَّا مأمورون ببغض المعاصي والكفر والظلم، فلا تكون مقضية مقدرة"[٢]. وهؤلاء هم القدرية النفاة، وتبعهم في ذلك المعتزلة.

"وفرقة قالت: قد دَلَّ العقل والشرع؛ على أنها واقعة بقضاء الله وقدره، فنحن نرضى بها"[٣]، وهم القدرية المثبتة والجبرية. وتبعهم في ذلك كثير من الصوفية وبعض المتكلمين.

"والطائفتان منحرفتان جائرتان عن قصد السبيل؛ فأولئك أخرجوها عن قضاء الرب وقدره، وهؤلاء رضوا بها ولم يسخطوها.

هؤلاء خالفوا الرب تعالى في رضاه وسخطه، وخرجوا عن شرعه ودينه،

---

(١) ص (٢٢٨).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١٨٩).

(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٨٩).

وأولئك أنكروا تعلق قضائه وقدره بها"[١].

ولذلك كان منشأ الضلال عند الفرق في القدر؛ التسوية بين القضاء والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا على ما ذكر أعلاه.

أما الطائفة الثانية، فقالت: إنه لم يقم دليل من الكتاب والسنة ولا الإجماع، على جواز الرضا بكل قضاء، فضلاً عن وجوبه واستحبابه، فأين أمَرَ اللهُ عباده أو رسوله، أن يرضوا بكل ما قضاه الله وقدره؟

قال ابن القيم: "وهذه طريقة كثير من أصحابنا وغيرهم، به أجاب القاضي أبو يعلى، وابن الباقلاني"[٢].

والراجح من ذلك: التفصيل؛ لأن الرضا بالقضاء قد يكون واجبًا، وقد يكون مستحبًا، أو مباحًا يستوي فيه الطرفان، أو محرمًا يعاقب عليه، وذلك على النحو التالي:

أ – فالرضا بالقضاء الديني الشرعي واجب، وهو أساس الإسلام وقاعدة الإيمان، فيجب أن يكون العبد راضيًا بلا حرج، ولا منازعة ولا معارضة ولا اعتراض، قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٣]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٨٩).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١٩٠).

(٣) سورة النساء، الآية: (٦٥).

يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[1].

ب- والرضا بالقضاء الكوني القدري، الموافق لمحبة العبد وإرادته ورضاه، من الصحة والغنى والعافية واللذة، فهذا أمر لازم بمقتضى الطبيعة؛ لأنه ملائم للعبد محبوب له، فليس في الرضا به عبودية؛ بل العبودة في مقابلته بالشكر والاعتراف بالمنة، فالنعم يجب شكرها، ومن تمام شكرها الرضا بها.

ج- والرضا بالقضاء الكوني القدري، الجاري على خلاف مراد العبد ومحبته، مما لا يلائمه، ولا يدخل تحت اختياره، فهذا مستحب، وهو من مقامات أهل الإيمان. وفي وجوبه قولان؛ وهذا كالغنى والفقر وأذى الخلق له، والحر والبرد والآلام، ونحو ذلك.

قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾[2]. قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويُسَلِّم"[3].

د- والرضا بالقدر الجاري عليه باختياره، مما يكرهه الله ويسخطه وينهى عنه؛ كأنواع الظلم والفسوق والعصيان، فهذا حرام الرضا به، ويعاقب عليه؛ لأنه مخالف لأمر الله تعالى[4].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: (٣٦).

(٢) سورة التغابن، الآية: (١١).

(٣) رواه ابن جرير الطبري في التفسير، (٢٨/ ١٢٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير، (٨/ ١٦٣).

(٤) انظر هذا التفصيل بتوسع في مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٠)، ومدارج السالكين (٢/ ١٨٨، ١٩٣). وانظر: شفاء العليل لابن القيم أيضًا، ص (٥٨٠-٥٨١). وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب، للسفاريني، (٢/ ٥٣٢).

ولا شك أن الرضا بالقضاء المحمود المعني هنا، والذي هو ثمرة من ثمار التوكل على الله، هو النوع الثالث؛ لأن الأول شرط في دخول الإنسان الإسلام، فلا يكون مسلمًا، إلا إذا رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا.

أما الثاني: فهو من مقتضيات الطبيعة البشرية، لا يلحق صاحبه مدح ولاذم.

أما الرابع: فهو محرم لا يجوز الرضا به بحال.

ولذلك قال ابن رجب الحنبلي رحمه الله: "اعلم أن ثمرة التوكل؛ الرضا بالقضاء، فمن وكل أموره إلى الله، ورضي بما يقضيه له، فقد حقق التوكل"[١].

وعلى كل حال؛ فقضاء الرب ـ سبحانه ـ في عبده، دائر بين العدل والمصلحة، والحكمة والرحمة، لا يخرج عن ذلك ألبتة[٢]، وهذا القضاء خير للمؤمن في كل حال؛ كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن...**»[٣].

قال العلامة ابن القيم: "فسألت شيخنا: هل يدخل في ذلك قضاء الذنب؟ فقال: نعم بشرطه. فأجمل في لفظه: بشرطه، ما يترتب على الذنب

---

(١) جامع العلوم والحكم، ص (٤١٤).

(٢) الفوائد، ص(٨٦).

(٣) رواه مسلم في الزهد، باب: المؤمن أمره كله خير، ح: (٢٩٩٩)، (٤/ ٢٢٩٥)، وأحمد في المسند (٤/ ٣٣٢، ٣٣٢) و (٦/ ١٥).

من الآثار المحبوبة لله؛ من التوبة والانكسار، والندم والخضوع، والذل والبكاء، وغير ذلك"[١].

١٦- سبب في دخول الجنة، بلا حساب ولا عذاب:

والأصل في هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما، الذي رواه البخاري ـ واللفظ له ـ ومسلم ـ وفيه قصة ـ وغيرهما، عن عمران بن حصين رضي الله عنهما، قال: (لا رُقْيَةَ إلاَّ من عَيْنٍ أو حُمَةٍ). قال الراوي: فذكرته لسعيد بن جبير، فقال: حدثنا ابن عباس: قال رسول الله ﷺ: «**عُرضت عليّ الأمم، فجعل النبي والنبيان يمرون معهم الرهط، والنبي وليس معه أحد، حتى رُفع لي سواد عظيم، قلت: ما هذا؟ أمتي هذه؟! قيل: بل هذا موسى وقومه. قيل: انظر في الأفق؛ فإذا سواد يملأ الأفق؟ ثم قيل لي: انظر ها هنا وهاهنا ـ في آفاق السماء ـ فإذا سواد قد ملأ الأفق، قيل: هذه أمتك، ويدخل الجنة من هؤلاء سبعون ألفًا بغير حساب**».

ثم دخل ولم يبين لهم، فأفاض القوم، وقالوا: نحن الذين آمنوا بالله، واتبعنا رسوله، فنحن هم، ثم أولادنا الذين ولدوا في الإسلام، فإنا ولدنا في الجاهلية، فبلغ النبي، فخرج فقال: «**هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، ولا يكتوون، وعلى ربهم يتوكلون**». فقال عكاشة بن محصن: أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال: «**نعم**». فقام آخر: أمنهم أنا؟ قال: «**سبقك بها عكاشة**»[٢].

---

(١) الفوائد، ص (٨٧).

(٢) رواه البخاري في الطب، باب: من اكتوى أو كوى غيره، وفضل من لم يكتو، ح: (٥٧٠٥)،

قال الحافظ ابن حجر: "اتفق على ذكر هذه الأربع معظم الروايات، حديث في ابن عباس، وإن كان عند البعض تقدير وتأخير، وكذا في حديث عمران بن حصين عند مسلم..."[١]. وقال: "قوله: «وعلى ربهم يتوكلون». يحتمل أن تكون هذه الجملة مفسرة لما تقدم؛ من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة، ويحتمل أن تكون من العام بعد الخاص؛ لأن صفة كل واحدة منها صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك"[٢].

فجعل النبي ﷺ لهؤلاء السبعين ألفًا، ميزة وخاصية دون سائر المسلمين؛ وهي دخولهم الجنة بلا حساب ولا عذاب؛ وعلل ذلك بأنه من أجل كمال تحقيقهم التوكل؛ إذ تركوا الاسترقاء والتطير والاكتواء، فنالوا بهذا التحقيق هذه الميزة.

وسيأتي تفصيل هذه المسائل، فيما بعد إن شاء الله تعالى.

(الفتح ١٠/ ١٦٤)، وفي الطب، باب: من لم يرق، ح: (٥٧٥٢)، (الفتح ١٠/ ٢٢٢)، وفي الرقاق، باب: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾. ح: (٦٤٧٢)، (الفتح ١١/ ٤١٣)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب: الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة، بغير حساب ولا عذاب، ح: (٢٢٠)، (١/ ١٩٩)، والترمذي في القيامة، باب: (١٦)، ح: (٢٤٤٦)، (٤/ ٦٣١)، وأحمد في المسند (١/ ٢٧١، ٤٠١، ٤٠٣، ٤٥٤)، (٤/ ٤٣٦، ٤٤١، ٤٤٣)، وغيرهم.

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٦).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٧).

الفصل الخامس

أقسام التوكل

الفصل الخامس

أقسام التوكـــل

التوكل ينقسم بحسب المتوكَّل عليه إلى قسمين؛ توكل على الله تعالى، وتوكل على غيره، وتحت كل قسم من هذين القسمين، عدة أنواع:

أولاً: التوكل على الله تعالى:

وهذا ينقسم بحسب موضوعه إلى أربعة أقسام:

١- توكل على الله تعالى في استقامة نفسه وهدايتها، وتجريد التوحيد، والالتزام بدين الله تعالى ظاهرًا وباطنًا، دون أن يحاول التأثير في الآخرين، بمعنى: التوكل على الله في إصلاح نفسه، دون النظر إلى غيره.

٢- توكل على الله تعالى في استقامة النفس كما تقدم، بالإضافة إلى التوكل عليه تعالى في إقامة دين الله في الأرض، ودفع الفساد، وقمع البدع، وجهاد الكفار والمنافقين، والاهتمام بمصالح المسلمين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتأثير في الآخرين، حتى يعبد الله وحده. وهذا توكل الأنبياء، وتوكل ورثتهم من بعدهم من العلماء، وهذا أعظم أنواع التوكل وأنفعها[1].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: "واعلم: أن الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ توكلهم في أعلى المطالب وأشرف المراتب. وهو التوكل على الله في إقامة دينه ونصره، وهداية عبيده، وإزالة الضلال عنهم، وهذا أكمل ما

(١) انظر: معالم التوحيد، ص (٨٠).

يكون من التوكل"[١].

فأفضل التوكل: "التوكل في الواجب؛ فأعني واجب الحق، وواجب الخلق، وواجب النفس، وأوسعه وأنفعه: التوكل في التأثير في الخارج في مصلحة دينية، أو دفع مفسدة دينية؛ وهو توكل الأنبياء في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين، وهذا توكل ورثتهم"[٢].

٣- توكل على الله في جلب حوائج العبد، وحظوظه الدنيوية، أو دفع مكروهاته ومصائبه الدنيوية، كما يتوكل في حصول رزق، أو عافية، أو زوجة، أو ولد، أو نصر على عدو، ونحو ذلك، فهذا تحصل له الكفاية فيما توكل عليه فيه، في الدنيا دون الآخرة، إلا إذا نوى الاستعانة بذلك على طاعة الله عز وجل.

قال العلامة ابن القيم: "وبين النوعين ـ يعني الثاني والثالث ـ من الفضل ما لا يحصيه إلا الله، فمتى توكل عليه العبد ـ في النوع الثاني ـ حق توكله، كفاه الله ـ النوع الثالث ـ تمام الكفاية، ومتى توكل عليه في النوع الثالث دون الثاني، كفاه أيضًا، لكن لا يكون له عاقبة المتوكل عليه، فيما يحبه ويرضاه"[٣].

٤- توكل على الله في جلب محرم، أو دفع مأمور به.

فهناك من يتوكل على الله في حصول الإثم والفواحش؛ "فإن أصحاب

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١١).

(٢) مدارج السالكين (٢/ ١١٤).

(٣) الفوائد، ص(٧١).

هذه المطالب لا ينالونها غالبًا إلا باستعانتهم بالله، وتوكلهم عليه؛ بل قد يكون توكلهم أقوى من توكل كثير من أصحاب الطاعات، ولهذا يلقون أنفسهم في المتالف والمهالك، معتمدين على الله أن يسلمهم ويظفرهم بمطالبهم"[١].

فهؤلاء يحصل مطلوبهم غالبًا، لكنهم آثمون مجزيون عليه في الآخرة، وهذا النوع ظاهر فيمن كانت معاصيهم ناتجة عن تأويل فاسد، أو شبهة مضلة، ويدخل فيه "حال كثير من أهل التوجهات الفاسدة، أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله؛ فإنهم يُعانُوْن على هذه الأمور، وكثير منهم يستعين الله عليها، لكن لما لم تكن موافقة لأمر الله ورسوله، حصل لهم نصيب من العاجلة، وكانت عاقبتهم عاقبة سيئة"[٢]. نعوذ بالله من الخذلان.

فهذه أقسام التوكل على الله تعالى بحسب موضوعه، ولا شك أن أفضلها وأتمها وأهمها؛ هو النوع الثاني، ويدخل فيه النوع الأول تضمنًا، ثم يليه الثالث، وأشرها آخرها. والعياذ بالله.

ثم إن كثيرًا من المتوكلين مغبون في توكله، وإن كان قد توكل على الله حق التوكل؛ "كمن صرف توكله إلى حالة جزئية، استفرغ فيها قوة توكله، ويمكنه فعلها بأيسر شيء، وتفريغ قلبه للتوكل في زيادة الإيمان والعلم،

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١١٣-١١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٧٦). وانظر تفسير ذلك في (١٣/ ٣٢٤) فما بعدها.

ونصرة الدين، والتأثير في العالم خيرًا، فهذا توكل العاجز القاصر الهمة؛ كما يصرف بعضهم همته وتوكله ودعاءه، إلى وجع يمكن مداواته بأدنى شيء، أو جوع يمكن زواله بنصف رغيف، أو نصف درهم، ويدع صرفه إلى نصرة الدين، وقمع المبتدعين، وزيادة الإيمان، ومصالح المسلمين. والله أعلم"[١].

فالناس متفاوتون ومغبونون، حتى فيما يتوكلون عليه فيه، من مصالح الدنيا على حسب هممهم ومقاصدهم، "فمن متوكل على الله في حصول الملك، ومن متوكل عليه في حصول رغيف"[٢].

وإذا كان الأمر كذلك؛ فالواجب على العاقل ألا يشغل نفسه وقلبه إلا بالأكمل والأفضل؛ وهو التوكل على الله تعالى، في تحصيل ما يحبه ويرضاه، كما قال الشاعر:

وَإِذَا عَلِمْتَ بِأَنَّه[٣] مُتَفَاضِلٌ ... فَاشْغِلْ فُؤَادَكَ بِالَّذِي هُو أَفْضَلُ

ثانيًا: التوكل على غير الله تعالى:

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين:

١ - التوكل الشركي: وهو على نوعين أيضًا:

أ- التوكل على غير الله تعالى، في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله عز وجل؛ "كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم، من

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٢٥-١٢٦).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ١١٣).

(٣) والشاعر هنا يقصد العلم، لا التوكل.

النصر والحفظ والرزق والشفاعة؛ فهذا شرك أكبر، فإن هذه الأمور ونحوها، لا يقدر عليها إلا الله تبارك وتعالى"[١].

ويسمى هذا النوع، توكل السرّ؛ "لأنه لا يقع إلا ممن يعتقد أن لهذا الميت تصرفًا سريًا في الكون، ولا فرق بين أن يكون نبيًا، أو وليًا، أو طاغوتًا عدوًا لله تعالى"[٢].

ب- التوكل على غير الله في الأمور التي يقدر عليها ـ فيما يظن ـ المتوكل عليه. وهذا شرك أصغر[٣]. وذلك كـ "التوكل في الأسباب الظاهرة العادية؛ كمن يتوكل على أمير أو سلطان، فيما جعله الله بيده من الرزق، أو دفع الأذى، ونحو ذلك، فهذا شرك خفي"[٤]. ولذلك قيل: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد؛ لقوة تعلق القلب به والاعتماد عليه.

وذلك "لأن القلب لا يتوكل إلا على من يرجوه، فمن رجا قوته أو عمله أو علمه، أو حاله أو صديقه أو قرابته، أو شيخه أو ملكه أو ماله، غير ناظر إلى الله؛ كان فيه نوع توكل على ذلك السبب، وما رجا أحد مخلوقًا أو توكل عليه، إلا خاب ظنه فيه، فإنه شرك"[٥]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ

(١) تيسير العزيز الحميد، ص (٤٩٧-٤٩٨).

(٢) مجموع فتاوى ورسائل الشيخ ابن عثيمين (٦/ ٥٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد، ص(٤٠).

(٤) المصدر نفسه، ص (٤٩٨).

(٥) مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/ ٢٥٧).

مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾[١].

قال شقيق البلخي: "لكل واحد مقام؛ فمتوكل على ماله، ومتوكل على نفسه، ومتوكل على لسانه، ومتوكل على سيفه، ومتوكل على سلطته، ومتوكل على الله عز وجل.

فأما المتوكل على الله عز وجل؛ فقد وجد الِاسْتِرْوَاحَ، نَوَّه الله به ورفع قدره، وقال: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾[٢]. وأما من كان مُستروحًا إلى غيره، يُوشك أن ينقطع به فيشقى"[٣].

أما لو اتخذه باعتباره أنه سبب، وأن الله تعالى هو الذي قدر ذلك على يده، فإن ذلك لا بأس به، إذا كان للمتوكِّل عليه أثر صحيح في حصوله.

ومن شرك الألفاظ المتعلقة بهذا الموضوع: قول الشخص: توكلت عليك يا فلان، فهذا لا يجوز، وقد سئل عنها الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ فقال: "هذا شرك. أما التوكيل فيجوز؛ لأنه استنابة"[٤]. وهو المراد بالوكالة الجائزة التالي ذكرها.

وكذلك لا يجوز أن يقال: أنا متوكل على الله وفلان. وهو على نحو ما

---

(١) سورة الحج، الآية: (٣١).

(٢) سورة الفرقان، الآية: (٥٨).

(٣) رواه البيهقي في الشعب، ح: (١٢٩٧)، (٢/ ١٠٥)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٦١).

(٤) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ١٧٠) ط: الأولى، عام: ١٣٩٩هـ، مطبعة الحكومة بمكة.

ورد عن النبي ﷺ، من النهي عن قول: ما شاء الله وشئت[١].

بل لا يجوز أن يقال: أنا متوكل على الله ثم عليك، كما يجوز في المشيئة؛ لأن التوكل كله عبادة[٢].

وقد سئل الشيخ محمد بن إبراهيم ـ رحمه الله ـ عن ذلك، فقال: "شرك. يقول: موكلك. ولا يقول: موكل الله ثم موكلك على هذا الشيء. هذه عامية وليس في محلها"[٣].

٢- الوكالة الجائزة:

وهي: أن يوكل الإنسان غيره في فعل مقدور عليه؛ فيحصل للموكِّل بذلك بعض مطلوبه.

والوَكَالة هنا ـ هي بفتح الواو، وقد تكسر ـ بمعنى: التفويض والحفظ. تقول: وكلت فلانًا؛ إذا استحفظته، ووكَلْت الأمر إليه ـ بالتخفيف ـ إذا فوضته إليه.

وهي في الشرع: إقامة الشخص غيره مقام نفسه، مطلقًا أو مقيدًا[٤].

والوكالة بهذا المعنى جائزة، بالكتاب والسنة والإجماع[٥].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٨٣، ٢٤٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٧٨٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة ـ كما في تحفة الأشراف ـ (٥/ ٢٦٩)، وابن ماجه بنحوه، في الكفارات، (١/ ٧٦٨٤)، وغيرهم. وإسناده حسن.

(٢) معجم المناهي اللفظية، للشيخ بكر أبو زيد، ص (٨٣). وانظر: ص (١٢٩).

(٣) فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ١٧٠).

(٤) فتح الباري (٤/ ٥٥٩)، (٥/ ٢٠١).

(٥) انظر: المغني والشرح الكبير (٥/ ٢١٠).

قال تعالى على لسان يعقوب ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ مخاطبًا بنيه: ﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾[١].

ووكل رسول الله ﷺ عمالاً حفاظًا، قال أبو هريرة رضي الله تعالى عنه: وكّلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان... الحديث[٢]. ووكل ﷺ في إثبات الحدود وإقامتها، كما في حديث أنيس[٣]، ووكل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في هديه في حجة الوداع؛ بأن يتصدق بجلودها وجلالها، وأن ينحر ما بقي من المائة، بعد أن نحر بيده ﷺ، ثلاثًا وستين.

وتفصيل أحكام الوكالة في كتب الفقه[٤].

لكن "ليس له أن يتوكل عليه، وإن وكّله؛ بل يعتمد على الله تعالى في تيسير ما وكّله فيه"[٥]؛ "لأن المخلوق لا يستقل بجميع حاجات العبد، ولا يستطيع تحصيل مطالبه كلها، ولا يستطيع أن يفعل شيئًا للذي وكّله، إلا بمشيئة الله عز وجل وقدرته"[٦].

---

(١) سور يوسف، الآية: (٨٧).

(٢) رواه البخاري في الوكالة، باب: إذا وكل رجلاً فترك الوكيل شيئًا، فأجازه الموكل، فهو جائز، ح: (٢٣١١)، الفتح (٤/ ٥٦٨).

(٣) رواه البخاري في الوكالة، باب: الوكالة في الحدود، ح: (٢٣١٤، ٢٣١٥)، ومسلم في الحدود، باب: من اعترف على نفسه بالزنى، ح: (١٦٩٧، ١٦٩٨). من حديث: أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني، رضي الله عنهما.

(٤) باب: "الوكالة".

(٥) رسالة تحقيق التوكل، لشيخ الإسلام، ص (٨٩)، ضمن جامع الرسائل.

(٦) المصدر نفسه، ص (٨٩).

الفصل السادس

الأسباب وعلاقتها بالتوكـــل

الفصل السادس

الأسباب وعلاقتها بالتوكل

تعريف السبب:

السبب لغة: الحبل، وما يتوصل به إلى غيره، واعتلاق قرابة. والجمع: أسباب[١]، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ﴾[٢]. أي: فليصعدوا إلى السماء[٣]. قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة، وغيرهم: يعني: طرق السماء[٤].

وقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾[٥]. ومعناه: أن الله تعالى آتاه من كل شيء معرفة وذريعة، يتوصل بها، فأتبع واحدًا من تلك الأسباب[٦].

وقال أبو عبيدة: "هو: الحبل الذي يتوصل به إلى الماء، ثم استعير لكل ما

---

(١) الكليات: معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الكفوي، (ت١٠٩٤هـ) ص (٥٠٣). وانظر: المفردات للراغب، ص (٢٢٠)، ولسان العرب مادة: (س ب ب)، (١/ ٤٥٨).

(٢) سورة ص، الآية: (١٠).

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية (١٢/ ٤٢٦).

(٤) ينظر: تفسير ابن كثير (٧/ ٤٨)، زاد المسير (١/ ٣٢١).

(٥) سورة الكهف، الآيتان: (٨٤، ٨٥).

(٦) المفردات للراغب، ص (٢٢٠).

يتوصل به إلى شيء؛ كقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[١]. أي: الوُصل والمودات"[٢].

وقال القرطبي: "أصل السبب: الحبل يشد بالشيء فيجذبه، ثم جعل كل ما جر شيئًا سببًا"[٣].

ومن معانيه: القرابة بالزواج غير النسب، كما في الحديث: «**كل سبب ونسب منقطع، غير سببي ونسبي**»[٤]. فالنسب بالولادة، والسبب بالزواج[٥].

وفي الشريعة: "عبارة عما يكون طريقًا للوصول إلى الحكم غير مؤثر فيه"[٦]. وقيل: "ما يكون طريقًا إلى الشيء، من غير أن يضاف إليه وجود، ولا وجود"[٧].

---

(١) سورة البقرة، الآية: (١٦٦).

(٢) ينظر: لسان العرب (١/ ٤٥٨)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٢٩).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٢/ ٢٠٦).

(٤) رواه الحاكم في المستدرك (٣/ ١٤٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٧/ ٦٤) و (٧/ ١١٤)، والطبراني في الكبير ح: (٢٦٣٤)، (٣/ ٣٦). عن عمر بن الخطاب.

ورواه الطبراني ح: (١١٦٢١) (١١/ ٢٤٣) عن ابن عباس، والمسور بن مخرمة، رضي الله عنهم.

والحديث أخرجه الآجري في الشريعة، من عدة طرق عن هؤلاء الثلاثة، ح: (١٧١٠-١٧١٤)، (٥/ ٢٢٢٧-٢٢٣٢)، بأسانيد لا تخلو من مقال، إلا أنها يشد بعضها بعضًا.

والحديث صححه الألباني رحمه الله، كما في صحيح الجامع الصغير، ح: (٤٤٠٣)، (٤/ ١٧٣).

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر (٢/ ٣٢٩).

(٦) الكليات، ص (٥٠٣). وانظر: التعريفات للجرجاني، ص (١٣١).

(٧) الكليات، ص (٥٠٣).

أو هو: "ما يلزم من وجوده الوجود، ويلزم من عدمه العدم لذاته"[١].

فالأول: احتراز من الشرط، فإنه لا يلزم من وجوده الوجود. والثاني: احتراز من المانع؛ لأنه لا يلزم من عدمه وجود ولا عدم. والثالث: "احتراز مما لو قارن السبب فقدان الشرط، ووجود المانع"[٢].

والمراد في هذه الفصل: هو ما كان طريقًا إلى الشيء، يتوصل به إليه، وليس المراد السبب بمعناه الخاص، في اصطلاح الأصوليين، الذي هو أحد أقسام الحكم الوضعي الخمسة.

وسنعرض ـ فيما يلي ـ إلى مواقف الناس من الأسباب، ووجهة نظر كل طائفة، مع التركيز على مفهوم الصوفية للتوكل، وشبهاتهم وتفنيدها، ثم بيان الحق في هذه المسألة، الذي دلت عليه الدلائل الشرعية، والعقلية، والفطرية، وعليه عمل سادات المتوكلين؛ من الأنبياء والمرسلين، ومن تبعهم من الصحابة والتابعين، وسائر الأئمة المعتبرين. ثم نتبعه ببعض المسائل المتعلقة بالموضوع، إن شاء الله تعالى.

مواقف الناس من الأسباب:

تختلف مواقف الناس من الأسباب إلى أربعة أقسام. وهذه المواقف دائرة بين الإفراط والتفريط والوسط، كما هو سائر جميع المسائل، التي يقع فيها الخلاف، فمن معتمد على الأسباب بالكلية، ومن معرض عنها ـ بزعمه ـ بالكلية، ومن نافٍ لتأثيرها في المسبب، ومن متوسط بين ذلك.

---

(١) لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٩).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٩).

وهذه الأقسام على ما يلي:

القول الأول: الالتفات إلى الأسباب بالكلية، واعتماد القلب والجوارح عليها، من غير نظر إلى مسبِّبها:

وهذا هو الذي عناه العلماء بأنه (شرك في التوحيد)؛ لأن الأسباب على ـ رأيهم ـ هي المسببة بذاتها، وهي الموجدة بنفسها، وهي الضارة والنافعة استقلالاً.

وهذه هي نظرة الماديين والعقلانيين قديمًا وحديثًا، ولذلك وقعوا في الشرك؛ لأنهم أثبتوا موجدًا مع الله تعالى، وخالفوا الشرع والحس، فقد دل الكتاب والسنة وإجماع الأمة؛ على أنه لا خالق إلا الله.

كما أننا نعلم بالشاهد المحسوس: أن الأسباب قد تتخلف عن مسبباتها بإذن الله، كما في تخلف إحراق النار لإبراهيم الخليل ـ عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام ـ حين ألقي فيها. فقال الله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ﴾[1]. فكانت بردًا وسلامًا عليه، ولم يحترق بها، فلم يتخلف المسبَّب مع وجود السبب وحسب، بل كان الأمر على عكس ذلك تمامًا، فكان مقابل الإحراق: البُرد، ومقابل الإيذاء: السلام.

والأمثلة على هذا أكثر من أن تحصر، والمتأمل في الواقع يجزم ببطلان هذا القول. والله أعلم.

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: (٦٩).

القول الثاني: الإعراض عن الأسباب بالكلية:

وهذا هو مفهوم غالب الصوفية للتوكل، فهم لا يرون تحقيق التوكل، إلا بالإعراض التام عن الأسباب؛ لأن الالتفات إليها ـ في زعمهم ـ منافٍ لحقيقة التوكل.

فهم يفهمون التوكل فهمًا سلبيًا، منافيًا للعمل والكسب، واتخاذ سائر الأسباب، ويرون القيام بشيء من ذلك، قدح في التوكل.

وقد جاءت تفسيراتهم للتوكل ـ وما نقل عنهم فيه ـ بعبارات غامضة، لايفهم منها إلا هذا المفهوم السلبي.

قال ذو النون المصري: "التوكل خلع الأرباب، وقطع الأسباب"[١].

وقال سهل بن عبدالله التستري: "التوكل: أن يكون العبد بين يدي الله ـ عز وجل ـ كالميت بين يدي الغاسل، يقلبه كيف يشاء، لا يكون له حركة ولا تدبير"[٢].

ويقول ابن عطاء: "التوكل: ألا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب، مع شدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق، مع وقوفك عليها"[٣].

---

(١) ينظر: الغنية للجيلاني (٢/ ٦٠٨)، شعب الإيمان للبيهقي، ح: (١٢٩١)، مدارج السالكين (٢/ ١١٥).

(٢) ينظر: الرسالة القشيرية، ص (١٢٩)، شعب الإيمان، ح: (١٣١١)، (٢/ ١٠٩) والغنية (٢/ ٦٠٨)، ومدارج السالكين (٢/ ١١٥).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١١٥).

لذلك فهم لا يرون تحقيق التوكل، إلا في ترك الأسباب بالكلية، وإن كان قد يعجز الإنسان ـ غالبًا ـ في الجانب التطبيقي، فيضطر إلى اتخاذ شيء من الأسباب. إلا أنهم يعتبرون ذلك خروجًا من عداد المتصوفة المتوكلين.

وهذا المفهوم السلبي المنحرف للتوكل، قد أدى بهم إلى انحرافات أخرى خطيرة؛ فتركوا التكسب، ورأوا أنه ينافي التوكل، ولذلك قال أبو عبدالله؛ محمد بن أحمد بن سالم البصري ـ تلميذ التستري ـ: "من أطاق التوكل؛ فالكسب غير مباح له...". قال: "ومن ضعف عن حال التوكل... أبيح له طلب المعاش من الكسب"[١].

ويروون عن أبي تراب النخشبي، أنه نظر إلى صوفي يمد يده إلى قشر بطيخ؛ ليأكله بعد ثلاثة أيام، فقال له: "لا يصلح لك التصوف؛ الزم السوق"[٢].

وقال أبو علي الروذباري: "إذا قال الفقير بعد خمسة أيام: أنا جائع، فألزموه السوق، ومروه بالكسب"[٣].

قال ابن الجوزي: "لو قال رجل للصوفية: من أين أطعم عيالي؟! لقالوا: قد أشركت! ولو سئل عمن يخرج إلى التجارة؟ لقالوا: ليس بمتوكل ولا موقن..." [٤].

---

(١) طبقات الصوفية، للسلمي (٤١٤-٤١٥).

(٢) الرسالة القشيرية، ص (١٣٤).

(٣) المصدر نفسه، ص (١٣٤).

(٤) تلبيس إبليس، ص (٢٨٢).

وقد جرهم هذا المفهوم إلى ترك الاحتراز، وعدم الاحتياط، واعتبروه منافيًا للتوكل، يقول أبو سليمان الداراني: "لو توكلنا على الله ما بنينا الحائط، ولا جعلنا لباب الدار غلقًا؛ مخافة اللصوص"[١].

قال الإمام أبو جعفر الطبري عنهم: "قالوا: لا يستحق اسم التوكل، إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالى، من سبع أو عدو، حتى يترك السعي في طلب الرزق، ثقة بضمان الله تعالى له رزقه...".

قال النووي معقبًا: "هو مذهب بعض المتصوفة، وأصحاب علم القلوب والإشارات"[٢].

كما جرهم إلى الخروج إلى البادية للسياحة، وإلى مكة للحج، بلا زاد ولا راحلة، ولا يدفعون عن أنفسهم ما يتعرضون له من آفات في الطريق؛ بدعوى أن ذلك ينافي التوكل. ولذلك ورد في سبب نزول قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾[٣]. ما رواه البخاري ـ وغيره ـ بإسناده إلى ابن عباس، قال: (كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس! فأنزل الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾)[٤].

---

(١) ينظر: حلية الأولياء (٩/ ٢٥٦)، وتلبيس إبليس، ص (٢٧٨).

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ٩١).

(٣) سورة البقرة، الآية: (١٩٧).

(٤) رواه البخاري في الحج، باب: قول الله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾، ح:

قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: "وفي هذا: أن الله تعالى أمر زوّار بيته بالتزود؛ فقال: ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾. يعني ـ والله تعالى أعلم ـ: فإن خير الزاد ما عاد على صاحبه بالتقوى"(١).

وقال الحليمي رحمه الله: "وهو ألا يتوكل على أزواد الناس، فيؤذيهم ويضيق عليهم، ومن دخل البادية بلا زاد متوكلاً؛ فإنما يرجو أن يقيِّض الله تعالى من يواسيه من زاده، وهذا عين ما أشارت الآية إلى المنع منه. فبان أنه لا معنى لاستحبابه، وإنما المستحب هو التزود أو الجلوس، إذا لم يكن زاد حتى يكون"(٢).

وقد أنكر الإمام أحمد على من فعل هذا، وبيَّن أنه متوكل على الناس لا على الله، فقد قال لرجل أراد الخروج إلى مكة من غير زاد، حينما قال له: يا أبا عبدالله، أنا متوكل، قال: فتدخل البادية وحدك أو مع الناس؟ قال: لا، مع الناس، قال: كذبت، لست بمتوكل، فادخل وحدك، وإلا فأنت متوكل على جُرُب الناس"(٣).

(١٥٢٣)، (الفتح ٣/ ٤٤٩)، وابن جرير الطبري في التفسير (٢/ ٢٧٨) وما بعدها، والخلال في الحث على التجارة والصناعة والعمل، ح: (١٠٣)، ص (١٤٧)، والبيهقي في السنن (٤/ ٣٣٢)، وفي الشعب، ح: (١١٩٨)، (٢/ ٧٥). وانظر: أسباب النزول للواحدي، ص (٤١)، ولباب النقول للسيوطي، ص(١٤٧).

(١) ينظر: شعب الإيمان (٢/ ٧٥).

(٢) المنهاج (٢/ ٧). وانظر: الشعب (٢/ ٧٥).

(٣) الحث على التجارة، ص (١٤٢).

وسئل سفيان بن عيينة رحمه الله، عن قوم يلبسون الشعر ويحجون، ولا يتزودون، ويزعمون أن من حمل الزاد فليس بمؤمن؟ فقال: "كذبوا، هؤلاء أعداء السنة، لا تجالسوهم، ولا تحدثوهم"[١].

وهذا القول ـ أعني: الإعراض عن الأسباب بالكلية ـ هو الذي حكم عليه العلماء بأنه "قدح في الشرع"؛ لأن الله تعالى أمرنا بالأسباب الشرعية ـ كما سيأتي بيانه ـ ورتب عليها الثواب والعقاب، على مقتضى علمه وحكمته تعالى، فإذا تركنا ما أمرنا الله تعالى به، وأعرضنا عنه؛ فقد وقعنا في المعصية، ومخالفة شرع الله تعالى.

وهذا المفهوم المنحرف للتوكل ليس عند كل الصوفية؛ فهذا سهل بن عبدالله التستري، من أئمة الصوفية الأوائل، يقول: "من قال: إن التوكل يكون بترك السبب، فقد طعن في سنة رسول الله ﷺ؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾[٢]. فالغنيمة: اكتساب.

وقد قال الله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾[٣]. فهذا عمل.

وينسب إلى النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله يحب العبد المحترف**»[٤]. وكان

---

(١) ينظر: الثقات لابن حبان (٨/ ٢٦٩).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٦٩). والأثر رواه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٠٣).

(٣) سورة الأنفال، الآية: (١٢).

(٤) الحديث أخرجه الطبراني في الكبير، ح: (١٣٢٠٠)، وابن عدي في الكامل (١/ ٣٦٩)، والقضاعي في مسند الشهاب، ح: (١٠٧٣)، وابن الجوزي في العلل المتناهية (٢/ ٩٩)، وقال: "هذا حديث لا يصح. قال هيثم: أبو الربيع كان يكذب، وقال الدارقطني: متروك".

أصحاب رسول الله ﷺ، يقرضون على السرية"[١].

ويقول: "من طعن في الاكتساب فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل فقد طعن في الإيمان"[٢].

ويقول أبو القاسم القشيري: "اعلم: أن التوكل محله القلب، وأما الحركة بالظاهر، فلا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن الثقة من قبل الله تعالى، فإن تعسر شيء فبتقديره، وإن تيسر فبتيسيره"[٣].

وقال الغزالي: "إن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها، شرك في التوحيد، والتثاقل عنها بالكلية طعن في السنة، وقدح في الشرع، والاعتماد على الاسباب، من غير أن ترى أسبابًا تغيير في وجه العقل وانغماس في غمرة الجهل"[٤].

ولذلك قال الإمام النووي: "وذهب المحققون منهم ـ أي: الصوفية ـ إلى نحو مذهب الجمهور"[٥].

وقد عللوا هذا المفهوم الخاطئ للتوكل، وحاولوا تبرير قعودهم وترك

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٨٩).

(٢) شعب الإيمان للبيهقي، ح: (١٢٨٩)، (٢/ ١٠٣). وانظر: التلبيس (٢٨١)، واللمع بلفظ مقارب (٢٥٩).

(٣) الرسالة القشيرية، ص (١٦٣)، ط: الثالثة، وشرح النووي على مسلم (٣/ ٩١). وانظر نحوه في الغنية للجيلاني (٢/ ٦٠٨).

(٤) الإحياء مع شرحه (٤/ ٢٤٣). وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥).

(٥) شرح صحيح مسلم (٣/ ٩١).

التكسب، ببعض الشبه الضعيفة، أشار إليها ابن الجوزي، وأجاب عليها؛ ومنها:

١- قالوا: "لابد من أن يصل إلينا رزقنا"[١].

ورد عليهم بقوله: "هذا في غاية القبح؛ لأن الإنسان لو ترك الطاعة، وقال: لا أقدر بطاعتي أن أغير ما قضى الله علي، فإن كنت من أهل الجنة فأنا إلى الجنة، أو من أهل النار فأنا من أهل النار، قلنا له: هذا يرد الأوامر كلها، ولو صح لأحد لم يخرج آدم من الجنة؛ لأنه كان يقول: ما فعلت إلا ما قضي عليّ، ومعلوم أننا مطالبون بالأمر لا بالقدر"[٢].

وهذا هو قول الجبرية، المخالفين لأهل السنة في القول بالقدر، وقد حسم ﷺ هذه الشبهة، وهذا الإشكال المبني على الفهم الخاطئ لقدر الله تعالى، كما في حديث علي رضي الله تعالى عنه، قال: كنا في جنازة في بقيع الغرقد، قال: فأتى رسول الله ﷺ فقعد، وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه، وجعل ينكت بمخصرته، ثم قال: «**ما منكم من نفس منفوسة، إلا وقد كتب مكانها من الجنة أو النار، وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة**». قالوا: أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ فمن كان منا أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان منا من أهل الشقاء، فسيصير لعمل أهل الشقاوة. فقال: «**اعملوا فكل ميسر؛ أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل**

(١) تلبيس إبليس، ص (٢٨٦).

(٢) المصدر نفسه، ص (٢٨٦).

الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة. ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾[1]»[2].

وقول الجبرية أشنع من قول القدرية النفاة في هذا الباب، وليس هذا موضع تفصيله.

٢- وقالوا: "أين الحلال حتى نطلب؟!"[3].

ورد عليهم قائلاً: "وهذا قول جاهل؛ لأن الحلال لا ينقطع أبدًا؛ لقوله ﷺ: «**الحلال بَيِّن والحرام بَيّن**»[4]. ومعلوم أن الحلال ما أذن الشرع في تناوله، وإنما قولهم هذا احتجاج للكسل"[5].

٣- قالوا: "إذا كسبنا أعنّا الظلمة والعصاة"[6]، وذكر قصة لأحد أشياخهم، يقال له: فتح الموصلي؛ حيث قيل له: أنت صياد بالشبكة، ولم

---

(١) سورة الليل، الآيات: (٥-١٠).

(٢) رواه البخاري في القدر، ح: (٦٦٠٥)، (الفتح ١١/ ٤٩٤)، ومسلم في القدر، ح: (٢٦٤٧)، (٤/ ٢٠٤٠)، والترمذي في القدر، ح: (٢١٣٦)، (٤/ ٤٤٥)، وابن ماجه في المقدمة، وأحمد في المسند (١/ ٨٢)، وابن جرير في التفسير (٣٠/ ٢٢٣)، والآجري في الشريعة، ح: (٣٢٨)، (٢/ ٦٠٠)، والبيهقي في الاعتقاد، ص (٥٦)، وغيرهم.

(٣) تلبيس إبليس، ص (٢٨٦).

(٤) رواه البخاري، كتاب البيوع، باب: الحلال بين والحرام بين، ح: (٣٤٠)، (الفتح ٤/ ٣٤٠).

(٥) تلبيس إبليس، ص (٢٨٦). وانظر: موقف ابن الجوزي من الصوفية، ص (٧٢٢)، رسالة ماجستير، للأخ الزميل الشيخ علي المقوشي.

(٦) تلبيس إبليس، ص (٢٨٦).

تصد شيئًا، إلا وتطعمه لعيالك، فلمَ لم تصد وتبيع ذلك للناس؟ فقال: أخاف أن أصطاد مطيعًا لله تعالى في جوف الماء، فأطعمه عاصيًا لله على وجه الأرض.

قال ابن الجوزي: "إن صحت هذه الحكاية، فهي من التعلل البارد، المخالف للشرع والعقل؛ لأن الله تعالى أباح الكسب، وندب إليه، فإذا قال قائل: ربما خبزت خبزًا فأكله عاصٍ؛ كان حديثًا فارغًا؛ لأنه لا يجوز لنا إذًا، أن نبيع الخبز لليهود والنصارى"[(١)].

هذه أهم الشبه التي قادتهم إلى هذا المفهوم الخاطئ للتوكل؛ وما ذاك إلا لسبب قلة بضاعتهم في العلم، وتفشي الجهل في صفوفهم، بل كانوا يعيبون العلم وطلابه، ولهم في ذلك أقوال وآثار، ليس هذا مقام بسطها.

يقول عنهم ابن الجوزي رحمه الله: "قلة العلم أوجبت هذا التخليط، ولو عرفوا ماهية التوكل، لعلموا أنه ليس بينه وبين الأسباب تضاد"[(٢)]. وسيأتي بيان ذلك في موضعه، إن شاء الله تعالى.

ولا شك أن للإعراض عن الكسب والخمول، بدعوى التوكل؛ من الآفات والمفاسد، ما يصعب حصره، ولكن نشير إلى أهمها:

١ - تعلق قلب العبد بما يقيم أَوَده ويسير حياته؛ لأنه لا يمكن أن يعيش بغير

---

(١) تلبيس إبليس، ص (٢٨٧)، ونحوها عند الخطيب في تأريخه (١٢/ ٣٧٣). وانظر: موقف ابن الجوزي من الصوفية، ص (٧٢٣).

(٢) تلبيس إبليس، ص (٢٧٨).

ذلك، فيبقى منشغلاً بالتفكير بين القيام بتحقيق ما لابد منه، من أجل الحياة، أو تحقيق التوكل على مفهومه المزعوم، ومجاهدة نفسه على تغيير فطرتها التي فطره الله عليها.

٢- تضييع كثير من الحقوق التي أوجبها الله تعالى على العبد، والتي يجمعها قول سلمان الفارسي لأبي الدرداء رضي الله تعالى عنهما، والذي صدقه فيه النبي ﷺ: "إن لربك عليك حقًا، ولنفسك عليك حقًا، ولأهلك عليك حقًا، فأعط كل ذي حق حقه". وزاد الترمذي وابن خزيمة: "ولضيفك عليك حقًا"[1].

٣- تطلّع النفس إلى ما في أيدي الناس، وتعريضها للحاجة والسؤال، إذا مسته الحاجة إلى ما في أيديهم، ولا شك أن طلب الرزق الحلال لمن هذه حاله، خير له وأنفع من ترك ذلك.

٤- مع التسليم الجدلي بأن من هذه حاله، سيقطع تعلق قلبه بحاجات نفسه، وسيمنعها من مسألة الآخرين، فلو تحقق ذلك ـ مع استحالته ـ فإنه يُخشى عليه، أن يداخله من العجب والكبر والزهو، والغرور والاستعلاء على الآخرين، ما يفسد عليه قلبه، ويمرضه إن لم يمته.

القول الثالث: نفي تأثير الأسباب بالكلية:

وهذا القول هو الذي وصفه العلماء بأنه: (نقص في العقل)؛ وهو قول

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم، باب: من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع، ح: (١٩٦٨)، (٤/ ٢٤٦)، والترمذي في الزهد، ح: (٢٤١٣)، (٤/ ٦٠٨-٦٠٩). وغيرهما.

القدرية الجبرية، أتباع جهم بن صفوان في الجبر، وقد تابعه في ذلك بعض الأشاعرة[١].

وعندهم: "أن الله لم يخلق شيئًا بسبب، ولا جعل في الأسباب قوى وطبائع تؤثر، فليس في النار قوة الإحراق، ولا في السم قوة الإهلاك، ولا في الماء والخبز قوة الري والتغذي به، ولا في العين قوة الإبصار، ولا في الأذن والأنف قوة السمع والشم؛ بل الله سبحانه يحدث هذه الآثار، عند ملاقاة هذه الأجسام لا بها، فليس الشبع بالأكل، ولا الري بالشرب، ولا العلم بالاستدلال، ولا الانكسار بالكسر، ولا الإزهاق بالذبح، ولا الطاعات والتوحيد سببًا لدخول الجنة والنجاة من النار، ولا الشرك والكفر والمعاصي سببًا لدخول النار؛ بل يدخل هؤلاء جنته بمحض مشيئته، من غير سبب ولا حكمة"[٢].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: "وطرد هذا المذهب مفسد للدين والدنيا؛ بل ولسائر أديان الرسل. ولهذا لما طرده قوم أسقطوا الأسباب الدنيوية وعطلوها، وجعلوا وجودها كعدمها، ولم يمكنهم ذلك، فإنهم لابد أن يأكلوا ويشربوا، من الأسباب ما يدفع عنهم الحر والبرد والألم.

فإن قيل: هلا أسقطتم ذلك؟ قالوا: لأجل الاقتران العادي. فإن قيل: هلا قمتم بما أسقطتموه من الأسباب، لأجل الاقتران العادي أيضًا... "[٣].

---

(١) انظر: رسالة تحقيق التوكل، ص (٨٨).

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٦).

(٣) المصدر نفسه (٣/ ٤٩٦).

ثم قال: "فهذا المذهب قد فطر الله سبحانه الحيوان ـ ناطقه وأعجمه ـ على خلافه"[١].

قال شيخ الإسلام عن هذا المذهب: "وهذا الأصل الفاسد مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف وأئمة الدين، بل ومخالف لصريح العقل والحس والمشاهدة"[٢].

قال: "وقوم طردوه، فتركوا له الاسباب الأخروية، وقالوا: سبْق العلم والحكم بالسعادة والشقاوة، ولا يتغير ألبتة. فسواء علينا الفعل والترك، فإن سبق العلم والحكم بالشقاوة، فنحن أشقياء؛ عملنا أو لم نعمل، وإن سبق بالسعادة، فنحن سعداء؛ عملنا أو لم نعمل"[٣].

وقد سأل الصحابة ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ عن ذلك، لما أخبرهم النبي ﷺ أنه: «**ما منكم من أحد إلا وقد علم مقعده من الجنة، ومقعده من النار**». قالوا: يا رسول الله، أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب؟ قال: «**لا، اعملوا؛ فكل ميسر لما خلق له**»[٤]. فألزمهم النبي ﷺ القيام بالأسباب، كما تقدم، وحسم هذه الشبهة وهذا الإشكال، بأقوى بيان في أوجز تعبير.

وهؤلاء غرضهم الرد على القدرية النفاة، لكنهم "ردوا باطلاً بباطل، وقابلوا بدعة ببدعة؛ كرد اليهود على النصارى، والنصارى على اليهود،

---

(١) مدراج السالكين (٣/ ٤٩٦).

(٢) رسالة في تحقيق التوكل، ص (٨٨). وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٩٧).

(٣)رسالة في تحقيق التوكل، ص (٩٣). وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٩٧).

(٤) تقدم تخريجه، ص (١٨٠).

مقالتَهم في المسيح، وكلا المقالتين باطلة، وكذلك تقابل الخوارج والشيعة في علي؛ كلاهما على باطل"[١].

القول الرابع: قيام الجوارح بالأسباب، واعتماد القلب على مسبب الأسباب سبحانه وتعالى:

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة، وهو الحق الذي دلت عليه النصوص الشرعية، والدلائل العقلية، وهو المذهب الوسط بين طرفين؛ حيث جمع أطراف الحق في كل مذهب، فأثبت للأسباب تأثيرًا في مسبباتها، لكن لا بذاتها؛ بل بما أودعه الله تعالى فيها من القوى الموجبة[٢]، وهي تحت مشيئته وقدرته، فإن شاء منعها اقتضاءها، وإن شاء جعلها مقتضية لضد أحكامها، وإن شاء أقام لها موانع وصوارف، تعارض اقتضاءها وتدفعه.

"فالموحد المتوكل لا يلتفت إلى الأسباب؛ بمعنى: أنه لا يطمئن إليها، ولا يرجوها ولا يخافها، فلا يركن إليها، ولا يلتفت عنها؛ بمعنى: أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها، بل يكون قائمًا بها ملتفتًا إليها، ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها، فلا يصح التوكل شرعًا ولا عقلاً، إلا عليه سبحانه وحده"[٣].

والآن نشير إلى بعض أدلة أهل السنة والجماعة، في وجوب الأخذ بالأسباب وعدم منافاتها للتوكل:

---

(١) رسالة تحقيق التوكل، ص (٩٨).

(٢) تقريب التدمرية، ص(١١).

(٣) مدارج السالكين (٣/ ٥٠٠).

أولاً: من القرآن الكريم:

١- قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ ﴾[١]. وهذا أمر باتخاذ الأسباب.

٢- قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ ﴾[٢]. وهذا أمر باتخاذ الأسباب أيضًا.

٣- قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٣]. وهذا كذلك.

٤- قوله تعالى: ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمۡتُمۡ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾[٤]. قال القرطبي: "فالغنيمة: اكتساب"[٥].

٥- قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰ ﴾[٦]. قال الحليمي: "أي: فإن خير الزاد ما عاد على صاحبه بالتقوى؛ وهو ألا يتكلوا على أزواد الناس ويضيقون عليهم. ومن دخل البادية بلا زاد، فإنما يرجو أن يقيض الله تعالى له من يواسيه من زاده، وهذا عين ما أشارت الآية إلى المنع منه؛ فبان أنه

---

(١) سورة الناس، الآية: (٧١).

(٢) سورة الأنفال، الآية: (٦٠).

(٣) سورة الجمعة، الآية: (١٠).

(٤) سورة الأنفال، الآية: (٦٩).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٤/ ١٧٩).

(٦) سورة البقرة، الآية: (١٩٧).

لا معنى لاستحبابه، وإنما المستحب هو التزود..."[١]. إلى غير ذلك من الآيات التي يصعب استقصاؤها.

ثانيًا: أما من السنة: فالنصوص أكثر من أن تحصى أيضًا؛ ومنها:

١- عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «**بعثت بين يدي الساعة بالسيف؛ حتى يُعبد الله وحده، وجُعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[٢].

والشاهد من الحديث قوله: «**وجعل رزقي تحت ظل رمحي**». وفيه دليل على طلب الرزق، وعدم القعود.

قال الحليمي: "فلو كان انتظار الرزق بالصبر والصمت، أفضل من طلبه بما أذن الله فيه، لما حرم رسول الله أفضل الوجهين، وعَرَّضه لأرذلهما"[٣].

٢- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، على

---

(١) المنهاج (٢/ ٧). وتقدم النص قريبًا.

(٢) رواه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٣١٣)، وذكره البخاري في صحيحه في الجهاد، باب: ما قيل في الرماح (٦/ ١١٥) تعليقًا، وذكره الهيثمي في المجمع (٦/ ٤٩). وقال: "فيه عبدالرحمن بن ثابت، وثقه ابن المديني وغيره، وضعفه أحمد وغيره، وبقية رجاله ثقات". قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ١١٦): "له شاهد مرسل بإسناد حسن، أخرجه ابن أبي شيبة من طريق الأوزاعي، عن سعيد بن جبلة...". ورواه البيهقي في الشعب ح: (١١٩٩)، (٢/ ٧٥).

(٣) المنهاج في شعب الإيمان (٢/ ٧).

ناقة له، فقال: يا رسول الله، أدعها وأتوكل؟ فقال: «**اعقلها وتوكل**»[١].

وهذا الحديث أصل في التوكل، وفيه الأمر باتخاذ الأسباب والاحتراز، مع الأمر بالتوكل.

٣- وعن المقدام بن معد يكرب، عن النبي ﷺ، قال: «**ما أكل أحد طعامًا قط خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده**»[٢].

قال الحافظ ابن حجر: "وفي الحديث: أن التكسب لا يقدح في التوكل"[٣].

٤- وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**لو أنكم توكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير؛ تغدو خماصًا، وتعود بطانًا**»[٤].

---

(١) رواه الترمذي في صفة القيامة، باب: (٦٠)، ح: (٥٣٧)، (٤/ ٦٦٨)، وابن أبي الدنيا في التوكل، ح: (١١)، ص (٤٦)، وأبو نعيم في الحلية (٨/ ٣٩٠)، والبيهقي في الشعب، ح: (١٢١٠، ١٢١٢)، وابن حبان في صحيحه، ح: (٢٥٤٩)، الموارد ص (٦٣٣).
قال الزين العراقي في تخريجه للإحياء، (٤/ ٢٧٩): "رواه ابن خزيمة والطبراني، من حديث: أمية الضمري، بإسناد جيد".

(٢) رواه البخاري في البيوع، باب: كسب الرجل وعمله، ح: (٢٠٧٢)، (٤/ ٣٥٥)، وابن ماجه في التجارات، باب: الحث على المكاسب، ح: (٢١٣٨)، (٢/ ٧٢٤)، وأحمد في مسنده (٤/ ١٣٠)، ولم يذكرا: «وكان داود...». وأخرجه البيهقي في الشعب، ح: (١٢٢٤)، (٢/ ٨٤).

(٣) فتح الباري (٤/ ٣٥٨).

(٤) تقدم تخريجه، ص (١٤٦).

قال أبو حاتم الرازي: "وهذا الحديث أصل في التوكل، وأنه من أعظم الأسباب التي يستجلب بها الرزق"[١].

فالطير إذا غدت إنما تغدو بطلب الرزق، ومعروف من عادتها أنها لا تقع إلا حيث تبصر لقطًا، وأنها لا تزال تسبح في الهواء، حتى ترى الماء فتنزل عليه، وكل ذلك ابتغاء في الرزق[٢].

وقال الإمام أحمد: "ليس في الحديث دلالة على القعود عن الكسب، بل فيه ما يدل على طلب الرزق؛ لأن الطير إذا غدت، فإنما تغدو لطلب الرزق"[٣].

٥- حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله ﷺ، ينفق على أهله نفقة سنتهم من هذا المال، ثم يأخذ ما بقي فيجعله مَجْعَل مال الله. فعمل رسول الله ﷺ بذلك حياته...)[٤].

قال النووي: "وفي الحديث: جواز ادخار قوت سنة، وجواز الادخار للعيال، وأن هذا لا يقدح في التوكل"[٥].

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم، ص (٤٠٩).

(٢) المنهاج للحليمي (٢/ ٩).

(٣) شعب الإيمان (٢/ ٦٦-٦٧).

(٤) رواه البخاري في فرض الخمس، ح: (٣٠٩٤)، (٦/ ٢٣٨)، وفي النفقات، باب: حبس الرجل قوت سنة على أهله، ح: (٥٣٥٧)، (٩/ ٤١٢)، ومسلم في الجهاد، باب: حكم الفيء، ح: (١٧٥٧)، (٣/ ١٣٧٧).

(٥) شرح صحيح مسلم (١٢/ ٧٠).

وقد عاب ﷺ، من جعل التوكل ذريعة للكسل والعجز، فعن عوف بن مالك، أن النبي ﷺ، قضى بين رجلين، فقال المقضي عليه لما أدبر: حسبنا الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**ما قلت؟**». قال: قلت: حسبي الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكَيْس، فإن غلبك أمر، فقل: حسبي الله ونعم الوكيل**»[١].

قال الإمام أحمد رحمه الله: "وروينا عن ابن شهاب مرسلاً، في هذه القصة: أن أحدهما تهاون ببعض حجته لم يبلغ فيها، ثم حين قضى للآخر، فقال هذا القول، فقال النبي ﷺ: «**اطلب حقك حتى تعجز، فإذا عجزت فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، فإنما يُقضى بينكم على حججكم**»"[٢].

فالنبي ﷺ، أرشد العبد إلى ما فيه غاية كماله ونيل مطلوبه؛ أن يحرص على ما ينفعه، ويبذل فيه جهده، وحينئذ ينفعه التحسب، وقول: حسبي الله ونعم الوكيل؛ بخلاف من عجز وفرط حتى فاتته مصلحته، ثم قال: حسبي الله ونعم الوكيل؛ فإن الله يلومه، ولا يكون في هذا الحال حسبه، فإنما هو حسب من اتقاه وتوكل عليه[٣].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٦/ ٢٤-٢٥)، وأبو داود في الأقضية، باب: الرجل يحلف على حقه، ح: (٣٦١٠)، (عون ١٠/ ٥٤)، والنسائي في عمل اليوم والليلة، كما في التحفة، (٨/ ٢١٣)، والبيهقي في الشعب، ح: (١٢١٣)، (٢/ ٨١)، وفي السنن الكبرى (١٠/ ١٨١).
والحديث ضعفه النووي في الأذكار، كما في التيسير، ص (٥٠٤)، وقال المنذري: "في إسناده بقية بن الوليد، وفيه مقال". وضعفه الألباني في الكلم الطيب، ص (٧٩)، والفهيد في النهج، ص (١٩٢).

(٢) ينظر: شعب الإيمان، ح: (١٢١٤)، (٢/ ٨١).

(٣) زاد المعاد (٢/ ٣٦٤). وانظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٣١).

هدي النبي ﷺ وأصحابه في ذلك:

وقد كان من هدي النبي ﷺ وأصحابه، اتخاذ الأسبباب مع أنهم كانوا أكمل الخلق توكلاً، وإنما كانوا: يَلْقون عدوهم وهم متحصنون بأنواع السلاح، ودخل رسول الله مكة والبيضة على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾[١][٢].

وقد ظاهر رسول الله ﷺ يوم أحد، بين درعين[٣]، واستأجر دليلاً مشركًا على دين قومه؛ ليدله على طريق الهجرة[٤]، وكان إذا سافر في جهاد أو حج أو عمرة، حمل الزاد والمزاد وجميع أصحابه[٥]، وهم أولو التوكل حقًا، وأكمل المتوكلين، بعدهم من اشتم رائحة توكلهم من مسيرة بعيدة، أو لحق أثرًا من غبارهم.

قال ابن القيم رحمه الله: "فحال النبي ﷺ وحال أصحابه، محكَ الأحوال وميزانها، بها يعلم صحيحها من سقيمها، فإن هممهم كانت في التوكل أعلى من همم من بعدهم، فإن توكلهم كان في فتح بصائر القلوب، وأن يعبد الله في جميع البلاد، وأن يوحده جميع العباد، وأن تشرق شموس الدين الحق على

---

(١) سورة المائدة، الآية: (٦٧).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٤٤٩). وانظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

(٣) رواه الإمام أحمد (٣/ ٤٤٩)، وأبو داود في الجهاد، باب: في لبس الأدرع (٣/ ٧١).

(٤) رواه البخاري في الإجارة، باب: استئجار المشركين عند الضرورة، أو لم يوجد أهل الإسلام، ح: (٢٢٦٣)، (٤/ ٥١٧).

(٥) انظر بعض أخبارهم في الاكتساب واتخاذ الأسباب: تلبيس إبليس، ص (٢٨٢).

قلوب العباد، فمَلئوا بذلك التوكل القلوب هدى وإيمانًا، وفتحوا بلاد الكفر وجعلوها دار إيمان، وهبت رياح روح نسمات التوكل على قلوب أتباعهم، فملأتهم يقينًا وإيمانًا، فكانت همم الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أعلى وأجل، من أن يصرف أحدهم قوة توكله واعتماده على الله، في شيء يحصل بأدنى حيلة وسعي، فيجعله نصب عينيه، ويحمل عليه قوى توكله"[١].

هدي السلف الصالح ومأثورهم في ذلك:

وعلى هديهم سار من جاء بعدهم، رضوان الله تعالى عليهم؛ فهذا ابن المبارك رحمه الله، يقول له الفضيل الإمام الزاهد: إنك تأمرنا بالزهد والتقلل والبلغة، ونراك تأتي بالبضائع من بلاد خراسان إلى البلد الحرام، كيف ذا وأنت تأمرنا بخلاف ذا؟! فقال ابن المبارك: يا أبا علي، أنا أفعل ذا لأصون وجهي، وأكرم بها عرضي، وأستعين بها على طاعة ربي، لا أرى لله حقًا إلا سارعت إليه، حتى أقوم به. فقال له الفضيل: يا ابن المبارك: ما أحسن ذا إن تم ذا[٢].

وهذا أبو قلابة ـ الإمام المفسر ـ يكتب إلى أيوب، بكتاب يقول فيه: "الزم السوق، واعلم أن الغنى معافاة"[٣]. وفي رواية: "الزم سوقك، فإن فيه غنى عن الناس، وصلاحًا للدين".

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٥).

(٢) تاريخ بغداد (١٠/ ١٦٠)، وشعب الإيمان للبيهقي، ح: (١٢٦٦)، (٢/ ٩٦).

(٣) أبو نعيم في الحلية (٢/ ٢٨٦)، وابن حبان في روضة العقلاء، ص (٢٠١)، والبيهقي في الشعب، ح: (١٢٦١) (٢/ ٩٥).

وسأل رجل الحسن فقال: يا أبا سعيد، أفتح مصحفي فأقره حتى أمسي، قال الحسن: "اقرأه بالغداة واقرأه بالعشي، وكن سائر نهارك في صنعتك وما يصلحك"[١].

وكان الإمام أحمد يأمر بالسوق، ويقول: "ما أحسن الاستغناء عن الناس"[٢]. وسئل عن قوم لا يعملون ويقولون: نحن متوكلون؟ فقال: "هؤلاء مبتدعة"[٣].

وليس هذا خاصًا بهذه الأمة فحسب؛ بل إن التكسب والأمر به، هو ديدن الأنبياء السابقين، وهم سادات المتوكلين، عليهم وعلى نبينا أفضل الصلاة وأزكى التسليم، يقول ابن الجوزي رحمه الله: "فقد كان آدم عليه السلام حراثًا، ونوح وزكريا نجارين، وإدريس خياطًا، وإبراهيم ولوط زراعين، وصالح تاجرًا، وكان سليمان يعمل الخوص، وداود يصنع الدروع، ويأكل من ثمنه، وكان موسى وشعيب ومحمد رعاة؛ صلى الله عليهم أجمعين"[٤].

إذًا؛ فالصحيح الذي تدل عليه النصوص، هو أن تعاطي الأسباب لا ينافي التوكل، بل إن التوكل من أعظم الاسباب في جلب المنافع، ودفع

---

(١) البيهقي في شعب الإيمان، ح: (١٢٥٩)، (٢/ ٩٤).

(٢) الحث على التجارة، والرد على من يدعي التوكل، ح: (٤)، ص (٢٧). وانظر: المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة، للدكتور عبدالإله الأحمدي (٢/ ٢٣٤).

(٣) مسائل صالح، ص(٧٢). وانظر: المسائل والرسائل (٢/ ٢٣٨).

(٤) تلبيس إبليس، ص(٢٨١).

المضار[١]، بل هو أقوى الأسباب على الإطلاق[٢]. ونحن مأمورون بأن نمارس عبودية الأخذ بالأسباب، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل؛ لأنه "... لا تقوم عبودية الأسباب، إلا على ساق التوكل، ولا يقوم ساق التوكل، إلا على قدم العبودية"[٣].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "واعلم: أن تحقيق التوكل لا ينافي السعي في الأسباب، التي قدر الله ـ سبحانه وتعالى ـ المقدورات بها، وجرت سنته في خلقه بذلك؛ فإن الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكل؛ فالسعي في الأسباب بالجوارح طاعة له، والتوكل بالقلب عليه إيمان به...". وقال: "قال سهل التستري: من طعن في الحركة ـ يعني في السعي والكسب ـ فقد طعن في السنة، ومن طعن في التوكل، فقد طعن في الإيمان، فالتوكل حال النبي ﷺ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته"[٤].

قال ابن عقيل: "يظن أقوام، أن الاحتياط والاحتراز ينافي التوكل، وأن التوكل هو إهمال العواقب واطراح التحفظ، وذلك عند العلماء، هو: العجز والتفريط، الذي يقتضي من العلماء التوبيخ والتهجين، ولم يأمر الله بالتوكل إلا بعد التحرز واستفراغ الوسع في التحفظ، فقال تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ

(١) تيسير العزيز الحميد، ص (٥٠٢).

(٢) الفوائد، ص (٨٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٢٠).

(٤) جامع العلوم والحكم، ص(٤٠٩). وتقدم ص (١٧٨)، كلام سهل التستري، وتخريجه هناك.

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[١]. فلو كان التعلق بالاحتياط قادحًا في التوكل، لما خص الله به نبيه، حين قال له: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾. وهل المشاورة إلا استفادة الرأي، الذي منه يؤخذ التحفظ والتحرز من العدو"[٢].

وقال الحافظ ابن حجر: "والحق: أن من وثق بالله، وأيقن أن قضاءه عليه ماضٍ، لم يقدح في توكله تعاطيه الأسباب؛ اتباعًا لسنته وسنة رسوله.."[٣].

وحقيقة التوحيد، لا تتم إلا بمباشرة الأسباب، التي نصبها الله مقتضيات لمسبباتها، قدرًا وشرعًا، و"تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة ويضعفه، من حيث يظن معطلها أن تركها أقوى في التوكل، فإن تركها عجز ينافي التوكل، الذي حقيقته اعتماد القلب على الله، في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا يدفع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً، ولا توكله عجزًا"[٤].

والتوكل باعتبار تعلقه بالأسباب، ينقسم إلى قسمين:

الأول: توكل اضطرار:

وهذا بحيث لايجد العبد ملجأ ولا ملاذًا إلا التوكل؛ كما إذا تقطعت به

---

(١) سورة آل عمران، آية: (١٥٩).

(٢) ينظر: تلبيس إبليس، ص (٢٧٩).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٥).

الأسباب، وضاقت عليه نفسه، وظن أن لا ملجأ من الله إلا إليه، فهذا لا يتخلف عنه الفرج، والتيسير بحول الله.

الثاني: توكل اختيار:

وهو التوكل مع وجود السبب المفضي إلى المراد، وهو على ثلاثة أنواع:

أ – أن يكون السبب مأمورًا به، فهنا يجب عليه الجمع بين اتخاذ السبب وتحقيق التوكل. قال ابن القيم: "الواجب القيام بهما، والجمع بينهما"[١]. والقيام به لا ينافي تحقيق التوكل؛ بل هو من تمام التوكل.

ب- أن يكون السبب منهيًا عنه، فهنا تحرم مباشرة السبب، ويتعين تحقيق التوكل، فلم يبق سبب سواه؛ لأن التوكل من أقوى الأسباب كما قدمنا، ومباشرة الأسباب المحرمة أو المكروهة أو الموهومة، قادح في تحقيق التوكل.

جـ - أن يكون السبب مباحًا، وهنا ينظر "هل يضعف قيامك به التوكل أو لا يضعفه؟ فإن أضعفه، وفرق عليك قلبك، وشتَّت شملك؛ فتركه أولى، وإن لم يضعفه فمباشرته أولى؛ لأن حكمه أحكم الحاكمين، اقتضت ربط المسبب به، فلا تعطل حكمته مهما أمكن القيام بها، ولا سيما إذا فعلته عبودية، فتكون قد أتيت بعبودية القلب بالتوكل، وعبودية الجوارح بالسبب المنوي به القربة"[٢].

ومن أجلّ فوائد تعاطي الأسباب، القيام بالعبودية لله تعالى، وهو الأمر

---

(١) الفوائد، ص (٨٠).

(٢) المصدر نفسه ص (٨٠).

الذي خُلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار. فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية، وحق الله تعالى على عبده، الذي توجهت به نحوه المطالب، وترتب عليه الثواب والعقاب، والله سبحانه أعلم[١].

قال ابن القيم رحمه الله: "وسرّ التوكل وحقيقته؛ هو: اعتماد القلب على الله وحده، فلا يضره مباشرة الأسباب، مع خلو القلب من الاعتماد عليها والركون إليها، كما لا ينفعه قوله: توكلت على الله، مع اعتماده على غيره، وركونه إليه وثقته به، فتوكل اللسان شيء، وتوكل القلب شيء"[٢].

لذا، فإن من تمام التوكل، "عدم الركون إلى الأسباب، وقطع علاقة القلب بها، فيكون حال قلبه قيامه بالله لا بها، وحال بدنه قيامه بها"[٣].

قال الجنيد: "ليس التوكل الكسب ولا ترك الكسب، التوكل شيء في القلوب"[٤].

قال ابن الجوزي: "إنما ينبغي أن تكون أعضاء المتوكل في الكسب، وقلبه ساكن مفوض إلى الحق، منع أو أعطي؛ لأنه لا يرى إلا أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ لايتصرف إلا بحكمة ومصلحة"[٥].

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠).

(٢) الفوائد، ص (٨٠).

(٣) مدارج السالكين (٢/ ١٣٠).

(٤) شعب الإيمان، ح: (١٢٧١)، (٢/ ٩٧).

(٥) تلبيس إبليس، ص (٢٨٠).

كما قال بعضهم: اكتسب ظاهرًا، وتوكلاً باطنًا، فهو مع كسبه لا يكون معتمدًا على كسبه، وإنما يكون اعتماده في كفاية أمره، على الله عز وجل[١].

ولذلك قيل: "الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية، قدح في الشرع"[٢].

قال شيخ الإسلام: "وإنما التوكل المأمور به: ما اجتمع فيه مقتضى التوحيد والعقل والشرع"[٣]. "كما أن التجرد من الأسباب جملة، ممتنع عقلاً وشرعًا وحسًا"[٤].

قال ابن القيم رحمه الله: "وهذا الكلام يحتاج إلى شرح وتقييد؛ فالالتفات إلى الأسباب ضربان:

أحدهما: شرك، والآخر: عبودية وتوحيد؛ فالشرك أن يعتمد عليها ويطمئن إليها، يعتقد أنها بذاتها محصِّلة للمقصود، فهو معرض عن المسبب لها، ويجعل نظره والتفاته مقصورًا عليها.

وأما إن التفت إليها، التفات امتثال وقيام بها، وأداء لحق العبودية فيها، وإنزالها منازلها؛ فهذا الالتفات عبودية وتوحيد، إذ لم يشغله عن الالتفات إلى المسبب.

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٩٧).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤/ ٢٤٣)، ومجموع الفتاوى (١/ ١٣١)، (١٠/ ٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ٣٥). وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٤٩٩).

(٤) مدارج السالكين (٢/ ١٣٤).

وأما محوها أن تكون أسبابًا؛ فقدح في العقل والحس والفطرة، فإن أعرض عنها بالكلية؛ كان قدحًا في الشرع وإبطالاً له.

وحقيقة التوكل: القيام بالأسباب، والاعتماد بالقلب على المسبب، واعتقاد أنها بيده، فإن شاء أقام لها موانع وصوارف، تعارض اقتضاءها وتدفعه.

فالموحد المتوكل لا يلتفت إليها؛ بمعنى أنه لا يسقطها ولا يهملها ويلغيها، بل يكون قائمًا بها، ملتفتًا إليها، ناظرًا إلى مسببها سبحانه ومجريها...".

قال: "فإذا جمعت بين هذا التوحيد، وبين إثبات الأسباب؛ استقام قلبك على السير إلى الله، ووضح لك الطريق الأعظم، الذي مضى عليه جميع رسل الله وأنبيائه وأتباعهم، وهو الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم. وبالله التوفيق"[١].

لذا؛ فالواجب على العبد، أن يعرف في الأسباب الأمور التالية:

١- ألا يجعل منها سببًا، إلا ما ثبت أنه سبب شرعًا أو قدرًا.

قال شيخ الإسلام: "لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئًا سببًا بلا علم، أو يخالف الشرع، كان مبطلاً؛ مثل: من يظن أن النذر، سبب في دفع البلاء وحصول النعماء"[٢]. ومثل: تعليق التمائم والخرز والتطير، ونحو ذلك.

٢- ألا يعتمد العبد عليها؛ بل يعتمد على مسببها ومقدرها، مع قيامه

(١) مدارج السالكين (٣/ ٤٩٩-٥٠٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧).

بالمشروع منها، وحرصه على النافع منها[١]؛ وذلك لأن "السبب المعين لا يستقل بالمطلوب، بل لابد معه من أسباب أخر، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب، ويدفع الموانع، لم يحصل المقصود"[٢].

فحصول المطلوب مع اتخاذ الأسباب، لا يمكن أن يكون قاعدة مطردة، ولا يمكن أن يقال: إنه لابد من حصول المراد إذا وجد السبب؛ بل المطلوب من المؤمن التوكل على الله وحده، ثم الأخذ بالأسباب، وقد يعطي سبحانه أو يمنع، مع وجود السبب، لذا فإنه لا يجوز الاعتماد على الأسباب، وإنما على مسببها سبحانه وتعالى.

٣- أن يعلم أن الأسباب مهما عظمت وقويت، فإنها مرتبطة بقضاء الله وقدره، لاخروج لها عنه، والله تعالى يتصرف فيها كيف يشاء، فإن شاء أبقى سببيتها، جارية على مقتضى حكمته؛ ليقوم بها العباد، ويعرفوا بذلك تمام حكمته، حيث ربط الأسباب بمسبباتها، والمعلولات بعللها، وإن شاء غيرها كيف يشاء؛ لئلا يعتمد عليها العباد، وليعلموا كمال قدرته، وأن التصرف المطلق، والإرادة المطلقة لله وحده[٣]. "فما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله"[٤].

---

(١) القول السديد لمقاصد التوحيد، لابن سعدي، ص (١٨)، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفاته رحمه الله، المجلد الثالث.

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧).

(٣) القول السديد، ص (١٨).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧).

قال الإمام أحمد: "وهذا هو الأصل في هذا الباب، وهو أن يستعمل هذه الأسباب التي بينها الله تعالى لعباده، وأذن فيها، وهو يعتقد أن المسبب هو الله سبحانه وتعالى، وما يصل إليه من المنفعة، فبتقدير من الله عز وجل، وأنه إن شاء حرمه تلك المنفعة، مع استعماله السبب، فتكون ثقته بالله واعتماده عليه، في إيصال تلك المنفعة إليه، مع وجود السبب"[١].

٤- أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيئًا سببًا، إلا أن تكون مشروعة، فإن العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله؛ فيدعو غيره، وإن ظن أن ذلك سبب في حصول بعض أغراضه، وكذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة، وإن ظن ذلك، فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك، وقد يحصل بالكفر والعصيان على بعض أغراض الإنسان، فلا يحل له ذلك؛ إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول ﷺ، بعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة[٢].

وعليه أن يتقي في الأسباب أمرين:

الأول: الاعتماد عليها، والتوكل عليها، والثقة بها، ورجاؤها وخوفها. فهذا شرك يرق ويغلظ وبين ذلك.

---

(١) شعب الإيمان (٢/ ٧٩٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١/ ١٣٧-١٣٨).

الثاني: ترك ما أمر الله به من الأسباب، وهذا ـ أيضًا ـ قد يكون كفرًا وظلمًا وبين ذلك، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر، ويتوكل على الله، توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله، سبق بها علمه وحكمه، وأن السبب لا يضر ولا ينفع، ولا يعطي ولا يمنع، ولا يقضي ولا يحكم، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية، ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم، فيأتي بالأسباب، إتيان من لا يرى النجاة والفرح والوصول إلا بها، ويتوكل على الله، توكل من يرى أنها لا تنجيه، ولا تحصل له فلاحًا ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا، ويفرغ قلبه من الاعتماد عليها، والركون إليها؛ تجريدًا للتوكل، واعتمادًا على الله وحده[1].

وقد جمع النبي ﷺ، بين هذين الأصلين، في الحديث الصحيح؛ حيث يقول: «**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز...**»[2]. فأمره بالحرص على الأسباب، والاستعانة بالمسبب، ونهاه عن العجز، وهو نوعان:

١- تقصير في الأسباب، وعدم الحرص عليها.

٢- تقصير في الاستعانة بالله، وترك تجريدها.

فالدين كله ظاهره وباطنه، وشرائعه وحقائقه، تحت هذه الكلمات النبوية.

---

(١) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١).

(٢) جزء من حديث رواه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب: الأمر بالقوة وترك العجز، ح: (٢٦٦٤)، (٤/ ٢٠٥٢)، وابن ماجه في المقدمة، باب: في القدر، ح: (٧٩)، (١/ ٣١)، وفي الزهد، باب: التوكل واليقين، ح: (٤١٦٨)، (٢/ ١٣٩٥)، والإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٣٦، ٣٧٠).

وبهذا يظهر: أن لا تعارض ـ ألبتة ـ بين التوكل واتخاذ الأسباب، بل إن التوكل ذاته، هو من جملة الأسباب التي أمرنا الله تعالى باتخاذها. والله أعلم.

* * * *

الفصل السابع

من مظاهر ضعف التوكل

"قوادح التوكل"

الفصل السابع

من مظاهر ضعف التوكل

"قوادح التوكل"

لا شك أن أعظم مظاهر ضعف التوكل على الله تعالى ـ وهو الجامع لكل المظاهر الجزئية ـ هو التفات القلب إلى الأسباب، وتعلقه بغير الله تعالى، وتختلف درجات هذا الضعف، باختلاف أنواع الأسباب، وباختلاف درجات تعلق القلب بها، والتفاته إليها.

والأسباب على ثلاث درجات:

الأولى: المقطوع بها: وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها، بتقدير الله ومشيئته، ارتباطًا مطردًا لا يتخلف؛ كما أن الطعام إذا كان موضوعًا بين يديك، وأنت جائع محتاج، ولكنك لست تمد اليد إليه، وتقول: أنا متوكل، وشرط التوكل ترك السعي، ومد اليد إليه سعي وحركة... فهذا كما يقول الغزالي رحمه الله: "جنون محض، وليس من التوكل في شيء..."[1].

الثانية: الأسباب التي ليست متيقنة، وإنما هي ظنية؛ كالرقى والاكتواء، فهذه لا شك أن الاعتماد عليها، والتفات القلب إليها بذاتها ـ إذا ثبتت سببيتها ـ سواء كانت أسبابًا شرعية، دلت عليها النصوص، أو قدرية دلت عليها التجربة، لا شك أنه مضعف للتوكل، منقص لكماله.

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ٢٦٥).

الثالثة: الأسباب الموهومة؛ وهي التي ليست من الأسباب الشرعية التي دلت عليها النصوص، ولا من الأسباب القدرية التي ثبت برهانها بالتجربة والحس، وإنما هي من الوهم والتخرُّص؛ كالتطير مثلاً، وتعليق الحروز والتمائم وغيرها، فلا شك أن الالتفات إليها واستعمالها محرم، وهي منافية لتحقيق التوكل وكمال التوحيد.

والمقصود بالحديث في هذا الفصل، هو الدرجة الثانية والثالثة، وقد جمعها النبي ﷺ، في حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**عُرضت علي الأمم، فأخذ النبي يمر معه الأمة، والنبي يمر معه النفر، والنبي يمر معه العشرة، والنبي يمر معه الخمسة، والنبي يمر وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل، هؤلاء أمتي؟ قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفًا قدامهم، لا حساب عليهم ولا عذاب. قلت: ولِمَ؟ قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون**». فقام عكاشة بن محصن، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «**اللهم اجعله منهم**». ثم قام إليه رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «**سبقك بها عكاشة**»[1].

وقد اتفق على هذه الأربع معظم الروايات، في حديث ابن عباس، وإن كان عند بعضهم تقديم وتأخير، وكذا في حديث عمران بن حصين، عند مسلم[2].

---

(١) الحديث رواه البخاري – واللفظ له – في الرقاق، باب: يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب، ح: (٦٥٤١)، (١١/ ٤١٣)، وتقدم تخريجه في ص (١٥٤).

(٢) فتح الباري (١١/ ٤١٦).

وظاهر الحديث يدل على أن هذه الأمور المذكورة، تقدح في كمال التوكل، ولذلك ذيل الحديث بقوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**». وهي تحتمل أحد معنيين:

الأول: أن تكون الجملة مفسرة لما تقدم، من ترك الاسترقاء والاكتواء والطيرة.

الثاني: أن تكون من العام بعد الخاص؛ لأن صفة كل واحدة منها، صفة خاصة من التوكل، وهو أعم من ذلك[١].

والآن نستعرض هذه الأمور الثلاثة؛ لنرى الصور القادحة من غيرها:

أولاً: الاسترقاء:

الاسترقاء: طلب الرقية. قال في اللسان: "وهي: العوذة، معروفة. قال رؤبة:

فَمَا تَرَكَا مِنْ عُوذَةٍ يَعْرِفَانَهَا وَلاَ رُقْيَةٍ غَلاَ بِهَا رُقْيَانِي

والجمع: رقى، تقول: استرقيته فرقاني رقية، فهو راقٍ[٢].

وقال أيضًا: "العوذة والمعاذة والتعويذ: الرقية يُرقى بها الإنسان من فزع أو جنون"[٣].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٤١٧).

(٢) لسان العرب، مادة: (ر ق ي)، (١٤/ ٣٣٢).

(٣) نفس المصدر، مادة: (ع و ذ)، (٣/ ٤٤٩).

حكم الرقية:

الرقية تنقسم إلى قسمين:

١ - جائزة: وهي ما اجتمعت فيها شروط ثلاثة:

أ – أن تكون بكلام الله تعالى، وبأسمائه وصفاته.

ب – أن تكون باللسان العربي، أو بما يعرف معناه من غيره.

ج – أن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها، بل بأمر الله تعالى[١].

وقد حكى الحافظ ابن حجر، إجماع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع هذه الشروط[٢].

وقد فصل فضيلة الدكتور علي العلياني، ضوابط الرقية المشروعة، وجعل لها سبعة ضوابط؛ وهي:

١- ألا تكون شركية.

٢- ألا تكون سحرية.

٣- ألا تكون من عراف أو كاهن.

٤- أن تكون بعبارات مفهومة.

٥- ألا تكون بهيئة محرمة.

٦- ألا تكون بعبارات محرمة بالسب والشتم.

٧- ألا يظن فيها الاستقلال بالشفاء[٣].

---

(١) فتح الباري (١١/ ٢٠٦).

(٢) نفس المصدر (١١/ ٢٠٦).

(٣) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، وحكم التفرغ لها واتخاذها حرفة، ص (٥٩).

ومما يدل على جواز الرقية الشرعية مستكملة الشروط، ما يلي:

أولاً: فعله ﷺ بنفسه: حيث ثبت عن النبي ﷺ، من حديث عائشة رضي الله عنها، أنه كان ﷺ، إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه، بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وبالمعوذتين جميعًا، ثم يمسح بهما وجهه، وما بلغت يداه من جسده[(١)].

وعنها: أنه ﷺ، كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده[(٢)].

ثانيًا: فعله ﷺ بغيره: كما في حديث عائشة رضي الله عنها أيضًا، قالت: كان النبي ﷺ، يعوِّذ بعضهم؛ يمسح بيمينه: **«اذهب البأس رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا»**[(٣)].

وعنها قالت: كان رسول الله ﷺ، إذا مرض أحد من أهله، نفث عليه بالمعوذات[(٤)].

ثالثًا: أمره ﷺ: كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها، أن النبي ﷺ، رأى في

---

(١) رواه البخاري في الطب، باب: النفث في الرقية، ح: (٥٧٤٨)، (فتح ١٠/ ٢١٩)، واللفظ له. وروى نحوه ابن ماجه في الدعاء، باب: ما يدعو به إذا أوى إلى فراشه، ح: (٣٨٥٧)، (٢/ ١٢٧٥).

(٢) رواه البخاري في المغازي، باب: مرض النبي ﷺ، ح: (٤٤٣٩)، (الفتح ٧/ ٧٣٨)، ومسلم في السلام، باب: رقية المريض بالمعوذات والنفث، ح: (٢١٩٢)، (٤/ ١٧٣٤).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب: مسح الراقي الوجع بيده اليمنى، ح: (٥٧٥٠)، (الفتح ١٠/ ٢٢١)، ومسلم في السلام، باب: استحباب رقية المريض، ح: (٢١٩١)، (٤/ ١٧٢٣).

(٤) رواه مسلم في السلام، باب: رقية المريض بالمعوذات والنفث، ح: (٢١٩٢)، (٤/ ١٧٢٣).

بيتها جارية في وجهها سَفْعة[١]. فقال: «**استرقوا لها؛ فإن بها النظرة**[٢]»[٣].

رابعًا: إقراره ﷺ: كما في حديث أبي سعيد: أن رهطًا من أصحاب رسول الله ﷺ، انطلقوا في سفرة سافروها، حتى نزلوا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم، فأبوا أن يضيِّفوهم، فلُدغ سيد ذلك الحي، فسعوا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فقال بعضهم: لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا بكم؛ لعله أن يكون عند بعضهم شيء، فأتوهم، فقالوا: يا أيها الرهط؛ إن سيدنا لدغ، فسعينا له بكل شيء، لا ينفعه شيء، فهل عند أحدكم شيء؟ فقال بعضهم: نعم، والله، إني لراقٍ، ولكن ـ والله ـ لقد استضفناكم فلم تضيفونا، فما أنا براق لكم، حتى تجعلوا لنا جُعلاً، فصالحوهم على قطيع من الغنم، فانطلق؛ فجعل يتفل ويقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. حتى لكأنما نشط من عقال، فانطلق يمشي ما به قَلَبة[٤]، قال: فأوفوهم جُعْلهم الذي صالحوهم عليه، فقال بعضهم: اقسموا، فقال الذي رقى: لا تفعلوا حتى نأتي رسول الله ﷺ، فنذكر الذي كان، فننظر ما يأمرنا، فقدموا على رسول الله

---

(١) السَّعْفَة: بسكون العين؛ قروح تخرج على رأس الصبي. ويقال: هو مرض يسمى داء الثعلب يسقط الشعر. (النهاية ٢/ ٣٦٨). والسفعة: أي علامة من الشيطان. وقيل: ضربة واحدة منه. (النهاية ٢/ ٣٧٥). وقال ابن قتيبة: لون يخالف لون الوجه (الفتح ١٠/ ٢١٢).

(٢) النظرة: العين. (النهاية ٥/ ٧٨).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب: رقية العين، ح: (٥٧٣٨)، (الفتح ١٠/ ٢١٠)، ومسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين، ح: (٢١٩٧)، (٤/ ١٧٢٥).

(٤) يقال: ما بالعليل قَلَبَه: أي ما به شيء. ولا يستعمل إلا في النفي. والقَلَبَةُ: داء أو ألم يتقلب منه صاحبه. قال في النهاية (٤/ ٩٨): "أي: ألم وعلة".

ﷺ، فذكروا له، فقال: «**وما يدريك أنها رقية؟! أصبتم، فاقسموا واضربوا لي معكم بسهم**»[١].

٢-**الرقية الممنوعة**: وهي ما فقدت شرطًا من الشروط السابقة. والأدلة على منعها كثيرة؛ منها:

١- عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود، قالت: كان عبدالله إذا جاء من حاجة، فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق، كراهية أن يهجم منها على شيء يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح، قالت: وعندي عجوز ترقيني من الحمرة[٢]، فأدخلتها تحت السرير، فدخل فجلس إلى جنبي، ورأى في عنقي خيطًا، قال: ماهذا الخيط؟! قالت: قلت: خيط رقي لي فيه. قالت: فأخذ فقطعه، ثم قال: إن آل عبدالله لأغنياء عن الشرك؛ سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك...**» الحديث[٣].

---

(١) رواه البخاري ـ واللفظ له ـ في الإجارة، باب: ما يعطى في الرقية على إحياء العرب، بفاتحة الكتاب، ح: (٢٢٧٦)، (الفتح ٤/ ٥٢٩)، والطب، باب: الرقى بفاتحة الكتاب، ح: (٥٧٣٦)، (الفتح ١٠/ ٢٠٨)، وفي فضائل القرآن، باب: فضل فاتحة الكتاب، ح: (٥٠٠٦)، ورواه مسلم في السلام، ح: (٢٢٠١)، (٤/ ١٧٢٧)، ورواه أبو داود في البيوع (٣٧)، والطب (١٩)، والترمذي في الطب (٢٠)، وابن ماجه في التجارات (٧)، وأحمد في المسند (٣/ ٨٣).

(٢) مرض وبائي يسبب حمى، وبقعًا حمراء في الجلد. انظر: المنجد، مادة: (ح م ر).

(٣) رواه أحمد (١/ ٣٨١)، وأبو داود مختصرًا في الطب، في تعليق التمائم، ح: (٣٨٦٥)، (عون ١٠/ ٣٦٧)، وابن ماجه في الطب، باب: تعليق التمائم، ح: (٣٥٣٠)، (٢/ ١١٦٧)، والبغوي في شرح السنة (١٢/ ١٥٦)، وابن حبان في صحيحه (الموارد ح:١٤١٢، ص ٣٤٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٤١٧)، وصححه ووافقه الذهبي. وحسنه الفهيد في النهج السديد، ص (٥٩).

٢- عن عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يا رسول الله ﷺ، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا علي رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك**»(١).

هل تنافي الرقية التوكل أو تقدح فيه؟

للعلماء في هذه المسألة ثلاثة أقوال، نجملها فيما يلي:

الأول: ذهب بعض العلماء إلى كراهية الرقية والكي، من بين سائر الأدوية؛ وزعموا أنهما قادحان في التوكل. وبَوَّب على ذلك الإمام البخاري رحمه الله، في صحيحه في كتاب الطب، قال: باب "من لم يرق"(٢).

وعمدتهم في ذلك: حديث ابن عباس ـ المتقدم ـ في وصف السبعين ألفًا، الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

قال الحافظ ابن حجر: "فتمسَّك بهذا الحديث من كره الرقى والكي، من بين سائر الأدوية، وزعم أنهما قادحان في التوكل دون غيرهما"(٣).

الثاني: وذهب بعضهم إلى خلاف ذلك، وأنها لا تنافي التوكل، ولا تقدح في كماله، مستدلين بفعل النبي ﷺ، وقوله وتقريره؛ الدال على جواز الرقية مكتملة الشروط، وسبق ذكرها.

وأجابوا على استدلال الطائفة الأولى بهذا الحديث، عدة أجوبة ذكرها الحافظ

---

(١) رواه مسلم في السلام، باب: لا بأس بالرقى ما لم يكن فيها شرك، ح: (٢٢٠٠)، (٤/ ١٧٢٧).

(٢) انظر: البخاري مع الفتح (١٠/ ٢٢٢).

(٣) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

ابن حجر[١]؛ ومنها:

١- ما قاله الطبري والمازري وطائفة؛ أنه محمول على من جانب اعتقاد الطبائعيين، في أن الأدوية تنفع بطبعها، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون.

وقال غيره: الرقى التي يحمد تركها؛ ما كان من كلام الجاهلية، ومن الذي لا يعقل معناه؛ لاحتمال أن يكون كفرًا، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه.

وتعقبه عياض وغيره؛ بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفًا مزية على غيرهم، وفضيلة انفردوا بها عمن شاركهم في أصل الفضل والديانة، ومن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها، أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها، فليس مسلمًا.

٢- قال الداودي وطائفة: إن المراد بالحديث: الذين يجتنبون فعل ذلك في الصحة، خشية وقوع الداء، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا.

وأشار الحافظ إلى أنه اختيار ابن قتيبة في الاكتواء، وابن عبد البر[٢].

وأجاب عليه: بأنه معترض بما قدمته؛ من ثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء[٣].

٣- قال الحليمي: يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين في الحديث، من غفل عن أحوال الناس، وما فيها من الأسباب المعدة، لدفع العوارض، فهم

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٢) المصدر نفسه (١٠/ ٢٢٢).

(٣) المصدر نفسه (١٠/ ٢٢٢).

لا يعرفون الاكتواء، ولا الاسترقاء، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء، والاعتصام بالله والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء، ورقى الرقاة، ولا يحسنون من ذلك شيئًا. والله أعلم.

٤- أن المراد بترك الرقى والكي، والاعتماد على الله في دفع الداء، والرضا بقدره، لا القدح في جواز ذلك؛ لثبوت وقوعه في الأحاديث الصحيحة، وعن السلف الصالح، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطي الأسباب. وإلى هذا نحا الخطابي ومن تبعه.

قال ابن الأثير: "هذا من صفة الأولياء، المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها"[١].

قال النووي: "الظاهر من معنى الحديث، ما اختاره الخطابي ومن وافقه، كما تقدم"[٢].

وهذا ينبغي أن يحمل على ترك أسباب التداوي المكروهة[٣] والموهومة، لاترك الأسباب بالكلية؛ لأن تركها قدح في الشرع، كما تقدم.

وليس في الحديث ما يدل على ترك الأسباب ألبتة، قال الشيخ سليمان بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، رحمهما الله تعالى: "اعلم: أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً، كما يظنه الجهلة؛ فإن مباشرة الأسباب

---

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٢).

(٢) شرح صحيح مسلم (٣/ ٩١).

(٣) الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، ص (٢١).

في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾[١]. أي: كافيه.

إنما المراد: أنهم يتركون الأمور المكروهة ـ مع حاجتهم إليها ـ توكلاً على الله؛ كالاسترقاء والاكتواء، فتركهم له ليس لكونه سببًا، لكن لكونه مكروهًا، لا سيما والمريض يتشبث بما يظنه سببًا لشفائه، بخيط العنكبوت، أما نفس مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعًا"[٢].

الثالث: وذهب شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ ومن وافقه، إلى التفريق بين فعل الرقية، سواء بنفسه أو بغيره، وبين طلبها.

واحتج لذلك: بأن لفظ الحديث ورد في معظم الروايات، بلفظ: «**لا يسترقون**». من الاستفعال، وهو طلب الفعل، أما ما ورد في رواية سعيد بن منصور عند مسلم: «**ولا يرقون**». فقد قال عنه شيخ الإسلام: "وهو غلط؛ فإن رقياهم لغيرهم ولأنفسهم حسنة، وكان النبي ﷺ، يرقي نفسه وغيره، ولم يكن يسترقي، فإن رقيته نفسه وغيره، من جنس الدعاء لنفسه ولغيره. وهذا مأمور به"[٣]. ولأن الراقي محسن لأخيه، وقد قال النبي ﷺ: «من

---

(١) سورة الطلاق، الآية: (٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد، ص (١١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١/ ١٨٢). وانظر: (١/ ٣٢٨) و (٢٧/ ٦٨).

استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه»[١].

والفرق بين الراقي والمسترقي؛ أن المسترقي سائل [مستعط][٢]، ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن نافع[٣].

قال ابن القيم: "والنبي ﷺ، لا يجعل ترك الإحسان المأذون فيه، سببًا للسبق إلى الجنان، وهذا بخلاف ترك الاسترقاء، فإنه توكل على الله، ورغبة عن سؤال غيره، ورضا بما قضاه الله"[٤].

وقد اعتُرِض على شيخ الإسلام بما يلي:

١- أن الزيادة من الثقة مقبولة، وسعيد بن منصور حافظ، وقد اعتمده البخاري ومسلم. واعتمد مسلم على روايته هذه.

٢- وبأن تغليط الراوي مع إمكان تصحيح الزيادة، لا يصار إليه.

٣- والمعنى الذي حمله على التغليط موجود في [المرقي][٥]، فكما أن الذي لا يطلب غيره أن يرقيه، تام التوكل، فكذا يقال له: والذي يفعل به ذلك، ينبغي ألا يمكنه منه لأجل تمام التوكل.

---

(١) رواه مسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين...، ح: (٢١٩٩)، وأحمد (٣/ ٣١٥، ٣٣٤، ٣٨٢، ٣١٣).

(٢) في الأصل: "مسقط". والصواب: المثبت كما في تيسير العزيز الحميد، ص (١٠٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٨٧). وانظر: فتح الباري (١١/ ٤١٦).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٥٨٧).

(٥) في الأصل: "المسترقي"، ولعل الصواب المثبت، كما في التيسير العزيز الحميد، ص (١٠٨).

٤- وليس في وقوع ذلك من جبريل دلالة على المدعى، ولا في فعل النبي ﷺ، دلالة؛ لأنه في مقام التشريع وتبيين الأحكام[١].

وقد أجاب على هذه الاعتراضات، الشيخ سليمان بن عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، بما يلي:

١- أن هذه الزيادة لا يمكن تصحيحها، إلا بحملها على وجوه لا يصح حملها عليها؛ كقول بعضهم: المراد: لا يرقون بما كان شركًا أو احتمله، فإنه ليس في الحديث ما يدل على هذا أصلاً، وأيضًا فعلى هذا لا يكون للسبعين [ألفًا] مزية على غيرهم، فإن جملة المؤمنين لا يرقون بما كان شركًا.

٢- قوله: "فكذا يقال..." إلخ، لا يصح هذا القياس، فإنه من أفسد القياس، وكيف يقاس من سأل وطلب على من لم يسأل؟ مع أنه قياس مع وجود الفارق الشرعي، فهو فاسد الاعتبار؛ لأنه تسوية بين ما فرق الشارع بينهما بقوله: «**من اكتوى واسترقى فقد برئ من التوكل**»[٢]. وكيف يجعل ترك

---

(١) انظر: فتح الباري (١١/ ٤١٧).

(٢) الحديث رواه الترمذي في الطب، باب: ما جاء في كراهية الرقية، ح: (٢٠٥٥)، (٤/ ٣٩٣)، وقال: "حديث حسن صحيح". ورواه ابن ماجه في الطب، باب: في الكي، ح: (٣٤٨٩)، (٢/ ١١٥٤)، وأحمد في المسند (٤/ ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٤، ٢٥٤)، وابن حبان في صحيحه، ووافقه الذهبي، وابن أبي الدنيا في التوكل، ح: (٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، ح: (١١٦٦)، (٢/ ٦١) بنحوه. وحسنه البغوي في شرح السنة (١٢/ ١٦٠)، وصححه المناوي، كما في التيسير (٢/ ٤٠٤)، والألباني في الصحيحة، ح: (٢٤٤)، (١/ ٩١)، وضعفه الفهيد في النهج السديد، ح: (٧٠)، ص (٤٣).

الإحسان إلى الخلق سببًا للسبق إلى الجنان؟! وهذا بخلاف من رقى أو رقي من غير سؤال، فقد رقى جبريل النبي ﷺ، ولا يجوز أن يقال: إنه عليه السلام لم يكن متوكلاً في تلك الحال.

٣- قوله: "ليس في وقوع ذلك من جبريل عليه السلام..." إلخ. كلام غير صحيح، بل هما سيدا المتوكلين، فإن وقع ذلك منهما دل على أنه لا ينافي التوكل[١].

وسبب عدم طلبهم الرقية من غيرهم؛ لما يلي:

١- لقوة اعتمادهم على الله.

٢- لعزة نفوسهم عن التذلل لغير الله.

٣- لما في ذلك من التعلق بغير الله[٢].

ولا شك أن هذا من كمال تحقيق توكلهم على الله عز وجل.

وهذا مما يدل على الفرق بين فعل الرقية وطلبها، فيكون الطلب قادحًا دون الفعل، وهذا هو الذي يدل عليه ظاهر الحديث، وهو الراجح إن شاء الله تعالى.

ويشهد له حديث المغيرة بن شعبة عن أبيه المتقدم، أن النبي ﷺ قال: «**من اكتوى أو استرقى، فقد برئ من التوكل**»[٣].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، ص(١٠٩).

(٢) القول المفيد لابن عثيمين، (١/ ٩٧).

(٣) تقدم تخريجه، ص (٢١٧).

ومع ذلك فقد جاء الأمر الصريح منه ﷺ، بالاسترقاء:

١- كما في حديث عائشة قالت: أمرني النبي ﷺ ـ أو أمر ـ أن يسترقى من العين[١].

٢- حديث أم سلمة: أن الرسول ﷺ، قال لجارية رأي بوجهها سفعة، فقال: «**بها نظرة فاسترقوا لها**»[٢].

٣- وفي حديث أسماء بنت عميس، قالت: يا رسول الله، إن بني جعفر تصيبهم العين، أفأسترقي لهم؟ قال: «**نعم، فلو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**»[٣].

ولكن هذا يُحمل على الرخصة، والترك يحمل على الكمال؛ جمعًا بين النصوص، فإعمالها جميعًا خير من إهمال بعضها.

ثانيًا: الاكتواء:

وهو طلب من يكويه، والكي في أصله جائز، يدل على ذلك:

١- حديث جابر بن عبدالله: أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيبًا، عرقًا، وكواه عليه[٤].

---

(١) رواه البخاري في الطب، باب: رقية العين، ح: (٥٧٣٨)، (الفتح ١٠/ ٢١٠)، ومسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين، ح: (٢١٩٥)، (٤/ ١٧٢٥).

(٢) رواه البخاري في الطب، باب: رقية العين، ح: (٥٧٣٨)، (الفتح ١٠/ ٢١٠)، ومسلم في السلام، باب: استحباب الرقية من العين، ح: (٢١٩٧)، (٤/ ١٧٢٥).

(٣) رواه الترمذي في الطب، باب: ما جاء في الرقية، ح: (٢٠٥٩)، (٤/ ٢٩٥)، وقال: "حسن صحيح". وصحح إسناده الأرناؤوط في تخريجه لشرح السنة للبغوي، (١٢/ ١٦٢).

(٤) أخرجه مسلم في السلام، باب: لكل داء داواء، ح: (٢٢٠٧)، (٤/ ١٧٣٠)، وابن ماجه في الطب، باب: من اكتوى، ح: (٣٤٩٣) (٢/ ١١٥٦).

٢- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: رمي أُبَيّ يوم الأحزاب على أكحله، فكواه رسول الله ﷺ[١].

٣- وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما أيضًا، قال: إني سمعت رسول الله ﷺ، يقول: **«إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ، ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة نار»**[٢].

٤- وعن أنس رضي الله عنه: أنه كوي من ذات الجنب، والنبي ﷺ حي[٣].

وورد عنه - ﷺ - ما يدل على عدم محبته الكي؛ حيث قال في حديث جابر: **«وما أحب أن أكتوي»**[٤].

وورد عنه - ﷺ - ما يدل على النهي عنه، كما في قوله: «وأنا أنهى أمتي عن الكي»[٥].

وفي رواية الترمذي: عن عمران بن الحصين رضي الله عنهما: أن رسول

---

(١) رواه مسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، ح: (٢٢٠٧)، (٤/ ١٧٣٠).

(٢) رواه البخاري في الطب، باب: الحجامة مع الشقيقة والصداع، ح: (٥٧٠٢)، (الفتح (١٠/ ١٦٢)، ومسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، واستحباب التداوي، ح: (٢٢٠٥)، (٤/ ١٧٣٠).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب: ذات الجنب، ح: (٥٧٢١)، (١٠/ ١٨٢)، ورواه ابن ماجه عن ابن عباس في الطب، باب: في الكي، ح: (٣٤٩١)، (٢/ ١١٥٥) بنحوه.

(٤) رواه البخاري في الطب، باب: الحجامة، ح: (٥٧٢١)، (الفتح ١٠/ ١٦٢).

(٥) رواه ابن ماجه في الطب، باب: الكي، ح: (٣٤٩١)، (٢/ ١١٥٥).

الله ﷺ نهى عن الكي[١].

قال ابن القيم رحمه الله: "فقد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فعله، والثاني: عدم محبته له، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه".

قال: "ولا تعارض بينها بحمد الله؛ فإن فعله يدل على جوازه، وعدم محبته له لايدل على المنع منه، وأما الثناء على تاركه، فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه، فعلى سبيل الاختيار والكراهة، أو عن النوع الذي لايحتاج إليه، بل يفعله خوفًا من حدوث الداء. والله أعلم"[٢].

وقد ذكر ابن قتيبة أن: "الكي جنسان: كي الصحيح لئلا يعتل؛ كما يفعله كثير من أمم العجم، فإنهم يكوون ولدانهم وشبانهم من غير علة؛ يرون أن ذلك الكي يحفظ لهم الصحة، ويدفع عنهم الأسقام...". قال: وهذا هو الأمر الذي أبطله الرسول ﷺ، وقال فيه: «لم يتوكل من اكتوى»[٣]؛ لأنه ظن أن اكتواءه وإفزاعه الطبيعة بالنار، وهو صحيح، يدفع عنه قدر الله تعالى.

---

(١) رواه الترمذي في الطب، باب: ما جاء في كراهية التداوي بالكي، ح: (٢٠٤٩)، (٤/ ٣٨٩)، وقال: "حسن صحيح". ورواه الطحاوي في مشكل الآثار (٢/ ٣٨٥)، ورجاله ثقات، ورواه أبو داود في الكي، ح: (٣٨٤٧)، (عون ١٠/ ٣٤٤)، وابن ماجه في الطب، باب في الكي، ح: (٣٤٩٠)، (٢/ ١١٥).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٢٥٣)، وابن أبي شيبة (٨/ ٦٩)، ومن طريقه الطبراني في الكبير (٢٠ـ ٨٩٢)، والبخاري في الكبير، وغيرهم. من حديث: المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

وأما الجنس الآخر؛ فكي الجرح إذا نغل، وإذا سال دمه فلم ينقطع، وكي العضو إذا قطع، أو حسمه... وهذا هو الكي الذي قال النبي ﷺ: إن فيه الشفاء[١].

وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجع، ويجوز ألا ينجع؛ فإنه إلى الكراهية أقرب[٢].

وعن عمران بن حصين، أن النبي ﷺ، نهى عن الكي، قال: فابتلينا فاكتوينا، فما أفلحنا ولا أنجحنا[٣].

قال ابن سيرين: "سقى بطن عمران ثلاثين سنة، كل ذلك يعرض عليه الكي فيأبى، حتى كان قبل موته بسنتين فاكتوى"[٤].

---

(١) تأويل مختلف الحديث، ص (٣٢٩-٣٣٢).

وقوله: "هذا هو الكي الذي قال النبي ﷺ: إن فيه الشفاء". لعله يعنى به ما أخرجه البخاري في الطب، باب: الحجامة مع الشقيقة والصداع، ح: (٥٧٠٢)، ومسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، واستحباب التداوي، ح: (٢٢٠٥). من حديث: جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: ((إن كان في شيء من أدويتكم خيرٌ، ففي شرطة محجم، أو شربة عسل، أو لذعة نار)).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٦٥).

(٣) رواه الترمذي في الطب، باب: ما جاء في كراهية التداوي بالكي، ح: (٢٠٤٩)، (٤/ ٣٨٩)، وقال: "حسن صحيح". ورواه أبو داود في الكي، ح: (٣٨٤٧)، (عون ١٠/ ٣٤٤)، وابن ماجه في الطب، باب: في الكي، ح: (٣٤٩٠)، (٢/ ١١٥٤).

(٤) ينظر: طبقات ابن سعد (٤/ ٢٨٨)، وسير أعلام النبلاء (٢/ ٥١١)، وقد كان مصابًا بمرض البواسير رضي الله عنه.

وقال عمران: (وقدكان يسلَّم علي ـ يعني: الملائكة ـ حتى اكتويت؛ فتُركتُ، ثم تَرَكَتُ الكي؛ فعاد)[١].

قال ابن التين: "الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله، هو الطب الروحاني، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق، حصل الشفاء بإذن الله تعالى. فلما عز هذا النوع، فزع الناس إلى الطب الجسماني، وتلك الرقى المنهي عنها، التي يستعملها المعزم وغيره، ممن يدعي تسخير الجن له، فيأتي بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه ما يشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم، والتعوذ بمردتهم"[٢]. والكي من الطب الجسماني المحسوس.

حكم التداوي: وهل ينافي التوكل؟

وهذا يجرنا إلى الكلام على حكم التداوي، والأصل فيه: الجواز؛ فإن من هديه ﷺ، فعل التداوي في نفسه، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله وأصحابه[٣].

ومما يدل على ذلك:

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، قال: «**ما أنزل الله من داء**

---

(١) رواه مسلم في الحج، ح: (١٢٢٦)، (٢/ ٨٩٩)، وأحمد في المسند (٤/ ٤٢٧)، وابن سعد في الطبقات (٤/ ٢٩٠)، والذهبي في السير (٢/ ٥٠٩).

(٢) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٠٧).

(٣) زاد المعاد (٤/ ١٠).

إلا أنزل له شفاء»[١]. وفي رواية ابن مسعود زيادة: «**عَلِمَه من علمه، وجَهِلَه من جهله**»[٢].

٢- حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**لكل داء دواء، فإذا أصيب دواء الداء، برأ بإذن الله**»[٣].

قال ابن القيم: "وفيه: تقوية لنفس المريض والطبيب، وحث على طلب ذلك الدواء، والتفتيش عليه"[٤].

٣- عن أسامة بن شريك، قال: كنت عند النبي ﷺ، وجاءت الأعراب، فقالوا: يا رسول الله، أنتداوى؟ فقال: «**نعم ـ يا عباد الله ـ تداووا؛ فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له شفاء، غير داء واحد**». قالوا: ما هو؟ قال: «**الهرم**»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح: (٥٦٧٨)، (الفتح ١٠/ ١٤١)، وابن ماجه في الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح: (٣٤٣٩)، (٢/ ١١٣٨).

(٢) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨)، ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ١٩٦، ١٩٧).

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب: لكل داء دواء، واستحباب التداوي، ح: (٢٢٠٤)، (٤/ ١٧٢٩).

(٤) زاد المعاد (٤/ ١٧).

(٥) رواه أحمد (٤/ ٢٧٨)، وأبو داود في الطب، باب: الرجل يتداوى، ح: (٣٨٣٧)، (عون ١٠/ ٣٣٤)، والترمذي في الطب، باب: ما جاء في الدواء والحث عليه، ح: (٢٠٣٨)، (٤/ ٣٨٣)، وقال: "حسن صحيح". وابن ماجه في الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح: (٣٤٣٦)، (٢/ ١١٣٧). وصححه ابن حبان (موارد ح: ١٣٩٥، ص٣٢٩) والبوصيري في زوائده، ح: (١٩٢٤)، ص(٤٧٥).

٤- وعن أبي خزامة قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت رقى نسترقيها، ودواء نتداوى به، وتقاة نتقيها، هل ترد من قدر الله شيئًا؟ قال: «هي من قدر الله»[١].

قال ابن القيم: "وقد أجابهم النبي ﷺ، بما شفى وكفى، فقال: هذه الأدوية والرقى والتقى، هي من قدر الله، فما خرج شيء عن قدره، بل يرد قدره بقدره، وهذا الرد من قدره، فلا سبيل إلى الخروج عن قدره بوجه ما؛ وهذا كرد قدر الجوع والعطش والحر والبرد بأضدادها، وكرد قدر العدو بالجهاد، وكلٌّ ممن قدر الله، الدافع والمدفوع والدفع".

ثم قال: "قد تضمنت هذه الأحاديث، إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها... وفي الأحاديث الصحيحة الأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع داء الجوع والعطش، والحر والبرد بأضدادها... وفيها رد على من أنكر التداوي، وقال: إن كان الشفاء قد قدر، فالتداوي لا يفيد، وإن لم يكن قد قدر فكذلك.."[٢].

ولا يجوز التداوي بمحرم إلا عند الضرورة - والضرورة تقدر بقدرها، ولتفصيل ذلك مقام ليس هذا محله - وذلك فيما كان محرمًا؛ كالميتة والخنزير،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣/ ٤٢١٩)، والترمذي في الطب، باب: ما جاء في الرقى والأدوية، ح: (٢٠٦٦)، (٤/ ٣٩٩)، وابن ماجه في الطب، باب: ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء، ح: (٣٤٣٧)، (٢/ ١١٣٧).

(٢) زاد المعاد (٤/ ١٤-١٦).

أما الشرك والكفر، فلا خلاف في عدم جواز التداوي به بحال[١]؛ كحل السحر بسحر مثله، أو الذهاب إلى الكهان والعرافين، ونحوهم، وطلب الاستشفاء عندهم.

ومما يدل على ذلك ما يلي:

١- ما روى مسلم وغيره، بإسناده إلى طارق بن سويد، قال: سأل النبي ﷺ، عن الخمر يصنعها للدواء؟ فقال: ((**إنه ليس بدواء، ولكنه داء**))[٢].

٢- وعن أم سلمة قالت: اشتكت ابنة لي، فنبذت لها في كوز، فدخل النبي ﷺ، وهو يغلي، فقال: «**ما هذا؟**». فقلت: إن ابنتي اشتكت فنبذت لها هذا، فقال ﷺ: «**إن الله لم يجعل شفاءكم في حرام**»[٣].

٣- وعن أبي الدرداء، أن النبي ﷺ، قال: «**إن الله أنزل الداء والدواء، وجعل لكل داء دواء، فتداووا، ولا تداووا بحرام**»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٦١).

(٢) رواه مسلم في الأشربة، باب: تحريم التداوي بالخمر، ح: (١٩٨٤)، (٣/ ١٥٧٣)، وأبو داود في الأدوية المكروهة، ح: (٣٨٥٦)، (عون ١٠/ ٣٥٤)، وابن ماجه في الطب، باب: النهي أن يتداوى بالخمر، ح: (٣٥٠٠)، (٢/ ١١٥٧)، والترمذي في الطب، باب: كراهة التداوي بالمسكر، ح: (٢٠٤٦)، (٤/ ٣٨٧)، وقال: "حسن صحيح". والدارمي في مسنده في الأشربة، باب: ليس في الخمر شفاء، ح: (٢١٠١)، (٢/ ٣٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ٤).

(٣) رواه البيهقي (١٠/ ٥)، وابن حبان (الموارد، ح: ١٣٩٧، ص٣٣٩)، وذكره البخاري عن ابن مسعود.

(٤) رواه أبو داود في الأدوية المكروهة، ح: (٣٨٢٥)، (عون ١٠/ ٣٥١)، وفي إسناده: إسماعيل بن عياش، ثقة في الشاميين، ضعيف في الحجازيين، وروايته هنا عن شامي، وفيه أيضًا: ثعلبة بن مسلم، قال عنه الحافظ: "مستور". انظر: التقريب ص (١٨٩)، ط: أبو الأشبال.

وقد اختلف العلماء في التداوي، هل هو مباح، وتركه أفضل؟ أم مستحب؟ أم واجب؟ فالمشهور عند أحمد الأول؛ لهذا الحديث وما في معناه.

والمشهور عند الإمام الشافعي الثاني، حتى ذكر النووي في شرح مسلم، أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف والخلف، واختاره الوزير ابن المظفر. قال: ومذهب أبي حنيفة أنه مؤكد، حتى يداني به الوجوب. قال: ومذهب مالك: أنه يستوي فعله وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي ولا بأس بتركه.

وقال شيخ الإسلام: "ليس بواجب عند جماهير الأئمة، إنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد"(١).

وعلى كلٍّ؛ فالتداوي من الأسباب التي أمر الله تعالى باتخاذها، من غير اعتماد عليها كما تقدم، ويختلف حكمه باختلاف الحال، كما فصَّل ذلك العلامة ابن عثيمين رحمه الله؛ حيث قال: "والصحيح:

١- أن ما علم أو غلب على الظن نفعه، مع احتمال الهلاك بعدمه؛ فهو واجب.

٢- ما غلب على الظن نفعه، لكن ليس هناك هلاك محقق بتركه؛ فهو أفضل.

٣- ما تساوى في الأمران، فتركه أفضل"(٢).

وبهذا يمكن الجمع بين أقوال الأئمة الآنفة الذكر.

---

(١) ينظر: تيسير العزيز الحميد، ص (١١١، ١١٢).

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد (٢/ ١٠١)، الهامش.

ثالثًا: التطير:

الطِيَرة: بكسر الطاء وفتح الياء، وقد يسكن، اسم مصدر من تطير طيرة، كما يقال: تخير خيرة، ولم يجيء في المصادر هكذا غيرهما.

وأصله من التطير بالسوانح والبوارح من الطير والضباء، وغيرهما[١].

وصفته قديمًا: أن العرب كانوا إذا أرادوا أمرًا نفروا الطير، فإن طار يمنة تفاءلوا به وتيمنوا، ومضوا إلى حاجتهم، وإن طار يسرة، تشاءموا به، وقعدوا عن حاجتهم.

قال المدائني: "سألت رؤبة، قلت: ما السانح؟ قال: ما ولاك ميامنه، قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره، والذي يجيء من أمامك فهو الناطح، والذي يجيء من خلفك، فهو القاعد والقعيد"[٢].

ثم صار اسمًا للتشاؤم بكل مرئي ومسموع ومعلوم[٣].

ويدخل فيه: التشاؤم بالأسماء والألفاظ، والأشخاص والأرقام، والألوان والشهور والأيام، ونحو ذلك.

قال ابن عبدالبر: "ثم استعملوا ذلك في كل شيء من الحيوان وغير

---

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (ط ي ر)، (٣/ ١٥٢)، ولسان العرب (٤/ ٥١٢).

(٢) انظر: تيسير العزيز الحميد، ص (٤٢١).

(٣) انظر: القول المفيد (٢/ ٧٧).

الحيوان، فتطيروا من الأعور والأعضب والأبتر"[١]. وقال الراغب: "ثم يستعمل في كل ما يتفاءل به ويتشاءم"[٢].

ومن صور التطير المعاصرة: التشاؤم ببعض الأسماء والأشخاص الذين بهم عاهات؛ كالعور والعرج ونحوها، والتشاؤم ببعض الأرقام؛ كرقم سبعة، أو ثلاثة عشر ونحوها، أو ببعض الألوان؛ كالسواد خاصة في أول السنة، أو ببعض الأيام؛ كالثلاثاء والأربعاء، أو الشهور؛ كصفر وشوال غير ذلك.

موقف الإسلام من التطير:

من خلال استقراء النصوص الشرعية، وأقوال العلماء في مسألة التطير نلاحظ ما يلي:

أولاً: أن التطير من أعمال الجاهلية:

ولذلك لم يذكره الله تعالى في القرآن إلا عن أعدائه، ومن ذلك:

أ - قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وطائرهم هنا: أي ما قضي عليهم وقُدِّر لهم، أو شؤمهم إنما جاءهم من قبله تعالى[٤].

---

(١) التمهيد (٩/ ٢٨٢).

(٢) المفردات، ص (٣١٠).

(٣) سورة الأعراف، آية: (١٣١).

(٤) انظر تفسيرها في زاد المسير (٣/ ١٦٨) بنحوه.

ب – وقوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[١].

جـ – وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾. إلى قوله تعالى: ﴿قَالُواْ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ قَالَ طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾[٢].

ثانيًا: أن الطيرة من المحرمات الشركية:

ومما يدل على ذلك:

أ – حديث ابن مسعود رضي الله عنه، يرفعه: «**الطيرة شرك، الطيرة شرك**». وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل[٣].

ب – حديث عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، قال: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «**أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك**»[٤].

---

(١) سورة يس، آيات: (١٣-١٩).

(٢) سورة النمل، الآيات: (٤٥-٤٧).

(٣) تقدم تخريجه، ص (١٤٨).

(٤) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠)، وابن السني (٢٩٣)، عن عبدالله بن عمرو، وعزاه الهيثمي للطبراني أيضًا (٥/ ١٠٥)، وقال: "فيه: ابن لهيعة، وحديثه حسن، وبقية رجاله ثقات". وصحح إسناده الشيخ الألباني.

ج – وعن قطن بن قبيصة عن أبيه، أن النبي ﷺ، قال: «**العيافة والطَّرْق والطيرة من الجبت**»[١].

ثالثًا: أنه لا ارتباط بين الأعيان المتطير بها، وبين جلب المنافع ودفع المضار:

قال القرطبي: "قال علماؤنا: وأما أقوال الطير؛ فلا تعلق لها بما يجعل دلالة عليه، ولا لها علم بكائن، فضلاً عن مستقبل فتخبر به، ولا في الناس من يعلم منطق الطير، إلا ما كان الله خص به سليمان ـ ﷺ ـ من ذلك، فالتحق التطير بجملة الباطل"[٢].

ومما يدل على عدم الارتباط بين تلك الأعيان، وبين جلب المنافع ودفع المضار، ما يلي:

١ – حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر**»[٣]. زاد مسلم: «**ولا نوء ولا غول**».

وتابعه ابن وهب، وهو ممن رواه عن ابن لهيعة قبل اختلاطه، وقد صرح ابن لهيعة بالتحديث، فانتفت شبهة التدليس. انظر: السلسلة الصحيحة، ح: (١٠٦٥)، (٣/ ٥٤)، والنهج السديد، ص (١٦٣).

(١) رواه عبدالرزاق في المصنف، باب الطيرة، ح: (١٩٥٠٢)، (١٠/ ٤٠٣)، وعنه البغوي في شرح السنة، (١٢/ ١٧٧)، ورواه أبو داود في الطب، باب: في الخط وزجر الطير، ح: (٣٨٨٩)، (عون ١٠/ ٤٠٣)، وابن حبان ـ كما في الموارد ـ، ح: (١٤٢٦)، (ص٣٤٥). قال المنذري: "وأخرجه النسائي. وحسنه النووي، وفيه: حيان أبو العلاء لم يوثقه غير ابن حبان".

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦).

(٣) رواه البخاري في الطب، باب: لا هامة، ح: (٥٧٥٧)، (الفتح ١٠/ ٢٢٦)، ومسلم في كتاب السلام، ح: (٢٢٢٠، ٢٢٢٢)، (٤/ ١٧٤٤).

قوله: ((ولا)). هنا: للنفي لا للنهي. والنفي هنا أبلغ؛ لأن النفي يدل على البطلان وعدم التأثير، والنهي إنما يدل على المنع منه[١].

٢- حديث أنس عن النبي ﷺ، قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**». قالوا: وما الفأل؟ قال: «**الكلمة الطيبة**»[٢].

٣- حديث عروة بن عامر، قال: قال أحمد القرشي: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك**»[٣].

٤- حديث معاوية بن الحكم السلمي، قال: قلت: يا رسول الله، إن منا رجالاً يأتون الكهان؟ قال: «**فلا تأتهم**». قال: ومنا أناس يتطيرون؟ فقال: «**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم**»[٤][٥].

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص (٥٨٨). وانظر: تيسير العزيز الحميد، ص (٤٢٧).

(٢) رواه البخاري في الطب، باب: الفأل، ح: (٥٧٥٥)، بنحوه (الفتح ١٠/ ٢٢٤)، ومسلم واللفظ له في السلام، باب: الطيرة والفأل، ح: (٢٢٢٤)، (٤/ ١٧٤٦)، وأبو داود في الطيرة، ح: (٣٨٩٦)، (عون ١٠/ ٤١٣)، وابن ماجه في الطب، باب: من كان يحب الفأل، ح: (٣٥٣٧)، (٢/ ١١٧٠)، وأحمد في المسند (٣/ ١١٢، ١٣٠، ١٥٤، ١٧٣، ١٧٨) بنحوه.

(٣) رواه أبو داود في الطيرة، ح: (٣٩٠٠)، (عون ١٠/ ٤١٥)، وفي إسناده مقال؛ لأنه من رواية حبيب بن أبي ثابت ـ وهو مدلس، وقد عنعن ـ عن عروة بن عامر، وهذا مختلف في صحبته. قال الحافظ في التهذيب (٧/ ١٨٥): "الظاهر أن رواية حبيب عنه ـ أي: عن عروة ـ منقطعة". وقد رجح المنذري إرساله، كما في عون المعبود (١٠/ ٤١٦).

(٤) رواه مسلم في السلام، باب: تحريم الكهانة، ح: (٥٣٧)، (٤/ ١٧٤٨)، وأخرجه عبدالرزاق في المصنف، ح: (١٩٥٠٠)، (١٠/ ٤٠٢).

(٥) قال ابن القيم في مفتاح دار السعادة ص (٥٨١): "فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالتطير، إنما هو في

رابعًا: تحريم الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نفسه من التطير:

يدل على ذلك:

١- حديث معاوية بن الحكم السلمي، المتقدم.

٢- حديث عروة بن عامر المتقدم، وفيه: «**أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا**».

٣- حديث الفضل بن عباس: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»(١).

٤- حديث إسماعيل بن أمية، قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة لايعجزهن ابن آدم: الطيرة، وسوء الظن، والحسد**». قال: «**فينجيك من الطيرة ألا تعمل بها، وينجيك من سوء الظن ألا تتكلم به، وينجيك من الحسد ألا تبغي أخاك سوءًا**»(٢).

٥- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن مضيت فمتوكل، وإن نكصت فمتطير)(٣).

نفسه وعقيدته، لا في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه، هو الذي يطيره ويصده، لا ما رآه وسمعه، فأوضح ـ ﷺ ـ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة؛ ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سببًا لما يخافونه ويحذرونه؛ لتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى...".

(١) رواه أحمد (١/ ٢١٣)، وسنده ضعيف؛ لجهالة مسلمة الجهني، والانقطاع بينه وبين الفضل. انظر: التهذيب (٨/ ٢٨٠)، والنهج السديد، ص(١٦٣).

(٢) رواه عبدالرزاق في مصنفه، ح: (١٩٥٠٤)، (١٠/ ٤٠٣)، والبيهقي في شعب الإيمان، ح: (١١٧٢)، (٢/ ٦٣)، من طريقه. وهو منقطع؛ فإسماعيل بن أمية شيخ معمر، من السادسة، لم يسمع من النبي ﷺ.

(٣) رواه عبدالرزاق في مصنفه، ح: (١٩٥٠٥)، (١٠/ ٤٠٤).

خامسًا: نهى النبي ﷺ عن تنفير الطير:

كما في حديث أم كرز الكعبية، قالت: وسمعت النبي ﷺ، يقول: «**أقروا الطير على مِكناتها**»(١). بكسر الميم، وقد تفتح(٢). قال القرطبي: "هكذا في الحديث، وأهل العربية يقولون: وكناتها"(٣).

سادسًا: الإخبار عنه ﷺ بأنه كان لا يتطير:

كما في حديث بريدة أن النبي ﷺ، كان لا يتطير من شيء(٤).

سابعًا: مدح النبي ﷺ لمن ترك التطير:

كما في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وقد تقدم(٥).

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٨١)، وابن حبان كما في الموارد، ح: (١٤٣١)، ص (٣٤٥)، وأبو داود في الأضاحي، باب: في العقيقة، ح: (٢٨١٨)، (عون ٨/ ٣٦)، وقال: "منقطع". ورواه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣٧)، وصححه ووافقه الذهبي، وأبو نعيم في الحلية (٩/ ٥٩)، وذكره الهيثمي في المجتمع (٥/ ١٠٦)، وقال: "رواه الطبراني بأسانيد، ورجال أحدها ثقات".

(٢) قال في النهاية (٤/ ٣٥٠): "المُكِنات في الأصل: بيض الضِّباب؛ واحدتها مُكِنه، بكسر الكاف وقد تفتح، وقيل: المكِنات، بمعنى: الأمكنة والمساكن".

(٣) الجامع لأحكام القرآن ٧/ ٢٦٥.

(٤) رواه أحمد (٥/ ٤٧، ٣٤٨)، وأبو داود في الطب، باب: في الطيرة، ح: (٣٩٠١)، (عون ١٠/ ٤١٦)، بأطول مما هنا، والبيهقي في السنن الكبرى (٨/ ١٤٠)، وعزاه المنذري إلى النسائي أيضًا، وحسن الحافظ ابن حجر إسناده، كما في الفتح (١٠/ ٢٢٦).

(٥) ص (١٥٤).

ثامنًا: شدة حذر السلف من ذلك:

وما يدل على ذلك:

١- قول عكرمة: كنا جلوسًا عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال ابن عباس: ما عند هذا خير ولا شر[١].

فبادره ابن عباس بالإنكار عليه؛ لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

٢- روى عبدالرزاق بإسناده، إلى زياد بن أبي مريم، قال: كان سعد بن أبي وقاص غازيًا، فبينا هو يسير، إذ أقبل في وجوههم ظباء يَسْعَين، فلما اقتربن منهم، ولين مدبرات، فقال له الرجل: أنزل أصلحك الله، فقال له سعد: مم تطيرت؟ أمن قرونها حين أقبلت، أم من اذنابها حين أدبرت؟ إن هذه الطيرة لباب من الشرك. قال: فلم ينزل سعد ومضى[٢].

٣- خرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير، فقال طاوس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني[٣].

٤- قال ابن عبدالحكم: لما خرج عمر بن عبدالعزيز من المدينة، قال: مزاحم: فنظرت، فإذا القمر في الدبران، فكرهت أن أقول له، فقلت: ألا تنظر إلى القمر، ما أحسن استواءه في هذه الليلة. قال: فنظر عمر؛ فإذا هو في

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن (٧/ ٢٦٦)، فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

(٢) المصنف، ح: (١٩٥٠٦)، (١٠/ ٤٠٤).

(٣) رواه عبدالرزاق في مصنفه، ح: (٩٥١٣)، (١٠/ ٤٠٦). وانظر: مفتاح دار السعادة، ص(٥٨٩).

الدبران، فقال: كأنك أردت أن تعلمني أن القمر في الدبران؛ يا مزاحم، إنا لا نخرج بشمس ولا قمر، ولكنا نخرج بالله الواحد القهار[١].

تاسعًا: نفور ذوي العقول السليمة والطباع المستقيمة منه، وإن كانوا من أهل الجاهلية:

قال الحافظ ابن حجر: "كان بعض أهل الجاهلية ينكر التطير، ويمدح بتركه"[٢].

قال شاعرهم[٣]:

وَلَقَدْ غَدَوْتُ وكُنْتُ لاَ ... أَغْدُو عَلَى وَاقٍ وَحَاتِمِ[٤]

فَإِذَا الأَشَائِمُ كَالأَيَا ... مِنِ وَالأَيَامِنُ كَالأَشَائِمِ

وَكَذَاكَ لاَ خَيْرٌ وَلاَ ... شَرٌّ عَلَى أَحَدٍ بِدَائِمِ

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة، ص (٥٨٩)، تيسير العزيز الحميد، ص (٤٢٨).

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣).

(٣) قال ابن قتيبة في تأويل مشكل الحديث ص (١٠٦): "هذه القصيدة للمُرَقِّش". وكذلك قاله القرطبي في التفسير (٧/ ٢٦٥)، وابن عبدالبر في التمهيد (٩/ ٢٨٧).

وقال المعلق في التأويل: "وتروى لخزز بن لوذان السدوسي، وأولها:

لا يمنعك مِنِ بغاء الخير تعقاد التمائم

وآخرها:

قد خُط ذلك في الزبر الأوَّليات القدائم".

(٤) الواق: الصدر، وهو طائر أبقع، ضخم الرأس، نصفه أبيض ونصفه أسود. والحاتم: الغراب الأسود.

وقال آخر[١]:

وَلَـيسَ بِهَيَّـابٍ إذا شَـدَّ رَحْلَـهُ يَقُولُ عَدَانِي اليَـومَ وَاقٌ وَحَـاتُمٌ

وَلَكِنَّـهُ يَمْـضِي عَـلَى ذاكَ مُقْـدَمًا إذَا صُدَّ عَنْ تِلْـكَ الهَـاتِ الخَثَـارِمُ

قال ابن قتيبة: "الخثارم؛ هو: الـذي يتطـير، والـواق: الـصرد، والحـاتم: الغراب"[٢].

وقال آخر:

والزَّجْـرُ والطَّـيْرُ والكُهَّـانُ كُلُّهُـمُ مُضَلِّلُون، وَدَونَ الغَيْـبِ أقْفَـالُ

وقال آخر:

وما عاجلات الطير تدني من الفتى نجاحًا ولاعـن ريـثهن قـصور

وقال آخر:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع[٣]

عاشرًا: بيان كفارة ذلك الإثم، لمن وجد في نفسه شيئًا منه:

يدل على هذا حديث ابن عمرو المتقدم: «**من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك**». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «**أن تقول: اللهم لا خير إلا خـيرك، ولا**

(١) هو: الرقاص الكلبي. قاله السيرافي. من حاشية تأويل مختلف الحديث، ص (١٠٦).

(٢) تأويل مختلف الحديث، ص (١٠٦).

(٣) هذه الأبيات الثلاثة، من فتح الباري (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤).

طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[١]. فهذا كفارة الطيرة بعد وقوعها.

أما لدفع وقوعها ـ وذلك عندما يجد أثرها في نفسه قبل أن يعمل ـ فقد جاء في حديث عروة بن عامر ـ المتقدم أيضًا ـ عن النبي ﷺ، قال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلمًا، فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[٢].

الحادي عشر: الآثار النفسية السلبية للمتطير:

قال الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله: "واعلم: أن من كان معتنيًا بها، قابلاً بها، كانت إليه أسرع من السيل إلى منحدره، وتفتحت له أبواب الوساوس فيما يسمعه ويراه ويعطاه، ويفتح له الشيطان فيها من المناسبات البعيدة والقريبة في اللفظ والمعنى، ما يفسد عليه دينه، وينكد عليه عيشه، فالواجب على العبد التوكل على الله، ومتابعة رسول الله ﷺ، وأن يمضي لشأنه، لا يرده شيء من الطير عن حاجته، فيدخل في الشرك"[٣].

وقال الشيخ عبدالرحمن بن سعدي رحمه الله، مبينًا أثر التطير في قلب المتطير: "أثَّر في قلبه أحد أمرين؛ أحدهما أعظم من الآخر:

أحدهما: أن يستجيب لذلك الداعي؛ فيترك ما كان عازمًا على فعله، أو

---

(١) تقدم تخريجه، ص (٢٣٠).

(٢) تقدم تخريجه، ص (٢٣٢).

(٣) تيسير العزيز الحميد، ص (٤٢١).

بالعكس؛ فيتطير بذلك، وينكص عن الأمر الذي كان عازمًا عليه، فهذا ـ كما ترى ـ قد علق قلبه بذلك المكروه غاية التعليق، وعمل عليه، وتصرف ذلك المكروه في إرادته وعزمه وعمله، فلا شك أنه على هذا الوجه أثر على إيمانه، وأخل بتوحيده وتوكله، ثم بعد هذا لا تسأل عما يحدثه له هذا الأمر، من ضعف القلب، ووهنه وخوفه من المخلوقين، وتعلقه بالأسباب، وبأمور ليست أسبابًا، وانقطاع قلبه من تعلقه بالله، هذا من ضعف التوحيد والتوكل، ومن طرق الشرك ووسائله، ومن الخرافات المفسدة للعقل.

الأمر الثاني: ألا يستجيب لذلك الداعي، ولكنه يؤثر في قلبه حزنًا وهمًا وغمًا، فهذا وإن كان دون الأول، لكنه شر وضرر على العبد، وضعف لقلبه، وموهن لتوكله، وربما أصابه مكروه، فظن أنه من ذلك الأمر، فقوي تطيره، وربما تدرج به إلى الأمر الأول.

فهذا التفصيل؛ يبين لك وجه كراهة الشرع للطيرة وذمها، ووجه منافاتها للتوحيد والتوكل، وينبغي لمن وجد شيئًا من ذلك، وخاف أن تغلبه الدواعي الطبيعية، أن يجاهد نفسه على دفعها، ويستعين بالله على ذلك، ولا يركن إليها بوجه ليندفع الشر عنه"[1].

ووجه منافاة التطير للتوحيد والتوكل، من أمور خمسة:

١- كونها من إلقاء الشيطان، وتخويفه ووسوسته.

---

(١) القول السديد، ص (٣٢)، ضمن المجموعة الكاملة، المجلد (٣).

٢- كونها من ادعاء علم الغيب.

٣- فيها: التعلق بغير الله تعالى، خوفًا وطمعًا.

٤- فيها: الاعتماد على الأسباب الوهمية التي لا حقيقة لها، وإنما يتخيلها الإنسان أسبابًا، وهي ليست بأسباب؛ لا شرعية ولا قدرية، وهذا ينافي التوكل.

٥- فيها: اعتقاد النفع والضر من غير الله تعالى، وهذا شرك في الربوبية.

هل التشاؤم من الطيرة الشركية؟ وكيف الجمع بين النصوص الدالة على تحريم الطيرة، وبين الأحاديث التي يثبت ظاهرها التشاؤم؟:

تقدم تعريف الطيرة، بأنها التشاؤم بكل مرئي ومسموع ومعلوم؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر: "الطيرة والشؤم بمعنى واحد"[1].

وقد وردت بعض الأحاديث، التي يفهم من ظاهرها إثبات الشؤم في بعض الأشياء، وهذا يُشْكل مع الأحاديث الكثيرة المتقدمة، التي تنفي الطيرة وتأثيرها، وتحرم تعاطيها، ونحن ـ هنا ـ نذكر أقوال العلماء في هذه المسألة المشكلة مع أدلتهم، ومناقشة هذه الأدلة، للتوصل إلى الراجح فيها، بإذن الله تعالى.

وقبل ذلك نشير إلى الأحاديث التي يظهر فيها، إثبات الشؤم في الأعيان

(١) فتح الباري (٦/ ٧٢)، (١٠/ ٢٢٣).

الثلاثة؛ وهي: المرأة والدار والدابة، وفي بعض الروايات: إضافة السيف[١]، وأضاف بعضهم: الخادم[٢].

١- حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: سمعت النبي ﷺ، يقول: «**إنما الشؤم في ثلاثة: في الفرس، والمرأة، والدابة**»[٣].

٢- حديث مالك في الموطأ، عن يحيى بن سعيد: أن امرأة جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، دار سكنّاها والعدد كثير، والمال وافر، فقلّ العدد وذهب المال، فقال النبي ﷺ: «**دعوها ذميمة**». وفي رواية: «**ذروها ذميمة**»[٤].

وقد اختلف العلماء في الجمع بين هذه الأحاديث، والأحاديث الناهية والنافية للتطير، على أقوال شتى، نجملها في أربعة أقوال، وهي كما يلي:

الأول: حملوا هذه الأحاديث على ظاهرها، وقالوا بإباحة التشاؤم من

---

(١) عن أم سلمة، رواه عبدالرزاق في المصنف، ح: (١٩٥٢٧)، (١٠/ ٤١١).

(٢) كما في حديث جابر يرفعه، رواه مسلم في السلام، باب: الطيرة والفأل... ح: (٢٢٢٧)، (٤/ ١٧٤٨). وانظر: التمهيد لابن عبدالبر (٩/ ٢٧٩).

(٣) رواه البخاري في الجهاد والسير، باب: ما يذكر من شؤم الفرس، ح: (٢٨٥٨)، (٦/ ٧١)، وفي النكاح، باب: ما يتقى من الشؤم المرأة، ح: (٥٠٩٣)، (٩/ ٤٠)، ومالك في الموطأ، باب: ما يتقى من الشؤم (٢/ ٩٧٢)، وأبو داود في الطب، ح: (٣٩٠٣)، (١٠/ ٤١٨).

(٤) رواه الإمام مالك في الموطأ (٢/ ٩٧٢)، بسند معضل، ورواه أبو داود في الطب، باب: في الطيرة، ح: (٣٩٠٥)، (عون ١٠/ ٤٢٢)، عن أنس.

ورواه عبدالرزاق في المصنف، ح: (١٩٥٢٦)، (١٠/ ٤٠٧)، والبخاري في الأدب المفرد (٩١٨)، بإسناد حسن، قال ابن عبدالبر في التمهيد (٢٤/ ٦٨): "هذا حديث محفوظ عن أنس وغيره". وصححه الشيخ جاسم الفهيد، في النهج السديد، ح: (٣١٩)، ص(١٥٨).

هذه الثلاث، فتحريم التطير عام، خص منه هذه الأمور الثلاثة.

وممن ذهب هذا المذهب الإمام مالك، وابن قتيبة، والشوكاني.

قال الإمام مالك ـ تعليقًا على حديث المرأة المتقدم ـ: "هو على ظاهره، وإن الدار قد يجعل الله ـ تبارك وتعالى ـ سكانها سببًا للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعينة، أو الفرس، أو الخادم، وقد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالى"(١).

وقال ابن قتيبة: "إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون، فنهاهم النبي ﷺ، وأعلمهم أنه لا طيرة، فلما أبوا أن ينتهوا، بقيت الطيرة في هؤلاء الثلاث..."(٢).

قال الحافظ ابن حجر: "فمشى ابن قتيبة على ظاهره، ويلزم من قوله أن من تشاءم بشيء منها، نزل به ما يكره"(٣).

قال القرطبي: "ولا يظن به أنه يحمله على ما كانت الجاهلية تعتقده، بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته؛ فإن ذلك خطأ، وإنما عنى أن هذه الأشياء هي أكثر ما يتطير به الناس، فمن وقع في نفسه شيء، أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره"(٤).

---

(١) ينظر: نيل الأوطار (٧/ ٢٠٩).

(٢) ينظر: فتح الباري (٦/ ٧٢).

(٣) المصدر نفسه (٦/ ٧٢).

(٤) ينظر: فتح الباري (٦/ ٧٢).

قال الشوكاني: "والراجح: ما قاله مالك؛ وهو الذي يدل عليه حديث أنس الذي ذكرنا ـ حديث المرأة ـ فيكون حديث الشؤم مخصصًا لعموم حديث: «لا طيرة». فهو في قوة: «لا طيرة». إلا في هذه الثلاث.

وقد تقرر في الأصول: أنه يبنى العام على الخاص من جهل التاريخ، وادعى بعضهم أنه إجماع، والتأريخ في حديث الطيرة والشؤم مجهول"[١].

الثاني: وقالت طائفة: إن أحاديث إثبات الشؤم منسوخة.

قال الحافظ ابن حجر: "حكاه ابن عبدالبر"[٢] يعني أنه نسخ، بقوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ﴾[٣].

قال الحافظ: "والنسخ لا يثبت بالاحتمال، لا سيما مع إمكان الجمع، ولا سيما وقد ورد في نفس الخبر نفي التطير، ثم إثباته في الأشياء المذكروة..."[٤].

الثالث: وطائفة تأولت حديث الشؤم تأويلات كثيرة؛ منها:

١ - أن النبي ﷺ، ذكر ذلك لبيان اعتقاد الناس في ذلك، لا أنه إخبار من النبي ﷺ بثبوت ذلك.

وهذا التأويل مردود من وجهين:

أ - أن سياق الأحاديث الصحيحة المتقدمة، يبعد هذا التأويل.

---

(١) نيل الأوطار (٧/ ٢٠٩).

(٢) فتح الباري (٦/ ٧٤). وانظر: التمهيد (٩/ ٢٩٠).

(٣) سورة الحديد، آية: (٢٢).

(٤) فتح الباري (٦/ ٧٤).

ب – قال ابن العربي: "هذا جواب ساقط؛ لأن النبي ﷺ، لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة، وإنما بعث ليعلمهم ما يلزمهم أن يعتقدوه"[١].

٢- ومنهم: من تأوله بأن معنى شؤم المرأة؛ إذا كانت غير ولود، وشؤم الفرس؛ إذا لم يغز عليها، وشؤم الدار؛ جار السوء[٢].

وقيل: يحمل ذلك على قلة الموافقة وسوء الطباع.

ويستدلون لذلك بحديث سعد بن أبي وقاص، قال: قال النبي ﷺ: «**من سعادة ابن آدم ثلاثة، ومن شقاوة ابن آدم ثلاثة؛ من سعادة ابن آدم: المرأة الصالحة، والمسكن الصالح، والمركب الصالح. ومن شقاوة ابن آدم: المرأة السوء، والمسكن السوء، والمركب السوء**»[٣].

٣- وقيل: على المرء مفارقة هذه الأشياء عند وجود كراهتها في قلبه؛ وذلك صيانة لاعتقاده عن التعلق بالباطل، وسدًا للذريعة، حيث يخشى من شدة الكراهة، أن يعتقد فيها التطير والشؤم، فيقع في المحذور، فجاز له مفارقتها.

ويمكن أن يستدل لهذا، بحديث فروة بن مُسَيْك، قال: قلت: يا رسول الله، أرض عندنا يقال لها أرض (أبين)، هي أرض ريفنا وميرتنا، وإنها وبئة -

---

(١) ينظر: فتح الباري (٦/ ٧٣).

(٢) أعلام الحديث للخطابي (٢/ ١٣٧٩)، ومفتاح دار السعادة، ص (٦١٢).

(٣) رواه أحمد (١/ ١٦٨)، وروى نحوه الحاكم في المستدرك (٢/ ١٦٢)، وحسنه الألباني في الصحيحة، ح: (١٠٤٧)، (٣/ ٣٩).

أو قال: وباؤها شديد ـ فقال النبي ﷺ: «**دعها، إن من القرَف التلف**»[١].
و«**القَرَف**» بالتحريك، يعني: مقاربة الوباء ومداناة المرضى، و«**التلف**».
بوزنه: الهلاك.

٤- وقيل: معنى هذا الحديث: أن هذه الأشياء يطول تعذيب القلب بها، مع كراهة أمرها؛ لملازمتها بالسكنى والصحبة، ولو لم يعتقد الإنسان الشؤم فيها، فأشار الحديث إلى الأمر بفراقها؛ ليزول التعذيب، فحمل الشؤم على الكراهة، لا على التعذيب الحقيقي.

قال الخطابي: "هو استثناء من غير الجنس، ومعناه: إبطال مذهب الجاهلية في التطير، فكأنه قال: إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس يكره سيره، فليفارقه"[٢].

٥- وقيل: معنى الحديث: إخباره ﷺ عن الأسباب المثيرة للطيرة، الكامنة في الغرائز، يعني: أن المثير للطيرة في غرائز الناس هي هذه الثلاثة، فأخبرنا بهذا؛ لنأخذ الحذر منها، فقال: «**الشؤم في الدار والمرأة والفرس**». أي: أن الحوادث التي تكثر مع هذه الأشياء، والمصائب التي تتوالى عندها، تدعو الناس إلى التشاؤم بها، فقال: الشؤم فيها؛ أي: أن الله قد يقدره فيها على قوم دون قوم، فخاطبهم ـ ﷺ ـ بذلك؛ لما استقر عندهم منه ﷺ من إبطال

---

(١) رواه أبو داود في الطب، باب: في الطيرة، ح: (٣٩٠٤)، عون (١٠/ ٤٢٢). قال المنذري: "في إسناده رجل مجهول".

(٢) معالم السنن (٤/ ٢١٨). وينظر: فتح الباري (٦/ ٧٣-٧٤).

الطيرة، وإنكار العدوى[١].

٦- وقيل: المخاطب بقوله: «الشؤم في ثلاث». مَن التزم التطير ولم يستطع صرفه عن نفسه، فقال لهم: إنما يقع ذلك في هذه الأشياء، التي تلازم في غالب الأحوال، فإذا كان كذلك فاتركوها عنكم، ولا تعذبوا أنفسكم بها.

ويدل على ذلك تصديره بنفي الطيرة، واستدل عليه بحديث: «**لا طيرة، والطيرة على من تطير، وإن تكن في شيء ففي المرأة...**». الحديث[٢].

قال ابن القيم: "قالت طائفة أخرى: الشؤم في هذه الثلاثة، إنما يلحق من تشاءم بها وتطير بها، فيكون شؤمها عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير، لم تكن مشؤومة عليه"[٣].

الرابع: وأنكرت طائفة هذا الحديث، وطعنت في ثبوته؛ وذلك لما يلي:

١- روى أحمد وابن خزيمة والحاكم، من طريق قتادة، عن أبي حسان، أن

---

(١) مفتاح دار السعادة، ص (٦١٣).

(٢) رواه الطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤)، وابن جرير في تهذيب الآثار، ح: (٥٢)، (١/ ١٩) و (٧٣)، (١/ ٢٤)، وابن حبان في صحيحه كما الموارد، ح: (١٤٢٨)، ص (٣٢٥)، عن أنس.

وفيه: عتبة بن حميد ضعفه أحمد، وقال ابن أبي حاتم: "صالح الحديث". وقال الحافظ في الفتح (٦/ ٧٤): "في صحته نظر؛ لأنه من رواية عتبة بن حميد.. وعتبة مختلف فيه".

وينظر: النهج السديد، ص (١٥٦)، ولكنه يشهد له حديث: سعد بن أبي وقاص، الوارد تخريجه ص (٢٤٦)، وإسناده حسن.

(٣) مفتاح دار السعادة، ص (٦١٢).

رجلين من بني عامر، دخلا على عائشة، فقالا: إن أبا هريرة قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**الطيرة في الفرس والمرأة والدار**». فغضبت غضبًا شديدًا، وقالت: ما قاله، وإنما قال: «**إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك**».

وفي رواية: فأنكرت عائشة رضي الله عنها ذلك، وقالت: كذب ـ والذي أنزل الفرقان على أبي القاسم ـ من حدّث بهذا، ولكن رسول الله ﷺ، كان يقول: «**كان أهل الجاهلية يقولون: إن الطيرة في المرأة والدار والدابة**». ثم قرأت عائشة: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1] [2].

٢- وروى أبو داود الطيالسي في مسنده، عن محمد بن راشد، عن مكحول، قال: قيل لعائشة: إن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**الشؤم في ثلاثة...**». فقالت: لم يحفظ، إنه دخل وهو يقول: «**قاتل الله اليهود يقولون: الشؤم في ثلاثة..**». فسمع آخر الحديث، ولم يسمع أوله[3].

قال الحافظ ابن حجر: "ولا معنى لإنكار ذلك على أبي هريرة، مع

---

(١) سورة الحديد، آية: (٢٢).

(٢) رواه أحمد (٦/ ٢٤٦)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٧٩) مختصرًا، وصححه ووافقه الذهبي، وقال الهيثمي ـ مجمع الزوائد (٥/ ١٠٤) ـ عن إسناد أحمد: "رجاله رجال الصحيح". وحسن إسناده الشيخ جاسم الدوسري، في النهج السديد، وصححه الألباني في الصحيحة، ح: (٩٩٣).

(٣) رواه أبو داود الطيالسي، ح: (١٥٣٧)، وإسناده منقطع؛ قال الحافظ الفتح (٦/ ٧٢): "مكحول لم يسمع من عائشة، فهو منقطع".

موافقته مع من ذكرنا من الصحابة له في ذلك"[١].

٣- وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سئل: سمعت من رسول الله ﷺ: «**الطيرة في ثلاث؛ في المسكن والفرس والمرأة**»؟ قال: كنت إذن أقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أصدق الطيرة: الفأل، والعين حق**»[٢].

٤- وعن ابن أبي مليكة، قال: جئت ابن عباس ذات يوم، فقلت: إن جاريتي قد وقع في نفسي منها شيء، وقد زعموا أن النبي ﷺ قال: «**إن يكن في شيء، ففي الرباع والمرأة والفرس**». فأنكر ابن عباس أن يكون رسول الله ـ ﷺ ـ قاله، وأن يكون الشؤم في شيء، وقال: (إن كان وقع في نفسك منها شيء، فبعها أو أعتقها)[٣].

وهناك من حمل الرواية المثبتة للشؤم، على رواية ابن عمر الأخرى، عند البخاري ـ أيضًا ـ بلفظ: «**إن كان الشؤم في شيء، ففي الدار والمرأة والفرس**»[٤]. وغرضهم نفي الشؤم والطيرة بالكلية.

وقد بوب البخاري في الجهاد والسير، بقوله: "باب: ما يذكر من شؤم الفرس". وذكر حديث ابن عمر: «**إنما الشؤم في ثلاثة...**». ثم أتبعه بحديث

---

(١) فتح الباري (٦/ ٧٢).

(٢) رواه الإمام أحمد (٢/ ٢٨٩)، بإسناد فيه: أبو معشر، وفيه ضعف. انظر: الصحيحة (٢/ ٧٢٦).

(٣) تهذيب الآثار، لابن جرير الطبري، ح: (٧٢)، (١/ ٢٤).

(٤) في النكاح، باب: ما يتقى من شؤم المرأة، ح: (٥٠٩٤)، (٩/ ٤٠).

سهل بن سعد الساعدي، بلفظ: «**إن كان في شيء، ففي المرأة والفرس والمسكن**»[١]. وفي النكاح ذكر اللفظين عن ابن عمر، ثم ثلّث بحديث سهل بن سعد الساعدي[٢].

قال الطحاوي عند حديث: «**إن تكن الطيرة في شيء؛ ففي المرأة والفرس والدار**»: "فلم يخبر أنها فيهن، وإنما قال: إن تكن في شيء ففيهن. أي: لو كانت تكون في شيء لكانت في هؤلاء، فإذا لم تكن في هؤلاء الثلاث فليست في شيء"[٣]. وذلك لأنه علقه على الشرط؛ فقال: إن يكن الشؤم في شيء، ولا يلزمه من صدق الشرطية، صدق كل واحد من مفرديها[٤].

قال ابن عبدالبر: "فلم يقطع ﷺ في هذا الحديث بالشؤم... قال: وهذا أشبه في الأصول؛ لأن الآثار ثابتة عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا طيرة ولا شؤم ولا عدوى**»"[٥].

وقال الزركشي: "قال بعض الأئمة: رواية عائشة ـ في هذا ـ أشبه بالصواب إن شاء الله تعالى؛ لموافقته نهيه عليه الصلاة والسلام عن الطيرة، نهيًا عامًا، وكراهتها، وترغيبه في تركها..."[٦].

---

(١) الفتح (٦/ ٧١).

(٢) المصدر نفسه (٦/ ٤٠).

(٣) شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤٩.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص (٦١١).

(٥) التمهيد (٩/ ٢٤٩).

(٦) الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة، ص (١١٥)، تحقيق سعيد الأفغاني. ط: الثانية ١٣٩٠هـ، ن: المكتب الإسلامي.

وقال: "والصحيح أن المعنى: إن خيف من شيء أن يكون سببًا لما يخاف شره، ويتشاءم به، فهذه الأشياء، لا على السبيل التي تظنه الجاهلية من العدوى والطيرة"[١].

قال الشيخ الألباني: "والراجح عندي: رواية محمد ـ يعني العسقلاني عن ابن عمر ـ هذه؛ لأن لها شواهد صحيحة، وقد تابعه عليها حمزة بن عبدالله بن عمر، عند مسلم (٧/ ٣٤) والطحاوي (٢/ ٣٨١)"[٢].

ثم ذكر من هذه الشواهد:

١ - حديث سهل بن سعد الساعدي، في البخاري بلفظ: «**إن كان الشؤم في شيء ففي...**». وذكره، وتقدم قريبًا[٣].

٢ - حديث سعد بن أبي وقاص، قال سعيد بن المسيب: سألت سعد بن أبي وقاص عن الطيرة؟ فانتهرني، وقال: من حدثك؟ فكرهت أن أحدثه من حدثني، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا عدوى ولا طيرة ولا هام، إن تكن الطيرة في شيء، ففي الفرس والمرأة والدار، وإذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تهبطوا، وإن كان بأرض وأنتم فيها، فلا تفروا عنه**»[٤].

---

(١) الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة، ص (١١٦-١١٧).

(٢) السلسلة الصحيحة (٢/ ٤٥٠).

(٣) ص (٢٤٩).

(٤) رواه أحمد (١٨٠١)، وأبو داود في الطيرة، ح: (٣٩٠٢)، (عون ١٠/ ٤١٨)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (٤/ ٣١٤) بدون: "وإذا سمعتم...". وهو رواية أخرى لأحمد (١/ ١٧٤). والحديث صححه الشيخ الألباني، كما في السلسة الصحيحة، ح: (٧٨٩).

٣- حديث أنس مرفوعًا مثله[١].

٤- حديث أبي سعيد مرفوعًا مثله، دون لفظة: «**ولا هام**»[٢].

٥- حديث جابر مرفوعًا، بنحو حديث سهل[٣].

٦- حديث حكيم بن معاوية مرفوعًا، بلفظ: «**لا شؤم، وقد يكون اليُمْن في ثلاثة...**» فذكره[٤].

قال الألباني: "وجملة القول: أن الحديث اختلف الرواة في لفظه؛ فمنهم من رواه كما في الترجمة، ومنهم من زاد عليه في أوله ما يدل على أنه لا طيرة أو شؤم، وهما بمعنى واحد كما قال العلماء، وعليه الأكثرون، فروايتهم هي الراجحة؛ لأن معهم زيادة علم، فيجب قبولها. وقد تأيد ذلك بحديث عائشة"[٥].

وقال: "والحديث يعطي بمفهومه أنه لا شؤم في شيء؛ لأن معناه: لو كان

---

(١) تقدم تخريجه، وإسناده حسن.

(٢) أخرجه الطحاوي (٤/ ٣١٤)، بإسناد حسن في الشواهد، قاله الألباني في الصحيحة، ح: (٧٨٩).

(٣) أخرجه مسلم في السلام، باب: الطيرة والفأل، وما يكون من الشؤم، ح: (٢٢٢٧)، (٤/ ٤٧٨)، والنسائي في الخيل، باب: شؤم الخيل، ح: (٣٥٧٠)، (٦/ ٢٢٠).

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب، باب: ما جاء في الشؤم، ح: (٢٨٢٤)، (٥/ ١٢٧)، وابن ماجه في النكاح، باب: ما يكون من اليمن والشؤم، ح: (١٩٩٣)، (١/ ٦٤٢)، والطحاوي في شرح معاني الآثار (١/ ٣٤١)، قال البوصيري في الزوائد: "إسناده صحيح ورجاله ثقات". وصححه الألباني في الصحيحة، ح: (١٩٣٠).

(٥) السلسلة الصحيحة، ح: (٩٩٣)، (٢/ ٧٢٧).

الشؤم ثابتًا في شيء، لكان في هذه الأشياء الثلاثة، لكنه ليس ثابتًا في شيء أصلاً، وعليه فما في بعض الروايات: «**الشؤم في ثلاثة**». أو: «**إنما الشؤم في ثلاثة**». فهو اختصار وتصرف من بعض الرواة"[١]. وقال: "فهذا اللفظ ـ أي: رواية ابن عمر: «**الشؤم في ثلاثة**» ـ شاذ مرجوح"[٢].

الخامس: قالوا إن حديث: «**الشؤم في ثلاث**». لا يدل أصلاً على إثبات الطيرة التي نفاها الله تعالى، بل هو من قبيل ربط الأسباب بالمسببات.

ومعنى ذلك: أن من تطير وتشاءم، فإن الله قد يجعل ذلك سببًا في وقوع المكروه عليه، ومن توكل على الله ولم يتشاءم ولم يتطير، كان ذلك سببًا في دفع المكروه، وحصول النفع.

ويدل على ذلك حديث: «**الطيرة على من تطير**»[٣].

قال ابن القيم: "إخباره ﷺ بالشؤم، أنه يكون في هذه الثلاثة، ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله؛ وإنما غايته أن الله سبحانه، قد يخلق أعيانًا مشئومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر... وشبه ذلك بأن الله قد يعطي الوالدين ولدًا بارًا رحيمًا بهم، وقد يعطيهما ولدًا شريرًا...". قال: "والله خالق الخير والشر...". إلى قوله: "والفرق بين هذين النوعين يُدرك بالحس؛ فكذلك في الديار والنساء الخيل، فهذا لون، والطيرة الشركية لون"[٤].

---

(١) السلسلة الصحيحة، ح: (٤٤٣)، (١/ ١٨٣).

(٢) المصدر نفسه، ح: (١٩٣٠).

(٣) تقدم تخريجه، ص (٢٤٦)، وفيه ضعف.

(٤) مفتاح دار السعادة، ص (٦١٤).

قال الحافظ ابن رجب: "والتحقيق: أن يقال في إثبات الشؤم في هذه الثلاث، ما ذكرنا في النهي عن إيراد المريض على الصحيح، والفرار من المجذوم، ومن أرض الطاعون، أن هذه الثلاث أسباب يقدر الله تعالى بها الشؤم واليُمْن، ويقرنه"(١).

قالوا: ويدل على ذلك، أنه يشرع لمن استفاد زوجة أو أمة أو دابة، أن يسأل الله من خيرها، وخير ما جبلت عليه، ويستعيذ من شرها، وشر ما جبلت عليه(٢)، وكذلك ينبغي لمن سكن دارًا أن يفعل ذلك(٣).

ولذلك قال الخطابي: "وإنما هذه الأشياء محال وظروف، جعلت مواقع لأقضيته ليس لها بأنفسها وطباعها فعل، ولا تأثير ألبته، إلا أنها لما كانت أعم

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب الحنبلي، ص (٨٣). ط: الثانية (١٤١٧هـ)، ن: دار ابن حزم.

(٢) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "**إذا اشترى أحدكم خادمًا فليأخذ بناصيتها، وليقل: اللهم إني أسألك من خيرها، وخير ما جبلتها عليه..**". رواه أبو يعلى، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٠/ ١٤١): "فيه: حبان بن علي، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح".
والحديث أخرجه أبو داود (عون ٦/ ١٣٨)، وابن ماجه ح: (١٩١٨)، (١/ ٦١٧)، من حديث: عبدالله بن عمرو. وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود، ح: (١٨٩٢)، (٢/ ٤٠٦).

(٣) كما في حديث صهيب: أن النبي ﷺ، لم ير قرية يريد دخولها إلا قال حين يراها: "**اللهم رب السموات السبع وما أظللن، والأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما ذرين، أسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وأعوذ بك من شرها، وشر أهلها، وشر مافيها**". أخرجه النسائي في الكبرى (٨٨٢٦)، وابن حبان (٢٧٠٩)، والحاكم (٢/ ١٠٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وحسن الحافظ ابن حجر في شرح الأذكار (٥/ ١٥٤)، وضعفه الألباني في تخريجه الكلم الطيب، ح: (١٧٨)، ص (٩٨).

الأشياء التي يقتنيها الناس، وكان الإنسان في غالب أحواله لا يستغني عن دار يسكنها، وزوجة يعاشرها، وفرس يرتبطه، وكان لا يخلو من عارض مكروه في زمانه ودهره، أضيف اليُمْن والشؤم إليها، إضافة مكان ومحل، وهما صادران عن مشيئة الله"[١].

لكن قدر يعترض على هذا: بأن هذا جاء في كل شؤم، فما وجه خصوصية هذه الثلاثة؟!

وجوابه: أن أكثر ما يقع التطير في هذه الثلاثة، فخصت بالذكر لذلك[٢]. والله أعلم.

والذي يبدو ـ والله تعالى أعلم ـ أنه ليس في هذه الأحاديث إثبات للشؤم المنهي عنه، وإنما بعض الأعيان ـ وخاصة هذه الثلاث المذكورة ـ قد يجعلها الله تعالى سببًا في في وقوع البلاء والضرر على الإنسان، وليس الشؤم في ذواتها، وإنما ما قد يجده العبد في نفسه تجاهها، لذا فأجاز له الشارع مفارقتها؛ حين يجد مضرة عند الاستمرار في مصاحبتها.

أما الشؤم والتطير المنهي عنه، فهو محاولة الاستدلال ببعض الأحوال والأعيان والأصوات، على أمر غيبي لم يقع بعد، أما عند وقوع الضرر وتحققه، فالإنسان مأمور بترك ما يضره، والبحث عما ينفعه، وليس للقلب في مثل هذه الحالة تعلق بغير الله تعالى، أو اعتماد عليه، الذي هو أصل التشاؤم المنهي عنه. والله تعالى أعلم.

---

(١) أعلام الحديث للخطابي (٢/ ١٣٧٩).

(٢) تيسر العزيز الحميد، ص (٤٣١).

هل الفأل من الطيرة؟:

مما لا شك فيه أن الفأل الحسن مشروع، وكان من هديه ﷺ أن يعجبه الفأل، ومن صوره الكثيرة التي وقعت من النبي ﷺ، أنه حينما كان في سفر الهجرة، لقي رجلاً، فقال: «**ما اسمك؟**». قال: يزيد، قال: «**يا أبا بكر، يزيد أمرنا**»[١].

ولكن لسائل أن يقول: هل الفأل من الطيرة، وقد استثني من عموم النهي، أم ليس منها؟

على قولين للعلماء، ولكل دليله، وهي كالتالي:

الأول: قال: إن الفأل من الطيرة، وإنما استثني من الحكم، واحتجوا لذلك بأحاديث كثيرة، من أهمها:

١- حديث أبي هريرة، قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا طيرة وخيرها الفأل**». قال: «**الكلمة الطيبة يسمعها أحدكم**»[٢].

٢- حديث عروة بن عامر، قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «**خيرها الفأل، ولا ترد مسلمًا**»[٣].

٣- حديث حابس التميمي، أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**العين حق، وأصدق الطيرة الفأل**»[٤].

قال الحافظ: "ففي هذا التصريح بأن الفأل من جملة الطيرة، ولكنه

---

(١) ذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٧).

(٢) تقدم نحوه، ص (٢٣٢)، من حديث أنس.

(٣) تقدم تخريجه، ص (٢٣٢).

(٤) رواه الإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٨٩) و (٤/ ٦٧) و (٥/ ٧٠، ٣٧٩).

مستثنى"[١].

الثاني: قال: إن الفأل ليس من الطيرة، واستدلوا لذلك بما يلي:

١- حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل الصالح؛ الكلمة الحسنة**»[٢].

٢- حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال: (كان رسول الله ﷺ يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة)[٣].

٣- وعن عكرمة، عن ابن عباس قال: (كان رسول الله ﷺ، يتفاءل ولا يتطير، ويعجبه الاسم الحسن)[٤].

وأجابوا على الأدلة الأولى؛ التي أضافت الفأل إلى الطيرة، قالوا: "هذه الإضافة تشعر بأن الفأل من جملة الطيرة، وليس كذلك؛ بل هي إضافة توضيح"[٥].

قال الحافظ: "والحاصل: أن أفعل التفضيل في ذلك ـ يعني: خيرها،

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وتقدم ص (٢٣٢).

(٣) رواه الإمام أحمد في مسنده (٦/ ١٣٠) و (٢/ ٣٣٢)، وابن ماجه في الطب، باب: ما كان يعجبه الفأل، ح: (٣٥٣٦)، (٢/ ١١٧٠). قال في الزوائد: "إسناده صحيح، رجال ثقات". وحسن الحافظ إسناده في الفتح (١٠/ ٢٢٥).

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٢٥٧)، وفيه: ليث بن أبي سليم؛ صدوق اختلط جدًا، ولم يتميز حديثه فترك. انظر التقريب، ص (٤٦٤)، ط: عوامة.

(٥) فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

أحسنها، أصدقها ـ إنما هو يبين القدر المشترك بين الشيئين، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل؛ تأثير كل منهما فيما هو فيه، والفأل في ذلك أبلغ"[١].

وقال ابن القيم: "أخبر ﷺ في حديث أبي هريرة، أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها... فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها، ولكنه خيرها. ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر.

ونظير هذا منعه من الرقى بالشرك، وأذنه في الرقية إذا لم تكن شركًا؛ لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة"[٢].

ومن الفرق بين الفأل والطيرة:

١ - ما ذكره الخطابي قال: "مصدر الفأل عن نطق وبيان، فكأنه خبر جاء عن غيب، بخلاف غيره، فإنه مستند إلى حركة الطائر أو نطقه، وليس فيه بيان أصلاً، وإنما هو تكلف ممن تعاطاه"[٣].

٢ - إن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون ـ غالبًا ـ إلا في السوء، فلذلك كرهت[٤]. قال القرطبي: "إنما هي من طريق الاتكال على شيء سواه"[٥].

قال النووي: "الفأل يستعمل فيما يسوء وفيما يسر، وأكثره في السرور،

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢١٤).

(٢) مفتاح دار السعادة، ص (٦٠١). وانظر: تيسير العزيز الحميد، ص (٤٣٦).

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠/ ٢٢٥).

(٤) المصدر نفسه (١٠/ ٢٢٥).

(٥) الجامع لأحكام القرآن (٦/ ٦٠).

والطيرة لا تكون إلا في الشؤم، وقد تستعمل مجازًا في السرور"[١].

وقال ابن القيم: "الفأل والطيرة وإن كان مأخذهما سواء، ومجتناهما واحدًا، فإنهما يختلفان بالمقاصد ويفترقان بالمذاهب، فما كان محبوبًا مستحسنًا تفاءلوا به، وسموه الفأل وأحبوه ورضوه، وما كان مكروهًا قبيحًا منفرًا تشاءموا به، وكرهوه وتطيروا منه، وسموه طِيَرة؛ تفرقة بين الأمرين، وتفصيلاً بين الوجهين"[٢].

٣- الفأل أن يفعل أمرًا أو يعزم عليه، متوكلاً على الله، فيسمع الكلمة الحسنة التي تسره؛ مثل أن يسمع: يا نجيح، يا مفلح، يا سعيد! ونحو ذلك، والطيرة بأن يكون قد فعل أمرًا متوكلاً على الله، أو يعزم عليه، فيسمع كلمة مكروهة؛ مثل: ما يتم، أو ما يفلح، فيتطير ويترك الأمر، فهذا منهي عنه[٣].

٤- قال ابن بطال: "جعل الله في فطر الناس محبة الكلمة الطيبة، والأنس بها، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافي، وإن كان لا يملكه ولا يشربه"[٤].

وقال ابن القيم: "وليس في الإعجاب بالفأل، ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية، التي تميل إلى ما

---

(١) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

(٢) مفتاح دار السعادة، ص (٦٠١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٦، ٦٧).

(٤) ينظر: فتح الباري (١٠/ ٢٢٥).

يلائمها، ويوافقها مما ينفعها، كما أخبرهم أنه ﷺ، حُبِبَ إليه من الدنيا: النساء والطيب... وكان يحب الحلوى والعسل"[١].

٥- وهو أهمها؛ ماذكره الشيخ ابن سعدي رحمه الله، حيث قال: "والفرق بينهما؛ أن الفأل الحسن لا يخل بعقيدة الإنسان، ولا بعقله، وليس فيه تعليق القلب بغير الله، بل فيه من المصلحة والنشاط والسرور، وتقوية النفوس النافعة...". ثم قال: "وصفة ذلك: أن يعزم العبد على سفر، أوزواج، أو عقد من العقود، أو على حالة من الأحوال المهمة، ثم يرى في تلك الحال ما يسره، أو يسمع كلامًا يسره؛ مثل: يا راشد، أو سالم، أو غانم، فيتفاءل، ويزداد طمعه في تيسير ذلك الأمر الذي عزم عليه، فهذا كله خير وآثاره خير. وليس فيه من المحاذير شيء"[٢].

وقال ابن القيم: "فقوله: «**لا طيرة، وخيرها الفأل**». ينفي عن الفأل مذهب الطيرة، من تأثير أو فعل أو شركة، ويخلص الفأل منها، وفي الفرقان بينهما فائدة كبيرة؛ وهي أن التطير هو التشاؤم من الشيء، المرئي أو المسموع، فإذا استعملها الإنسان، فرجع بها من سفر، وامتنع بها مما عزم عليه، فقد قرع باب الشرك، بل ولجه، وبرئ من التوكل على الله، وفتح على نفسه باب الخوف، والتعلق بغير الله، والتطير مما يراه أو يسمعه، وذلك قاطع له عن

(١) مفتاح دار السعادة، ص (٦٠٠).

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد، ص (٣١)، ضمن المجموعة الكاملة، المجلد(٣).

مقـــام ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]. ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٢]. ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٣].

فيصير قلبه متعلقًا بغير الله، عبادة وتوكلاً؛ فيفسد عليه قلبه وإيمانه وحاله... فأين هذا من الفأل الصالح، السار للقلوب، المؤيد للآمال، الفاتح باب الرجاء، المسكن للخوف، الرابط للجأش، الباعث على الاستعانة بالله والتوكل عليه، والاستبشار المقوي لأمله، السار لنفسه!؟ فهذا ضد الطيرة.

فالفأل يفضي بصاحبه إلى الطاعة والتوحيد، والطيرة تفضي بصاحبها إلى المعصية والشرك، فلهذا استحب النبي ﷺ الفأل، وأبطل الطيرة"[٤].

ضابط الفرق بين الفأل والطيرة:

ويمكنا بعد ذلك، أن نحدد ضابط الفرق بينهما، والذي يجعل الأمر من الفأل الممدوح، لا من التطير المذموم؛ وهو كالتالي:

١- من شرط الفأل: أن لا يقصده المتفائل، فيكون من الطيرة المنهي عنها.

٢- أن لا يحمله على العمل بموجبه، فإن عمل به فإنه يعتبر من الطيرة

---

(١) سورة الفاتحة، آية: (٥).

(٢) سورة هود، آية: (١٢٣).

(٣) سورة الشورى، آية: (١٠).

(٤) مفتاح دار السعادة، ص (٦٠٢).

الشركية؛ «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**»[١]. وذلك لأن القلب في مثل هذه الحالة، له اعتماد على غير الله ـ وهو الفأل ـ وهذا شرك.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "فهو في كل واحد من محبته للفأل وكراهته للطيرة، إنما يسلك مسلك الاستخارة لله، والتوكل عليه، والعمل بما شرع له من أسباب، لم يجعل الفأل آمرًا له، وباعثًا له على الفعل، ولا الطيرة ناهية له عن الفعل، وإنما يأتمر وينتهي عن مثل ذلك أهل الجاهلية، الذين يستقسمون بالأزلام..."[٢].

لذلك فالمشروع للعبد أن يفعله قبل الإقدام على الأمر؛ "استخارة الخالق، واستشارة المخلوق، والاستدلال بالأدلة الشرعية التي تبين ما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه وينهى عنه"[٣].

* * * *

(١) تقدم تخريجه، ص (٢٣٣)، وهو ضعيف.

(٢) مجموع الفتاوى (٢٣/ ٦٧).

(٣) المصدر نفسه (٢٣/ ٦٨).

الخاتمـــة

الخاتمة

نسأل الله حسنها

بعد هذا التطواف، مع فصول هذا الموضوع الحيوي المهم. وعند حط عصا الترحال، يحسن بنا أن نشير إلى بعض النتائج، التي ظهرت من درسه مسائل هذا البحث؛ ومن أهمها:

١- أن التوكل على الله تعالى حال يلتئم من عدة أمور للقلب، توجب له اعتمادًا على الله تعالى، وتفويضًا إليه، وطمأنينة وثقة به، ويقينًا بكفايته لما توكل عليه فيه.

٢- أن التوكل يتبوأ أشرف الرتب، وأعلى المقامات، من أعمال القلوب التي هي أصل الإيمان، الذي هو أجلّ ما تُعِّبد الله تعالى به.

٣- أن التوكل هو الحال الذي يجمع بين علم القلب وعمله.

٤- لا إيمان بلا توكل، كما لا توكل بلا إيمان.

٥- لا يستقيم توكل العبد حتى يصلح له توحيده، بل حقيقة التوكل توحيد القلب.

٦- اقتران التوكل بمراتب الدين الثلاث ـ الإيمان والإسلام والإحسان ـ وشعائره العظام؛ مُشعِر بعلو منزلته وأهميته.

٧- لا يمكن لعبد الاستغناء عن التوكل؛ فإما متوكل على خالقه ومولاه، الذي بيده ملكوت كل شيء، وإما متوكل على مخلوق ضعيف مثله، لا يملك نفعًا ولا ضرًا، ولا يملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

٨- لا أشرح لصدر العبد ولا أوسع بعد الإيمان، من ثقته بالله، ورجائه له، وحسن ظنه به.

٩- من يتوكل على الله فهو حسبه.

١٠- التوكل من أقوى الأسباب في استجلاب المنافع، ودفع المضار.

١١- كثير من المتوكلين على الله تعالى، مغبون في توكله، وبينهم من التفاوت كما بين السماء والأرض.

١٢- أكمل التوكل وأوسعه وأنفعه، توكل الأنبياء والمرسلين؛ وهو التوكل في إقامة دين الله، ودفع فساد المفسدين، وهو توكل ورثتهم.

١٣- التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ شرك أكبر، والتوكل على غير الله فيما يقدر عليه المتوكل عليه؛ شرك أصغر خفي، ومنه اعتماد القلب على الأسباب.

١٤- الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، والإعراض عن الأسباب بالكلية، قدح في الشرع، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا، نقص في العقل.

١٥-تعاطي الأسباب المباحة لا ينافي التوكل.

١٦- نحن مأمورون بأن نمارس عبودية اتخاذ الأسباب بجوارحنا، كما نحن مأمورون بممارسة عبودية التوكل بقلوبنا.

١٧- من أجلّ فوائد تعاطي الأسباب، هو القيام بالعبودية لله تعالى وحده.

١٨- يُتقى من الأسباب: الاعتماد عليها، وترك ما أمر الله بتركه منها.

١٩- التداوي بالمباح من الأسباب المشروعة، التي لا تقدح في التوكل؛ ما دام اعتماد القلب على الله تعالى.

٢٠- التطير مظهر من مظاهر ضعف التوكل.

هذا، وإن كان لي من توصية في آخر هذا المطاف؛ فهي التأكيد على أن موضوعات أعمال القلوب، رغم أهميتها ـ ومن بينها التوكل على الله تعالى ـ لا زالت تفتقر إلى اهتمام مؤسساتنا التعليمية النظامية وغيرها، ولم تُعطَ بعد حقها من الاهتمام والدراسة اللائقة بها.

فحري بالقائمين على شؤون هذه المؤسسات، والمربِّين، أن يلتفتوا إلى هذا الجانب العقدي، التربوي المهم.

وأن ما نشكوه الآن من مظاهر خطيرة، تعصف بأفكار المسلمين، وخاصة بين أوساط الشباب، وبروز الخلافات والتحزبات، ومجانبة الصواب في كثير من الاجتهادات، يرجع ـ في مجمله ـ إلى ضعف هذا الجانب، وعدم تحقيقه على الوجه الشرعي؛ إما لسوء فهم، أو لجهل ناتج عن غفلة وإعراض. والله المسؤول أن يلهمنا رشدنا، وأن يرزقنا حسن التوكل عليه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * * *

ثبت المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

(أ)

٢- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة؛ لأبي عبدالله عبيد الله بن بن محمد بن بطة، العكبري الحنبلي، (ت: ٣٨٧هـ). ط: الأولى، ١٤١٥، ن: دار الراية للنشر والتوزيع.

٣- الإجابة فيما استدركته عائشة على الصحابة؛ للزركشي، تحقيق: سعيد الأفغاني، ط: ثانية، ١٣٩٠هـ، ن: المكتب الإسلامي.

٤- الأذكار؛ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، (ت: ٦٧٦هـ). تحقيق: عبدالقادر الأرناؤوط. ن: دار الهدى للنشر والتوزيع، ط: الخامسة، ١٤١٤هـ، الرياض.

٥- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري؛ لأبي سليمان حمد ابن محمد الخطابي، (ت:٣٨٨هـ)، تحقيق: د. محمد بن سعد بن عبدالرحمن آل سعود. ط: أولى ١٤٠٩هـ. مركزإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى.

٦- الإيمان الأوسط؛ لشيخ الإسلام أبي العباس أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي النميري، (ت: ٧٢٨هـ). توزيع مكتبة الفرقان ومكتبة الإيمان.

٧- الإيمان؛ لشيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن تيمية، (ت: ٧٢٨هـ). ط: الثالثة، ن: المكتب الإسلامي.

٨- ابن قيم الجوزية حياته وآثاره؛ تأليف: بكر بن عبدالله أبو زيد. ط: الأولى، (١٤٠٠هـ).

٩- أحكام القرآن؛ لأبي بكر محمد بن عبدالله، المعروف بابن العربي، (ت: ٥٤٣هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: الثالثة، ١٣٩٢هـ. ن: دار إحياء الكتب العربية.

١٠- إحياء علوم الدين؛ للإمام الغزالي، أبي حامد محمد بن محمد، (ت: ٥٠٥هـ). ن: دار المعرفة.

١١- أسباب نزول القرآن؛ لأبي الحسن علي بن أحمد الواحدي، (ت: ٤٨٧هـ). تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: الثانية، ١٤٠٤هـ، ن: دار القبلة للثقافة الإسلامية.

١٢- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان؛ لابن قيم الجوزية أبي عبدالله محمد ابن أبي بكر، (ت: ٧٥١). تحقيق: محمد حامد الفقي.

١٣- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم؛ لشيخ الإسلام أحمد ابن عبدالحليم بن تيمية، (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق: د. ناصر العقل، ط: الأولى، ١٤٠٤هـ.

(ب)

١٤- بدائع الفوائد؛ للإمام أبي عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي، المعروف بابن قيم الجوزية، (ت: ٧٥١هـ)، قام بتصحيح الطبعة ومراجعتها، وإضافة بعض التعليقات عليها: محمود غانم غيث. ط: الثانية، ١٣٩٢هـ، ن: مكتبة القاهرة.

١٥- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار، في شرح جوامع الأخبار، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن الناصر السعدي، (ت: ١٣٧٦هـ). ط: ١٤١١هـ، ن: مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

(ت)

١٦- تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري؛ إسماعيل بن حماد، (ت: ٣٩٣هـ)، ن: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

١٧- تاريخ بغداد أومدينة السلام؛ للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، (ت: ٤٦٣هـ). ن: دار الكتاب العربي ببيروت.

١٨- تأويل مختلف الحديث؛ للإمام أبي محمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة، (ت: ٢٧٦هـ)، صححه وضبطه: محمد زهري النجار، ط: ١٣٩٣هـ، ن: دار الجيل، بيروت.

١٩- تجريد التوحيد؛ للشيخ أحمد بن علي المقريزي، ن: مكتبة السلام العالمية.

٢٠- التحفة العراقية في الأعمال القلبية؛ لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية، (ت:٧٢٨هـ)، تحقيق: محمود مطرجي، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ، ن: دار القلم.

٢١- تذكرة الحفاظ للذهبي؛ الإمام أبو عبدالله شمس الدين محمد الذهبي، (ت:٧٤٨هـ)، صُحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي، تحت إعانة وزارة معارف الحكومة العالية الهندية، ن: دار

التراث العربي.

٢٢- التعريفات؛ للعلامة علي بن محمد الشريف الجرجاني، مع فهرست (ت: ٨١٦هـ). ط: ١٩٧٨م، ن: مكتبة لبنان.

٢٣- تفسير البغوي "معالم التنزيل"؛ لأبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، (ت:٥١٦هـ). حققه وخرج أحاديثه: محمد عبدالله النمر، عثمان جمعة ضميرية، سليمان مسلم الحرش. ط: ١٤٠٩هـ، ن: دار طيبة، الرياض.

٢٤- تفسير القرن العظيم؛ للحافظ ابن كثير، (ت: ٧٧٤هـ). تحقيق: عبدالعزيز غنيم، محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا. ن: دار الشعب.

٢٥- تقريب التدمرية؛ محمد بن صالح العثيمين. ط: الأولى ١٤١٢هـ، ن: دار الوطن.

٢٦- تقريب التهذيب؛ الإمام الحافظ شهاب الدين، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني الشافعي، (ت: ٨٥٢هـ). قدم له وقابله: محمد عوامة، ط: الأولى ١٤٠٦هـ، ن: دار الرشيد.

- نسخة أخرى حققها وعلق عليها ووضحها، وأضاف إليها: أبوالأشبال صغير أحمد شاغف الباكستاني. ط: الأولى، ١٤١٦هـ، ن: دار العاصمة.

٢٧- تلبيس إبليس؛ للحافظ الإمام جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن ابن الجوزي البغدادي، (ت: ٥٩٧هـ)، صححه وعلق عليه: إدارة الطباعة المنيرية، بمساعدة بعض علماء الأزهر، ن: دار الكتب العلمية.

٢٨- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد؛ تأليف: الإمام الحافظ أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبدالبر النمري الأندلسي، (ت: ٤٦٣هـ). تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي، ومحمد عبدالكبير البكري، ط: الثانية، ١٤٠٢هـ، ن: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب.

٢٩- تهذيب الآثار وتفصيل معاني الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار؛ تأليف: الإمام محمد بن جرير الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، تحقيق: د. ناصر بن سعد الرشيد، ود. عبدالقيوم عبد رب النبي، ط: ١٤٠٣هـ، بمطابع الصفا بمكة.

٣٠- تهذيب التهذيب؛ للإمام شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، (ت: ٨٥٢هـ). ط: الأولى، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية، الكائنة بالهند، سنة: ١٣٢٥هـ.

٣١- تهذيب اللغة؛ للأزهري: أبي منصور محمد بن أحمد الأزهري، (ت: ٣٧٠هـ)، تحقيق: عبدالسلام هارون، ط: ١٣٨٤هـ، ن: دار المصرية للتأليف والنشر.

٣٢- التوكل على الله عز وجل؛ للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا، (ت:٢٨١هـ)، تحقيق: جاسم الفهيد، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ، ن: دار البشائر.

٣٣- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد؛ تأليف: سليمان ابن عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب، (ت: ١٢٣٣هـ)، ط: الرابعة. ن: المكتب الإسلامي.

٣٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تأليف: الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ت: ١٣٧٦هـ)، ط: ١٤٠٨هـ، ن: دار المدني بجدة.

(ث)

٣٥- كتاب الثقات لابن حبان؛ الإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، (ت: ٣٥٤هـ)، ط: الأولى، ن: دار الفكر، طبع تحت مراقبة الدكتور محمد عبدالمعيد خان، مدير دائرة المعارف العثمانية.

(ج)

٣٦- جامع البيان عند تأويل آي القرآن؛ تأليف: أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، (ت: ٣١٠هـ)، ط: الثالثة، ١٣٨٨هـ، ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر.

٣٧- الجامع الصحيح، وهو سنن الترمذي؛ لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، (ت: ٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط: الثانية، ١٣٩٨هـ، ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر.

(ح)

٣٨- الحث على التجارة والصناعة والعمل، والإنكار على من يدعي التوكل في ترك العمل، والحجة عليهم في ذلك؛ تصنيف أبي بكر أحمد بن محمد بن هارون الخلاَّل، (ت: ٣١١هـ)، ط: الأولى، ١٤٠٧هـ، ن: دار العاصمة.

٣٩- حقيقة الإيمان عند أهل السنة والجماعة؛ لمحمد بن عبدالهادي المصري، ط: الثانية، ١٤١٣هـ، ن: دار الإعلام الدولي، القاهرة.

٤٠- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء؛ للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، (ت: ٤٣٠هـ)، ط: ١٣٩٤هـ، مطبعة السعادة.

(د)

٤١- الدر المنثور في التفسير بالمأثور؛ للإمام عبدالرحمن جلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، ضبط النص والتصحيح، وإسناد الآيات ووضع الحواشي والفهارس، بإشراف الناشر. ط: الأولى، (١٤٠٣هـ)، ن: دار الفكر.

٤٢- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، جمع وتقديم وتحقيق: د محمد السيد الجليند. ط: الأولى، ١٣٩٨هـ، ن: دار الأنصار.

٤٣- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة؛ لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، تخريج: د عبدالمعطي قلعجي، ن: دار الكتب العلمية.

(ر)

٤٤- رسالة حقيقة التوكل؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية، ضمن جامع الرسائل.

٤٥- الرسالة القشيرية،؛لأبي القاسم عبدالكريم بن هوازن القشيري النيسابوري، (ت: ٤٦٥هـ). ط: الثانية، ١٣٧٩هـ، ن: شركة مكتبة ومطبعة

مصطفى البابي الحلبي وأولاده، مصر.

- نسخة أخرى ط: الثالثة ١٤١٨هـ. تحقيق وإعداد: معروف مصطفى رزيق، وعلي عبدالحميد أبو الخير. ط: دار الخير، بيروت لبنان.

٤٦- الرقى على ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة، وحكم التفرغ لها واتخاذها حرفة، د علي بن نفيع العلياني، ط: الأولى، ١٤١١هـ، ن: دارالوطن.

٤٧- روضة العقلاء ونزهة الفضلاء؛ للإمام الحافظ محمد بن حبان بن أحمد أبي حاتم التميمي البستي، (ت: ٣٥٤هـ) تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، ومحمد عبدالرزاق حمزة، ومحمد حامد الفقي، ن: دار الباز للنشر والتوزيع، بمكة المكرمة.

(ز)

٤٨- زاد المسير في علم التفسير؛ لابن الجوزي: أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد، (ت: ٥٩٧هـ)، تحقيق: محمد بن عبدالرحمن عبدالله، خرج أحاديثه: السعيد بن بسيوني زغلول. ط: الأولى، ١٤٠٧هـ، ن: دار الفكر.

٤٩- زاد المعاد في هدي خير العباد؛ لابن قيم الجوزية، الإمام شمس الدين أبي عبدالله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبدالقادر الأرناؤوط. ط: الرابعة عشرة، ١٤٠٧هـ، ن: مؤسسة الرسالة، ومكتبة المنار الإسلامية.

٥٠- الزهد؛ للإمام أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، تعليق الشيخ: محمد بن عبدالرزاق آل حمزة. ط: ١٣٩٦هـ، ن: دار الكتب العلمية.

٥١- الزهد، ويليه كتاب الرقائق؛ لعبد الله بن المبارك المروزي، (ت: ١٨١هـ)، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، ن: دار الكتب العربية، بيروت لبنان.

(س)

٥٢- سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها؛ محمد ناصر الدين الألباني، ط: الثانية، (١٣٩٩هـ)، ن: المكتب الإسلامي.

٥٣- سنن ابن ماجه؛ الحافظ أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني، (ت: ٢٧٥هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، ن: دار الفكر.

٥٤- سنن الدارمي؛ للحافظ أبي محمد عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي، (ت: ٢٥٥هـ)، طبع ونشر: السيد عبدالله هاشم يماني المدني، المدينة المنورة، ١٣٨٦هـ.

٥٥- السنن الكبرى؛ للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، (ت: ٤٥٨هـ)، وفي ذيله الجوهر النقي لابن التركماني، (ت: ٧٤٥هـ). ن: دار الفكر.

٥٦- سنن النسائي (ت: ٣٠٣هـ)، بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي، (ت: ٩١١هـ)، وحاشية الإمام السندي (ت: ١١٣٨هـ).

٥٧- - نسخة أخرى: عناية وترقيم وفهرسة: عبدالفتاح أبو غدة، ط:

الثانية (١٤٠٦هـ)، ن: دار البشائر الإسلامية.

٥٨- السنة؛ لأبي بكر أحمد بن محمد بن هارون بن يزيد الخلال، (ت: ٣١١هـ)، دراسة وتحقيق: د عطية الزهراني، ط: الأولى، ١٤١٠هـ، ن: دار الراية.

٥٩- السنة؛ للإمام أبي عبدالرحمن عبدالله بن إمام السنة أحمد بن محمد بن حنبل الشباني، (ت: ٢٩٠هـ)، تحقيق ودراسة: د محمد بن سعيد القحطاني، ط: الأولى، ١٤٠٦هـ، ن: دار ابن القيم.

٦٠- سير أعلام النبلاء؛ تصنيف الإمام شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٤٨هـ)، خرج أحاديث الكتاب وأشرف على تحقيقه: شعيب الأرناؤوط، ط: الثانية، ١٤٠٤هـ، ن: مؤسسة الرسالة.

٦١- السيرة النبوية؛ لابن هشام، تحقيق: إبراهيم الإبياري، عبدالحفيظ شلبي، ط: الثانية، ١٣٧٥هـ، شركة مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(ش)

٦٢- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ تأليف: أبي القاسم هبة الله بن الحسين ابن منصور الطبري اللالكائي، (ت: ٤١٨هـ). تحقيق: د أحمد سعد حمدان، ن: دار طيبة.

٦٣- شرح السنة؛ للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي، (ت: ٥١٦هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط: ١٣٩٤هـ، ن: المكتب

الإسلامي.

٦٤- شرح العقيدة الطحاوية؛ لعلي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، (ت: ٧٩٢هـ)، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: محمد بن ناصر الدين الألباني، ط: السادسة، ١٤٠٠هـ، ن: المكتب الإسلامي.

٦٥- شرح معاني الآثار؛ للإمام أبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبدالله بن سلمة، الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي، (ت: ٣٢١هـ)، تحقيق: محمد زهري النجار، ن: مطبعة الأنوار المحمدية.

٦٦- الشريعة؛ لأبي بكر بن محمد بن الحسين الآجري، (ت: ٣٦٠هـ)، دراسة وتحقيق إلى نهاية الجزء العاشر، رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص العليا (دكتوراه)، بقسم العقيدة في كلية الدعوة وأصول الدين، بجامعة أم القرى، (١٤٠٩هـ).

٦٧- شعب الإيمان؛ للبيهقي أبي الحسين أحمد بن الحسين، (ت: ٤٥٨هـ). تحقيق: محمد السيد بن بسيوني زغلول، ط: الأولى، ١٤١٠هـ، ن: دار الكتب العلمية.

- نسخه أخرى: حققه وراجع نصوصها وخرج أحاديثها: الدكتور عبدالعلي عبد الحميد حامد، وأشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي الهند. الناشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

٦٨- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل؛ تأليف الإمام أبي عبدالله محمد بن الشيخ أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ)، تحقيق: الحساني حسن عبدالله، ط: الثانية، ن: مكتبة دار التراث.

(ص)

٦٩- الصحاح؛ للجوهري إسماعيل بن حماد، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطار، ط: الثالثة، ١٤٠٤هـ، دار العلم للملايين.

٧٠- صحيح الترغيب والترهيب؛ للحافظ المنذري، اختيار وتحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط: الثانية، ١٤٠٦هـ، ن: المكتب الإسلامي.

٧١- صحيح الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط: الأولى، ١٣٨٨هـ، ن: المكتب الإسلامي.

٧٢- صحيح الكلم الطيب؛ لشيخ الإسلام ابن تيمية أحمد بن عبدالحليم الحراني الدمشقي، (ت: ٧٢٨هـ). بقلم: محمد ناصر الدين الألباني، ن: المكتب الإسلامي.

٧٣- صحيح مسلم بشرح النووي، ط: ١٣٤٩هـ، ن: المكتبة المصرية ومطبعتها.

٧٤- صحيح مسلم؛ للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، (ت: ٢٦١هـ)، وقف على تحقيقه وتصحيحه: محمد فؤاد عبدالباقي، ط: الأولى، ١٣٧٥هـ، ن: دار إحياء الكتب العربية.

(ض)

٧٥- ضعيف الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير)؛ تأليف: محمد ناصر الدين الألباني، ط: الثانية، ١٣٩٩هـ، ن: المكتب الإسلامي.

(ط)

٧٦- طبقات الحنابلة؛ للقاضي أبي الحسين محمد بن أبي يعلى، (ت: ٥٢٦هـ). ن: دار المعرفة.

٧٧- طبقات الشافعية الكبرى؛ لتاج الدين أبي نصر عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي السبكي، (ت: ٧٧١هـ). تحقيق: محمود محمد الطناجي، وعبدالفتاح محمد الحلو. ط: الأولى، ١٣٨٣هـ.

٧٨- طبقات الصوفية؛ لأبي عبدالرحمن السلمي (ت: ٤١٢هـ)، تحقيق: نور الدين شريبه. ط: الثانية، ١٤١٦هـ، ن: مكتبة الخانجي بالقاهرة.

٧٩- الطبقات الكبرى؛ لابن سعد محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري، المكنى بأبي عبدالله، (ت: ٢٣٠هـ). ط: ١٣٩٨هـ، ن: دار بيروت.

٨٠- طريق الهجرتين وباب السعادتين؛ لابن قيم الجوزية محمد بن أبي بكر، (ت: ٧٥١هـ). ط: الثالثة، ١٤٠٠هـ، ن: المكتبة السلفية بالقاهرة.

٨١- الطيرة والفأل (التشاؤم والتفاؤل) في ضوء الكتاب والسنة، تأليف: محمود بن خليفة الجاسم. ط: الأولى، ١٤١٣هـ، ن: دار ابن حزم.

(ظ)

٨٢- ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، رسالة مقدمة لنيل درجة التخصص العليا (الدكتوراه) بجامعة أم القرى ـ كلية الشريعة والدراسات

الإسلامية ـ قسم الدراسات العليا الشرعية، فرع العقيدة، إعداد: سفر بن عبدالرحمن الحوالي، ط: (١٤٠٥هـ).

(ع)

٨٣- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية؛ للإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي التميمي القرشي، (ت: ٥٩٧هـ). تحقيق: الأستاذ إرشاد الحق الأثري. ط: الثانية، ١٤٠١هـ، ن: إدارة العلوم الأثرية باكستان.

٨٤- عون المعبود شرح سنن أبي داود؛ للعلامة أبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، تحقيق: عبدالرحمن محمد عثمان. ط: الثالثة، ١٣٩٩هـ، ن: دار الفكر.

(غ)

٨٥- غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب؛ تاليف الشيخ محمد السفاريني الحنبلي، (ت: ١١٨٨هـ). ط:١٣٩٣هـ، مطبعة الحكومة بمكة.

٨٦- الغنية لطالبي طريق الحق عز وجل في معرفة الآداب الشرعية؛ لعبد القادر الجيلاني الحسني. ن: المكتبة الثقافية.

(ف)

٨٧- الفائق في غريب الحديث؛ للعلامة جار الله محمود بن عمر الزمخشري، (ت: ٥٨٣هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم.ط: الثانية، ن: عيسى البابي الحلبي.

٨٨- فتاوى ورسائل سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله. ط:

الأولى، ١٣٩٩هـ، مطبعة الحكومة بمكة المكرمة.

٨٩- فتح الباري شرح صحيح البخاري؛ للإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، (ت:٨٥٢هـ)، ط: الثالثة، ١٤٠٧هـ، ن: المكتبة السلفية بالقاهرة.

٩٠- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير؛ لمحمد بن علي بن محمد الشوكاني، (ت: ١٢٥٠هـ). ط: الثانية، ١٣٨٣هـ، ن: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.

٩١- الفوائد؛ للإمام ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي (ت: ٧٥١هـ). ن: زكريا علي يوسف.

٩٢- في ظلال القرآن؛ سيد قطب، ط: الثانية، ١٣٩٥هـ، ن: دار الشروق.

(ق)

٩٣- القاموس المحيط؛ للفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب. ط: الثانية، ١٣٧١هـ. ن: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي.

٩٤- القول السديد في مقاصد التوحيد، ضمن المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ت: ١٣٧٦هـ) ط: ١٤١١هـ، ن: مركز صالح بن صالح الثقافي بعنيزة.

٩٥- القول المفيد على كتاب التوحيد؛ شرح فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثميين. اعتنى بها د سليمان بن عبدالله بن حمود أبا الخيل، ود خالد

ابن علي بن محمد المشيقح. ط: الأولى، ١٤١٥هـ، ن: دار العاصمة.

(ك)

٩٦- الكامل في ضعفاء الرجال؛ للإمام أبي أحمد عبدالله بن عدي الجرجاني، (ت: ٣٦٥هـ). تحقيق: لجنة بإشراف الناشر، ن: دار الفكر.

٩٧- كتاب التوحيد وإخلاص العمل لوجه الله عز وجل؛ لشيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن تيمية الحراني الدمشقي، (ت: ٧٢٨هـ)، مع مقدمة عن قضية الدين والفلسفة. تحقيق وتقديم: د محمد السيد الجليند. ط: الثانية، ١٣٩هـ.

٩٨- الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة؛ للشيخ عبدالله بن محمد ابن عبدالوهاب. ط: الثانية، ١٤٠٠هـ، ن: المطبعة السلفية بالقاهرة.

٩٩- الكلم الطيب؛ تأليف: شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبدالحليم ابن تيمية الحراني الدمشقي، (ت: ٧٢٨هـ). تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني. ط: الثالثة، ١٣٩٧هـ، ن: المكتب الإسلامي.

١٠٠- الكليات. معجم في المصطلحات والفروق اللغوية؛ لأبي البقاء أيوب ابن موسى الحسيني الكفوي، (ت: ١٠٩٤هـ). قابله على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه: د عدنان درويش، ومحمد المصري. ط: الأولى، ١٤١٢هـ، ن: مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان.

(ل)

١٠١- لباب النقول في أسباب النزول؛ تأليف: جلال الدين السيوطي.

ط: الأولى، ١٩٧٨م، ن: دار إحياء العلوم.

١٠٢- لسان العرب؛ لابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم، (ت: ٧١١هـ). ط: ١٣٨٨هـ، ن: دار صادر ودار بيروت.

١٠٣- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف؛ للحفاظ ابن رجب الحنبلي. ط: الثانية، ١٤١٧هـ. ن: دار ابن حزم.

١٠٤- لوامع الأنواع البهية وسواطع الأسرار الأثرية، لشرح الدرة المضية في عقد الفرق المرضية؛ تأليف: الشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي. ط: الثانية، ١٤٠٢هـ، ن: مؤسسة الخافقين.

(م)

١٠٥- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد؛ للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، (ت: ٨٠٧هـ)، بتحرير الحافظين الجليلين العراقي وابن حجر. ط: الثالثة، ١٤٠٢هـ. ن: دار الكتاب العربي، بيروت لبنان.

١٠٦- مجمل اللغة؛ لأبي الحسين أحمد بن فارس (ت: ٣٩٥هـ)، تحقيق: زهير عبدالمحسن خلكان. ط: الأولى، ١٤٠٤هـ.

١٠٧- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، (ت: ٧٢٨هـ)، جمع وترتيب: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، وابنه محمد. ط: الأولى، ١٣٩٨هـ.

١٠٨- مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين. جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان. ط: الأولى، ١٤١٢هـ، ن: دار الوطن.

١٠٩- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، (تفسير ابن عطية)؛ لأبي

محمد عبدالحق بن عطية الأندلسي. تحقيق: الرحالي الفاروق، عبدالله بن إبراهيم الأنصاري، السيد عبدالعال السيد إبراهيم، محمد الشافعي صادق العنابي. ط: الأولى، ١٣٩٨هـ، ن: مؤسسة دار العلوم.

١١٠- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين؛ لابن القيم محمد ابن أبي بكر الزرعي، (٧٥١هـ). تحقيق: محمد حامد الفقي. ط: الثانية، ١٣٩٣هـ.

١١١- مسائل الإمام أحمد؛ تأليف: أبي داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق ابن بشير بن شداد السجستاني، ط: الأولى، ١٣٥٣هـ، ن: دار المعرفة.

١١٢- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة. جمع وتحقيق ودراسة: عبدالإله بن سليمان بن سالم الأحمدي. ط: الأولى، ١٤١٢هـ، ن: دار طيبة.

١١٣- المستدرك على الصحيحين؛ للإمام أبي عبدالله الحاكم النيسابوري، وبذيله التلخيص للحافظ الذهبي، ن: دار الكتاب العربي ببيروت.

١١٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل. ن: المكتب الإسلامي، دار صادر.

١١٥- مسند الشهاب للإمام القضاعي.

١١٦- المصنف في الأحاديث والآثار؛ للإمام الحافظ عبدالله بن محمد ابن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان، أبي بكر بن أبي شيبة الكوفي العبسي، (ت:

٢٣٥هـ). تحقيق: عبدالخالق الأفغاني. ط: الثانية، ن: الدار السلفية بالهند.

١١٧- المصنف؛ للحافظ أبي بكر عبدالرزاق بن همام الصنعاني، (ت: ٢١١هـ). تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. ط: الثانية، ١٤٠٣هـ، ن: المكتب الإسلامي.

١١٨- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد؛ تأليف الشيخ: حافظ بن أحمد حكمي، (ت: ١٣٧٧هـ). ن: جماعة إحياء التراث.

١١٩- معالم التوحيد؛ للدكتور مروان بن إبراهيم القيسي. ط: الأولى، (١٤١٠هـ)، ن: المكتب الإسلامي.

١٢٠- معجم المناهي اللفظية؛ للدكتور بكر عبدالله أبوزيد. ط: الأولى، ١٤١٠هـ. ن: دار ابن الجوزي بالدمام.

١٢١- المغني؛ لابن قدامة أبي محمد عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي، (ت: ٦٢٠هـ)، على مختصر أبي القاسم عمر بن حسين بن عبدالله بن أحمد الخرقي. ط: ١٤٠١هـ، ن: مكتبة الرياض الحديثة.

١٢٢- المفردات في غريب القرآن؛ للراغب الأصفهاني، أبي القاسم الحسين ابن محمد، (ت: ٥٠٢هـ). تحقيق: محمد سيد كيلاني، ط: دار المعرفة ببيروت.

١٢٣- المنجد (قاموس).

١٢٤- المنهاج في شعب الإيمان؛ لأبي عبدالله الحسين بن الحسن

الحليمي، (ت: ٤٠٣هـ). تحقيق: حلمي محمد فوده. ط: الأولى، ١٣٩٩هـ، ن: دار الفكر ببيروت.

١٢٥- موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان؛ للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، (ت: ٨٠٧هـ). تحقيق: محمد عبدالرزاق حمزة. ن: المطبعة السلفية ومكتبتها.

١٢٦- الموطأ؛ للإمام مالك بن أنس، تصحيح وتخريج: محمد فؤاد عبدالباقي، ن: دار إحياء الكتب العربية.

١٢٧- موقف ابن الجوزي من الصوفية، إعداد: علي بن صالح المقوشي، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، من قسم العقيدة بكلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، (١٤١٤هـ).

١٢٨- ميزان الاعتدال في نقد الرجال؛ لأبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، (ت: ٧٤٨هـ). تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: الأولى، ١٣٨٢هـ، ن: دار المعرفة.

(ن)

١٢٩- النهاية في غريب الحديث والأثر؛ لابن الأثير، أبي السعادات المبارك ابن محمد الجزري، (ت: ٦٠٦هـ). تحقيق: طاهر الزاوي، ومحمود الطناجي. ط:١٣٨٣هـ، الناشر: المكتبة الإسلامية.

١٣٠- النهج السديد في تخريج أحاديث تيسير العزيز الحميد؛ تصنيف: أبي سليمان جاسم الفهيد الدوسري. ط: الأولى، ١٤٠٤هـ، ن: دار الخلفاء

للكتاب الإسلامي.

١٣١- نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس؛ للحافظ الإمام أبي الفرج عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، (ت: ٧٩٥هـ). تحقيق: محمد بن ناصر العجمي. ط: الأولى، ١٤١٠هـ، ن: دار البشائر الإسلامية.

١٣٢- نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار؛ للإمام محمد ابن علي بن محمد الشوكاني، (ت: ١٢٥٠هـ). ط: الأخيرة، ن: شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، بمصر.

فهرس الموضوعات

المحتـــويـــات الصفحة

المقدمة ٥

الفصل الأول: تعريف التوكل وبيان حقيقته: ١٣

أولاً: تعريف التوكل ١٣

أ – المعنى اللغوي ١٣

ب- المعنى الاصطلاحي ١٥

ثانيًا: حقيقة التوكل ١٨

درجاته ١٩

الفصل الثاني: ممنزلة التوكل من العقيدة: ٢٩

أولاً: منزلة أعمال القلوب من الإيمان ٢٩

* أوصاف القلوب السليمة في القرآن ٣٥

* أوصاف القلوب السقيمة والميتة في القرآن الكريم ٣٩

* العلاقة بين الظاهر والباطن ٤٩

ثانيًا: منزلة التوكل من أعمال القلوب، التي هي أشرف عناصر الإيمان ٥٣

١ – باعتبار العبودية على أعضاء الإنسان ٥٤

٢ – باعتبار عناصر الإيمان ٥٥

٣- باعتبار ترتب الثواب والعقاب ٥٦

ثالثًا: التوكل والتوحيد ٥٧

١- الربوبية..... ٥٨

٢- الأسماء والصفات..... ٥٩

٣-الألوهية ٦٠

الفصل الثالث: أهمية التوكل: ٦٥

أولاً: اقترانه بمراتب الدين الثلاث وشعائره العظام ٦٥

١- كونه شرطًا للإيمان ولازمًا من لوازمه ومقتضياته ٦٦

٢- كونه شرطًا للإسلام ٦٨

٣- علاقته بالإحسان ٦٨

٤- التوكل والهداية ٦٩

٥- التوكل والتقوى ٧١

٦- التوكل والدعاء ٧٢

٧- التوكل والصبر ٧٣

٨- التوكل والعبادة ٧٥

- أقسام الناس في مقام التوكل والعبادة ٨٠
- أسرار تقديم العبادة على التوكل ٨١

ثانيًا: أمر الله به نبينا ﷺ والأنبياء قبله ٨٣

ثالثًا: جعله شعارًا لعباده المؤمنين وأثنى عليهم به ٨٨

رابعًا: ضرورته للعبد وعدم استغنائه عنه طرفة عين ٩٠

١- من ناحية ضرورة العبد إلى عبادة الله..... ٩٠

٢- من ناحية حاجة العبد وافتقاره ٩٠

- من جهة فقر العبد وعدم ملكه شيئًا لنفسه فضلاً عن غيره . ٩١
- من جهة كون الأمر كله بيد الله ٩٥
- من جهة أن تعلق العبد بما سوى الله مضرة عليه ٩٧
- من جهة أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب له الضرر من جهته عكس ما أمله منه ٩٩

الفصل الرابع: ثمرات التوكل ١٠٩

١- تحقيق الإيمان ١٠٩

٢- طمأنينة النفس وارتياح القلب ١١٠

٣- كفاية الله للمتوكل جميع شئونه ١١١

٤- من أقوى الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ١١٦

٥- يورث محبة الله تعالى للعبد ١٢١

٦- يورث قوة القلب وشجاعته وثباته وتحديده الأعداء ١٢٣

٧- يورث الصبر والتحمل ١٣٠

٨- يورث النصر والتمكين ١٣٢

٩- يقوي العزيمة والثبات على الأمر ١٣٧

١٠- يقي من تسلط الشيطان ١٣٩
١١- من أسباب دفع شر السحر والحسد والعين ١٤١
١٢- يورث الرزق ١٤٣
١٣- يطرد داء العجب والكبر ١٤٤
١٤- يطرد التطير والأمراض القلبية الأخرى ١٤٦
١٥- يورث الرضا بالقضاء ١٤٧
١٦- سبب في دخول الجنة بلا حساب ولا عذاب ١٥١
الفصل الخامس: أقسام التوكل ١٥٥
أولاً: التوكل على الله تعالى ١٥٥
*أقسام التوكل على الله تعالى ١٥٧
ثانيًا: التوكل على غير الله تعالى ١٥٨
١- التوكل الشركي ١٥٨
* أنواع التوكل الشركي ١٥٩
٢- الوكالة الجائزة ١٦١
الفصل السادس: الأسباب وعلاقتها بالتوكل: ١٦٥
تعريفها ١٦٥
مواقف الناس من الأسباب: ١٦٧

القول الأول: الالتفات إلى الأسباب بالكلية، واعتماد القلب
والجوارح عليها ١٦٨
القول الثاني: الإعراض عن الأسباب بالكلية ١٦٨
*مفهوم التوكل عند الصوفية ١٦٩
*شبههم في ذلك والجواب عليها ١٧٠
*مفاسد الإعراض عن الأسباب ١٧٥
القول الثالث: نفي تأثير الأسباب بالكية ١٧٧
القول الرابع: قيام الجوارح بالأسباب واعتماد القلب
على مسبب الأسباب ١٨١
أدلة وجوب الأخذ بالأسباب: ١٨١
أولاً: من القرآن الكريم ١٨٢
ثانيًا: من السنة النبوية ١٨٣
* هدي النبي وأصحابه في ذلك ١٨٧
* هدي السلف الصالح ومأثورهم في ذلك ١٨٨
* موقف أهل السنة والجماعة ١٨٩
* أحكام الأسباب ١٩٠
* ما يجب على العبد أن يعرفه في الأسباب ١٩٥
* ما يجب على العبد أن يتقيه في الأسباب ١٩٧

الفصل السابع: من مظاهر ضعف التوكل "قوادح التوكل": ٢٠٣
١- درجات الأسباب ٢٠٣
٢- المقصود من هذه الدرجات في هذا الفصل ٢٠٤
أولاً: الاسترقاء ٢٠٥
حكم الرقية ٢٠٦
١- الرقية الجائزة ٢٠٦
أدلة مشروعيتها ٢٠٧
أولاً: فعله ﷺ بنسه ٢٠٧
ثانيًا: فعله ﷺ بغيره ٢٠٧
ثالثًا: أمره ﷺ ٢٠٧
رابعًا: إقراره ﷺ ٢٠٨
٢- الرقية الممنوعة ٢٠٩
أدلة منعها ٢٠٩
هل تنافي الرقية التوكل وتقدح فيه؟ ٢١٠
أقوال العلماء في المسألة ٢١٠
الأول: ٢١٠
الثاني: ٢١٠
الثالث: ٢١٣

ثانيًا: الاكتواء: ٢١٧
حكمه وأدلة ذلك: ٢١٧
حكم التداوي، وهل ينافي التوكل؟ ٢٢١
ثالثًا: التطير: ٢٢٦
* موقف الإسلام من التطير ٢٢٧
أولاً: أنه من أعمال الجاهلية ٢٢٧
ثانيًا: أن الطيرة من المحرمات الشركية ٢٢٨
ثالثًا: أنه لا ارتباط بين الأعيان المتطير بها وبين جلب المنافع ودفع المضار ... ٢٢٩
رابعًا: تحريم الالتفات إلى ما يجده الإنسان في نفسه من التطير ٢٣١
خامسًا: نهي النبي ﷺ عن تنفير الطير ٢٣٢
سادسًا: الإخبار عنه بأنه ﷺ كان لا يتطير ٢٣٢
سابعًا: مدح النبي ﷺ لمن ترك التطير ٢٣٢
ثامنًا: شدة حذر السلف من ذلك ٢٣٣
تاسعًا: نفور ذوي العقول السليمة والطباع المستقيمة منه ٢٣٤
عاشرًا: بيان كفارة ذلك الإثم لمن وجد في نفسه شيئًا منه ٢٣٥
الحادي عشر: الآثار النفسية السلبية للمتطير ٢٣٦
أوجه منفاة التطير للتوحيد والتوكل ٢٣٧
هل التشاؤم من الطيرة الشركية؟ ٢٣٨

أقوال العلماء في المسألة وموقفهم من الأحاديث الواردة ٢٣٩
القول الأول ٢٣٩
القول الثاني ٢٤١
القول الثالث ٢٤١
القول الرابع ٢٤٤
القول الخامس ٢٥٠
هل الفأل من الطيرة؟ ٢٥٣
أقوال العلماء في المسألة: ٢٥٣
* القول الأول وأدلته ٢٥٣
* القول الثاني وأدلته ٢٥٤
من الفروق بين الفأل والطيرة ٢٥٥
ضابط الفرق بين الفأل والطيرة ٢٥٨
الخاتمة ٢٦٣
ثبت المصادر والمراجع ٢٦٧
فهرس الموضوعات ٢٨٩